ذاكرة الرحيل

عبد الرزاق قرنح

جائزة نوبل 2021

ترجمـة: عبير عبد الواحد

مكتبة 1281

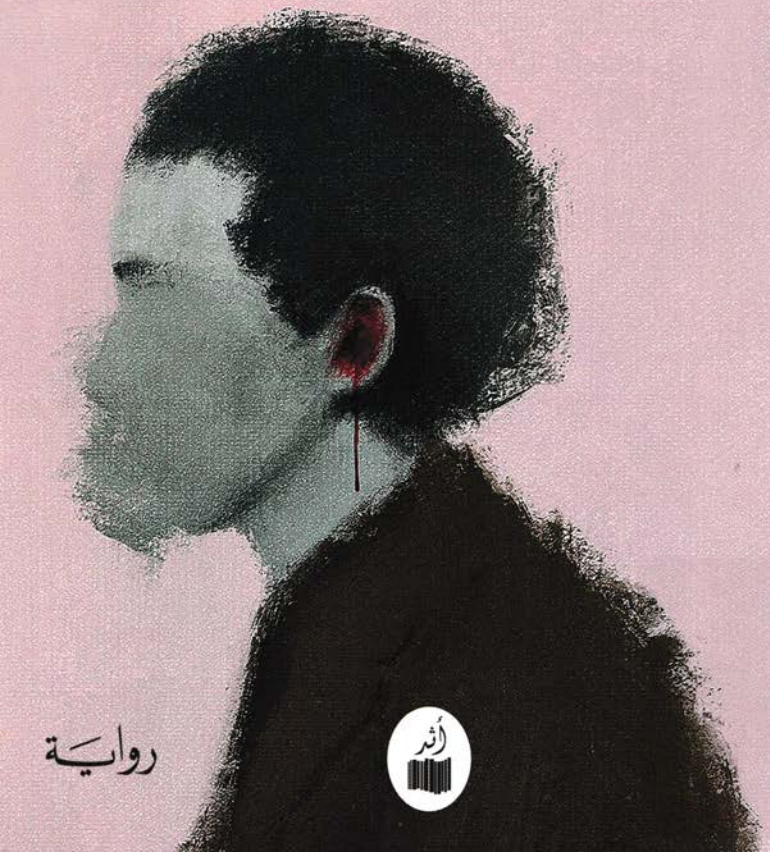

رواية

أثر

ذَاكِرةُ الرَّحيْل

مكتبة | 1281

ذاكرة الرحيل/ رواية

تأليف: عبد الرزاق قرنح

ترجمة: عبير عبد الواحد

مراجعة الترجمة: زوينة آل تويّه

ردمك: 978-603-91836-1-7

رقم الإيداع: 10129 / 1443

Copyright © Abdulrazak Gurnah, 1987

أثر

دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966549966668

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

29 7 2023

مكتبة

t.me/soramnqraa

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

ذَاكِرةُ الرَّحيْل

رواية

عَبد الرَّزاق قُرنَح

ترجمة

عبير عبد الواحد

مكتبة 1281

إلى ليلى وسارة

و«س.ف.ج»

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الأول

كانت أُمّي في حوش الدار تُضرِم النار. تَناهى إلى سمعي قبل أن أخرجَ إليها شيءٌ من الدُّعاء الذي كانت تُردّده. رأيتها وَقد أخفَضَت رأسها فوقَ الكانون، وراحت تنفخُ بِرفقٍ لإذكاءِ النّارِ في الفَحم. كانَ قِدر الماء جاهزًا عندَ قدميها. عندما استدارت وَنظرت إليّ، رأيتُ أن النارَ سَوَّدت وجهها، وملأتْ عينيها بالدموع. طلبتُ منها مالًا من أجل شراء الخبز، فقَطَّبت كما لو أنها تكره مُقاطعتها عن إشعال النار. مدَّت يدها إلى صدار ثوبها وَسَحبت المنديل المربوط الذي كانت تحتفظُ بنقودها فيه. كانت قطع النقود المعدنية التي وضعتها في يدي دافئة من حرارة جسمها، وكان مَلمسها ناعمًا ومستديرًا وبلا حوافّ.

قالت: لا تتأخّر. ثمّ التفتتْ إلى النّار مجدّدًا، دونَ أن ترفعَ بصرها إلى وجهي. غادرتُ المنزل دون إلقاء التحيّة عليها، وشعرتُ بالأسف بِمجرّد أن أدرتُ ظهري لها.

كانت حينها في بداية الثلاثينات من عمرها، لكنها بَدَت أكبر سنًّا. الشّيبُ غزا شَعرها، وأتلَفت السّنين وجهها، وحَفَرتهُ بالمرارةِ والأسى. وكانَ يُلمَحُ في عينيها دومًا نظرة عاتبة مؤنِّبة، وإن أدنى تجاهلٍ يستثير فيها نظرات الحنق والاستياء. في بعض الأحيان ترتسمُ على وجهها ابتسامة تُعيد إليه الحياة، لكنّها ابتسامة مُتأنّية وعلى مضض. شعرتُ بالذنب تجاهها، لكنني أعتقدُ أنها ابتسمت فقط ترحيبًا بي في عالم الرجولة.

مشيتُ عبر الزقاق المُعتِم بجوار المنزل. كانَ النَّدى الكثيف قد خفّفَ من الغبار في الجوّ، وَلمّعَ أسطح القصدير للأكواخ على جانبي الطريق. وبِرغم ما في الطريق من حُفرٍ ونُقَر، إلّا أنه بدا أكثر استواء وأشدُّ صلابة من الأكواخ الطينية المحيطة به. هذا هو حيّ « كينجي» حيث يعيش الكادحون والفَشَلة، ويُتاجَر ببائعات الهوى الذاويات، والمثليين جنسيًّا الملوّنين، إنه المكان الذي يَقصده السُّكارى من أجلِ نبيذ التّمر (تيندي[1]) الرخيص، حيثُ تعوي من الألم أصوات مجهولة في الشوارع ليلًا. مرّت حافلة فارغة، وهي تهدرُ وتتمايل على الطريق المُخرَّب. كانت مطلية باللونين الأخضر والأبيض، وأنوارها الأمامية ضعيفة وصفراء في ضوء الصباح.

كانت الفُسحة حول شجرة البمبوزيا[2] خاوية تمامًا في هذا الوقت المبكر من اليوم. انبعثت من الجامع الأخضر همهمة الصلاة، حيث احتشدَ المؤمنون وتراصّوا. من البعيد ارتفع صِياح ديك. كانت أطراف الصخور المسنّنة قد انغرست في تربة السّاحة، ما شَكّل خطورة على القدم الغافلة. مع هطول المطر، تستحيل الأرض حقولًا من العشب المتبرعم، ولكن كان حينئذ منتصف موسم الجفاف.

كان حيّ كينجي قريبًا من البحر. طعمُ الملح في الهواء دومًا. في الأيام الرطبة الحارّة، تُغطّي المناخر والآذان طبقة من الملح. وفي الأصباح ذات الطقس المعتدل، يهبُّ نسيم البحر العليل وينعشُ القلب لدى مولد يوم جديد. في أعوامٍ خَلَت، جَابَ تجّار الرقيق هذه الطرقات. نداوة الرمال برّدت أصابع أقدامهم، وكانت قلوبهم مكفهّرة بالمكر والأذى. خرجوا

---

(1) تيندي: tende تمر باللغة السواحلية.

(2) شجرة البمبوزيا: بالسواحلية Mzambarau. ويُشار إليها بأسماء أخرى مثل الجمبولان أو الزام زام أو البرقوق الأسود الهندي أو الفلفل الهندي. ثمرتها تُشبه الزيتون.

بطوابير من اللحم البشري الممتاز، وَساقوا غنيمتهم إلى البحر.

ناولني صاحب الدكّان اليمني رغيف الخبز دون أن يتفوّه بِكلمة. نفضَ يدهُ على قميصه قبل أن يأخذ مني النقود، بِتذلّل المتسوِّل. كانت على وجهه ابتسامة خنوع، لكنَّه تلفّظَ بشتيمة بصوتٍ خفيض.

عندما رجعتُ إلى المنزل كانَ أبي يُصلّي. كانَ جالسًا على الأرض في الحوش، طاويًا رجليه تحته. كانت عيناه مُغمضتين، ورأسهُ منخفضًا على صدره. وقد استقرّت قبضتا يديهِ على ركبتيهِ وهو يُشيرُ بِسبّابة يده اليمنى إلى الأرض.

قطّعتُ الخبزَ إلى شرائح، ثم مضيتُ إلى إيقاظ أختيَّ. كانتا تنامان في غرفة جدّتي، التي كانت حوائطها تنضحُ برائحة الآباط والعرق. تمدد جسمها المنكمش في طيّات، وتدلّت ذراعها من فوق حافة السرير. كانت زكية مستلقية بجوراها. إنها الشقيقة الكبرى، وكانت مستيقظة بالفعل. كان إيقاظ سعيدة أصعب دومًا. عندما هززتها تقلّبت بعيدًا، وأدارت ظهرها لي ونَخَرت ممتعضة. ضقتُ ذرعًا بها، وفي النهاية أمسكتها من كتفيها ورحتُ أهزّها هزًّا عنيفًا. صاحت جدتي غاضبة، وهي تنهض من نومها على أنين سعيدة.

- إيه! ما الذي تفعله! احترس. هل تريد أن تقتلنا جميعا؟ احترس! ألا تسمع؟

نناديها «بي مكُوبوا»؛ وتعني السيدة الكبيرة. بدت واهنة ولطيفة لكنها كانت قاسية وبِلا رحمة. سمعتها تتمتم من خلفي عندما استدرتُ للمغادرة.

- إنكَ لا تقولُ شيئًا. ولا تُكلِّف نفسكَ عَناء إلقاء التحيّة على أحد. تعال إلى هنا!

وفجأة عَلا صراخها.

- أنت أيّها اللعين الصغير! مَن تَحسبني ها؟ عُد إلى هنا!

وقفتُ في الخارج عند الباب الخلفي منتظرًا الانصياع لصراخها. سمعتها تولولُ وتُنادي أبي كَمَن بهِ ألم. كانَ أبي ما يزال جالسًا في الحوش، لم يفرغ من صَلاتهِ بعد. رَنَت أُمّي إليه، لكن عينيه كانتا مُغمضتين عن الصراخ مِن حولهِ. هزّت رأسها مُومِئةً إليّ. «أنت لا تتوب عن تصرفاتك هذه أبدًا!» وَعجَّلتْ إلى الداخل لإحضار كُتبي، تاركة إيّاي بمفردي مع أبي للحظات. أعطتني شريحة من الخبز، وسِنتًا من أجل فنجان من الشاي. كانَ ذلك صباح عيد ميلادي الخامس عشر.

في مدرسة القرآن، التي التحقتُ بها وأنا ابنُ خمس سنين، تعلّمتُ أن الصبيان يصيرون مُكلَّفين ومُحاسَبين أمام الله في سنّ الخامسة عشرة. بينما تبلغُ البنات مرحلة النضوج هذه في سن التاسعة. الأمر متعلّق بالإفرازات. هكذا اقتضت مشيئة الله.

كانَ أبي قد أخبرني: «عندما تبلغ الخامسة عشرة، يغدو الأمر بينكَ وبين الله. كلُّ إثمٍ ترتكبهُ سوفَ تَخطّهُ ملائكته في كتابك. وفي يوم القيامة، تُوزَن أعمالك الصالحة مع الطالحة. إذا أطعتَ أوامر الله، فالجنّة مآلك. وإن عصيته سوفَ تُحرَق في نارِ جهنّم. ستُحرَق حتى العظم، ثم ستنمو بالكامل وتحترق من جديد. هكذا إلى أبد الآبدين. لا إله إلا الله محمد رسول الله. يجب أن نصلّي خمس مرات في اليوم، وأن نصوم رمضان، ونعطي الزكاة في كل سنة، وأن نذهب إلى مكة مرة واحدة على الأقل في حياتنا؛ إن رزقنا الله الوسيلة. قَسّمَ الله الجحيم إلى سبع دَرَكات. أعمقها للكذّابين والمنافقين، الذين يتظاهرون بالتقوى وفي قلوبهم شكّ».

«في كلّ يوم يجب أن تشكرَ الله لأنكَ لم تُولَد كافرًا أو هَمجيًّا، لأنكَ ولِدتَ لأبوين بإمكانهما أن يُعلِّموكَ عَظمته وَحِكمته. أنت من المؤمنين بالله، ومخلوق

من خلق الله. في غضون سنواتٍ قليلة ستكون في الخامسة عشرة من عمرك، وستصير رجلًا. تعلَّم أن تُطيعه الآن وإلّا ستحترق في نارِ جهنّم إلى الأبد».

في الصباح الذي بلغتُ فيهِ الخامسة عشرة من عمري، أَقلَّتني إلى المدرسة الحافلة ذاتها مثل كلِّ صباح. كانت الوجوه ذاتها معي في الحافلة؛ الفتيات أنفسهنَّ يجلسنَ معًا وبِمعزلٍ عنا، فلقد تربّينَ على الشعور بالقلق والخجل في حضور الرجال. بحثتُ بينهن عن التي كنتُ أفضّلها. كانَ شعرها مفرودًا على كتفيها. ولكن ما أظهرتهُ مِن تَزمّتٍ جعلَ رغباتي بلا معنى. بدت الفتاة بجانبها ألطف. كانتا قاعدتين أمامي، حتى إنني لم أتجرّأ على سؤالهما عن اسميهما. فكّرتُ في الأحلام ليلًا عندما يتدّفق الدم ساخنًا.. في الصباح صرتُ رجلًا.

في طريق العودة إلى المنزل، دخلتُ إلى المسجد المعتم المطليّ بالدهان الأبيض. كانت أرضيّته مفروشة بالحصير المصبوغ ليجلس عليها المصلّون. دخلتُ بينهم وفتحتُ حسابي عند الله عزّ وجل.

سُحبٌ من الغبار تتصاعد أعلى فأعلى، أثارتها أقدام الجائلين وعابري السّبيل. تتوهّج الأشجارُ بقوّة في شمسِ الظهيرة. تتقلّب أمواجُ البحر المعذّبة تحت وطأة الحرارة اللاهبة؛ وتتقلّب وتتبدد وتتبخر، وتتحوّل إلى ضَباب وبُخار يتكثّفُ في البرودة التي تعقبُ غروب الشمس.

لدى اقترابي من الواجهةِ البحريّة، شممتُ رائحة سوق السّمك. بعض الصيّادين كانوا ما يزالونَ في الجوار. معظمهم يعملونَ في الليل، ويعودون إلى منازلهم للنوم على صوت أذان الظُّهر للصلاة. في كل ليلة يدفعونَ مراكبهم الصغيرة في المياه ويختفون. يغيبُ بعضهم عدّة أيام، ثمّ يعودون بِسمكة قرش أو سمكة أبو سيف تغلّبوا عليها في معركة. عندما كنتُ أصغر سنًّا، كنتُ أعتقدُ أن هذه الحياة مثيرة وحرّة؛ حياةُ رجل.

غمرتني رياح الملح القادمة من البحر. اختلطت رائحة أحواض السفن، حولَ منعطف حاجز الأمواج، بِقعقعة الحوافر. كانوا يُحمِّلون الماشية إلى الجُزر. بسبب ذبابة تسي تسي لم تكن المواشي بحال جيدة في الجُزر. لذلك كان التجار المحليون في كل شهر يُحمِّلونَ أبقار البوران[1] المصابة والهَرِمة في السُّفن الشراعية ويعبرون بها البحر.

رأيتُ العجوز بكاري يسير على طول الشاطئ الموحِل باتجاه الدَّرج. عندما كنتُ صغيرًا، كانَ بكاري يحدّثني دومًا عن البحر والصيادين. كانَ دائمًا لطيفًا معي. أحيانًا، كانَ يعطيني قطعة من الكاساڤا[2] المشوية، أو بعض الأسماك لآخذها معي إلى المنزل. قال إنّ البحر يُخيفه. وقال إنَّ الناس لا يعرفونَ البحر على حقيقته. قال: «إنه وحشٌ. عميق عميق، عميق إلى حدٍّ لا تتخيّله. ثمّة سهول وجبال وكثير من الرُّفات البشرية. وأسماك قرش تسعى وراء طعامها. ذات يوم... وصرخات صاخبة من طيور الماء. إنه حفرة الموت».. كان جسده أشبه بِعضلة مشوّهة مجروحة. حدّقَ في وجهي للحظات، ثمّ ارتسمت على مُحيّاه ابتسامة عريضة.

سألني: كيف حالك؟ وكيف حال والدك ووالدتك؟

- أهلًا مزيه (عمّ) بكاري، إنهما بخير.

- والمدرسة؟ هل الأمور على ما يُرام؟ وأردفَ مُبتسِمًا: ستصير طبيبًا ذات يوم.

- كل شيء على خير ما يُرام.

---

(1) بوران: سلالة من الأبقار من نوع زيبو أو الدرباني في شرق أفريقيا.

(2) كاساڤا أو منيهوت أو بفرة: نباتي استوائي جذوره كثيفة غنية بالنشويات صالحة للأكل. تعتبر أفريقيا أكبر مركز إنتاج له.

أومأ برأسهِ استحسانًا.

- الحمدلله، قل الحمدلله على كل هذا الإحسان واللطف الذي أسبغهُ علينا.

وانتظرَ مني أن أحمد الله أنا أيضًا. ثمّ استطردَ بالقول: آه حسنًا، ينبغي أن أذهب إلى فراشي الآن. بلّغ والديكَ سلامي.

لوّح بذراعهِ ومضى مبتعدًا، هَرِمًا، محنيّ الظهر معوّجا.

في بعض الأحيان كان بكاري يجنّ ويفقد صوابه فيضرب زوجته وأولاده. في مرة من المرات أشعل النار بزوجته. وحطّمَ كرسيًّا على إحدى بناته، ما زالت تعاني من نوبات الإغماء وبالكاد يمكنها النطق بوضوح. ندِمَ فيما بعد على فعلته، فأوصدَ على نفسه بابه ودعا الله واستغاثَ بهِ طالبًا مغفرته، وتوسّلَ إليه بأن يقبض روحه، وترجّى عائلته أن تُسامحه. كانَ يخشى أن يدخلوه مستشفى المجانين. إذ لا أحد يخرجُ منها سالمًا. فهم يضربون نزلاءهم هناك، كَيما يتيقنوا فيما إذا كانوا مجانين حقًّا، أو أنهم مجرّد مُدخني حشيش يبحثون عن سقفٍ يؤويهم.

دأبَ بكاري على القول إن الله هو الحقيقة الوحيدة في هذا العالم. وهو إن شاءَ إعطاءه رأسًا معطوبة فَلهُ الأمر وحده. بوسعنا أن نفعل فقط ما نعتقدُ أنه صواب، ما نعتقدُ أن الله يريده.

كانَ هواء البحر نافعًا من أجل الضِّيق في صَدري. كانَ المدُّ ينحسر، وكانت زوارق الصيّادين مركونة على جوانبها في الوحل، ودِعاماتها موشّاة بالأعشاب. سَفعت أشعة الشمس الشاطئ الأخضر اللّزج، فَشَاعت رائحة نتنة حادّة. خلفَ كاسر الأمواج، انطلقت شرطة الميناء نحو الميناء. كانت ثمّة سفينة قادمة.

عرفتُ بأنه ينبغي عليّ العودة إلى المنزل، لأنني أنتمي إليهم. إذا لم أعد،

سيأتون للبحث عني. ثمّ سيضربونني، وسيحبونني بعد ذلك ويذكروني بكلام الله. سوف يطاردونني في الغرف وخارجها وفي الفناء، ويعنّفونني. ويتكرر الكلام ذاته: لا يصغي إلى أحدٍ أبدًا، إنه يشعر بالخِزي منا، يستحي من اسمه. انظروا إلى هذا الكذاب الآن. أي شيء فعلناه كي نستحقّ ولدًا مثله؟

وكانت جدتي لِتقول: إنه لا يسمع الكلام أبدًا. مؤججةً غضبَ أبي.

وتعترضُ أُمّي قائلة: «ألم ينل ما يكفيه بعد؟» وهي تحومُ من حولنا، جَزِعةً على فرخها الجريح. وفي الأخير تنسحبُ إلى غرفتها متجهمة. ما الجدوى من كل ذلك؟ من الأفضل المكوث بجوار البحر القذر، بعيدًا عن الفوضى والإذلال.

في البعيد، كانت السفينة تقتربُ، وعلى متنها حمولتها من البَحّارة اليونانيين والأرز التايلندي.

كثيرًا ما أخبروني كم كنتُ ضعيفًا عندما ولِدتُ. ولِدَ أخي سعيد قبلي بعامٍ ونصف. أسموه على اسم جدي الذي كانَ محتالًا نوعًا ما. ليلة ولِدَ سعيد، كانَ والدي مخمورًا وعُثِرَ عليه متكوّمًا عندَ مرأب السينما. تلت جدتي الأدعية والصلوات لأجلِ المولود الجديد، سائلة الله أن يحميه من أعين الناس الحاسدة.

عند ولادتي تسببتُ لأمي بآلامٍ عظيمة. قالت جدتي إنه يجب استدعاء شخص ما ليقرأ القرآن عليّ، ويدعو الله أن يُبقيني حيًّا. غَسَّلوني بماء مقدّس من بئر زمزم، ولفّوني بثياب نُقِشَ عليها آيات من القرآن. ألحوّا على الله بالدعاء كي أظلّ حيًّا. مرّت ثلاث سنوات قبلَ قدوم زكية. لا أنا ولا سعيد أعرنا انتباهًا كثيرًا لقدومها. ما فائدة أن يكون لك أخت؟ كانَ سعيد يضربني

في غالب الأحيان. كانَ هو الأكبر سنًّا. قال إن الضرب يُقوّيني ويجعلني أشد صلابة. كانَ لسعيد أصدقاء كُثر، وعندما كانَ في السادسة من عمره كان يمارس الجنس مع الأولاد. علَّمني مطاردة القطط الضالة وضربها بكبلات معدنية مَجدولة. غزونا البساتين المسوّرة لسرقة الفواكه. ضايقنا الشّحاذين والمجَاذِيب وسَخِرنا منهم. أجبرني سعيد على العراك مع صِبية آخرين، كي يشتدّ عودي. وبدافع الإحباط، كثيرًا ما أزاحني جانبا وأخذ على عاتقه إنهاء معركة كنتُ أخسرها. وعندما أعود إلى المنزل مصابًا بالجروح ونازفًا، كانَ سعيد مَن يتعرض للضرب. ويقولُ له أبي وهو يوسعهُ ضربًا: «إن افتَعلتَ المشاكل مرة أخرى، سأقتلك يا ابن الحرام. هل تسمعني؟» بعد ذلك تتدخل جدتي. وتخرجني أُمّي إلى الفناء. وينخرطُ سعيد بالنحيب في غرفة جدتي. لياليَ كثيرة لم يَنَم والدي فيها بالمنزل.

لم يهدأ سعيد قط. كانَ دائم الجدال والبلطجة، ويُضرَب بالمقابل. وكلّما بكت أُمّي ملتمسةً طبيعته الخيّرة ضحك منها. كانَ دائمًا يبكي عندما يضربه والدي، ويرتمي في أرجاء الغرفة، ويصرخُ متألّمًا، ويغمِزُ لي عندما يظنّ أن أبي لا يراه. كانَ سعيد ضخمَ الجثّة. عندما يرانا الناس معًا يقولون إنه سيحرمني من الميراث عند وفاة أبي. وإذا ما أُعطيَ مالًا لشراء الحلوى، كان سعيد يدفع للصبيان الصغار مقابل خلع سراويلهم القصيرة في زاوية هادئة. حاول إقناعي للانضمام إليه. كانَ في بعض الأحيان يجلبُ صبيًّا لي، ويقول إن الصبي يريدني أن أمارس الجنس معه. كانَ يتعجّلني هامسًا... حاولتُ أن أشعر مثلما كان يشعر، لكنني خيّبتُ آماله. كنتُ أشتري الحلوى بمالي، وأعطيه نصفها دومًا.

في مرة من المرات، قُبِضَ علينا جميعًا لِضربنا أحد الصِّبية في الحيّ. قيّدهُ سعيد إلى الشجرة، وضربهُ بالخيزرانة. أبلغَ والدُ الصبي رقيب الشرطة

بِفعلتنا، فاعتقلنا جميعًا وأخذنا إلى المخفر. أحببتُ الرقيب لأنه سمح لنا بالدخول إلى المخفر واللعب بالأصفاد. وإذا ألقى القبض على لصّ، سمحَ لنا بالدخول إلى المكتب لمشاهدته وهو يُهاتفُ مركز قيادة الشرطة. عندما وصلنا إلى المخفر أخرجَ سجلًّا كبيرا.

قالَ وهو ينقرُ على السِّجل بِبراجمِهِ: «توجدُ أسماء هنا في الداخل، أسماء أناس أشرار. وبمجرّد تدوين أسمائكم هنا، ستذهبون إلى المحكمة. هل تعلمون ما الذي يفعلونه للأطفال في المحكمة؟ يرسلونهم إلى سجنٍ في الغابة».

أشارَ إليّ وأمرني بالعودة إلى المنزل. طِرتُ دونما لحظة تردد واحدة، مُبتسِمًا في وجه الرقيب. عندما رجعَ سعيد إلى المنزل، كل ما أخبرني به هو أن الرقيب أعطاهم إنذارًا. في النهاية، كلّ ما فعله الرقيب هو إبلاغ والدي بالأمر. نالَ سعيد نصيبهُ من الضرب. وأنا اختبأتُ تحت السرير.

ذات يوم، بينما كنتُ أُنقِّبُ في حاوية القمامة، عثرتُ على ورقة نقدية من فئة خمسة شلن. سألتُ سعيدًا إن كان عليَّ أخذها إلى الأشخاص الذين يستخدمون حاوية القمامة هذه.

قال: لا تكن أحمق، أنت من وجدها.

قلتُ: ولكن هذا خطأ، إنها ليست لنا.

سألني: من قال هذا؟

- أبي.

نخرَ بازدراء.

وأصررتُ على موقفي: لكنها مثل السرقة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- أنتَ غبي.

قالها ببرود وعلى نحوٍ جارح. وَهَمّ بِالسير مُبتعِدًا. ركضتُ خلفه، وقد شددتُ قبضتي على ورقة الخمسة شلن. اشترينا مخروطين من البوظة لِكلّ واحد منا، وباغيّا[1] ومَبَتاتا (بطاطا) وشوكولاتة. ثمّ جلسنا في الحديقة العامة، «حديقة اليوبيل» كما كانَ اسمها حينذاك، تحتَ شجرةٍ مُورِقةٍ وارفة الظِّلال، واستمتعنا بالنزهة. اشترينا كرة قدم بلاستيكية، ورجعنا بعد ذلك إلى الحديقة للعب مع بعض الصِّبية هناك. سِرنا عائدين إلى المنزل بِكُرة القدم تحت ذراعي ولوحين من الشوكولاتة في جيب سعيد. قال سعيد إنه بإمكاننا تخبئة الكرة تحت بعض الأكياس، ثمَّ نتظاهر بأننا وجدناها هنالك بعد يومٍ أو يومين. عندما انعطفنا إلى الفناء الخلفيّ لم يكن أحد هناك. انتزعَ سعيد الكرة مني ثمّ هرعَ نحو الأكياس الفارغة.

صاحَ أبي، واقفًا بجانب الباب: ماذا تفعل؟

مشى نحو الأكياس وأخرج الكرة. كانوا مقتنعين بأننا تسوّلنا المال في الشارع، أو حتى أسوأ من ذلك. قلتُ إننا وجدنا المال، ما أزعجَ والدي. قال إنني كنتُ أستغبيه، ثمَّ هل اعتقدتُ بأنه يحتفظُ بِعقلهِ في جورةِ خِراء؟ حدّقَ سعيد إليّ، محذّرًا إياي ألّا أقول شيئا، وأن ألتزمَ الصمت وأحتمل الضرب. أخبرتهم بأننا وجدنا المال في حاوية القمامة. رفعَ سعيد حاجبيه إلى أعلى. وفجأة خيّمَ علينا جميعًا صمتٌ ثقيل. لم أعرف لماذا كانَ ما قُلتهُ صادمًا للغاية.

التفتَ والدي إلى سعيد وقال: هكذا إذن! عثرتما على المال في حاوية القمامة!

---

(1) باغيّا: Bajia بالسواحيلي، مَقليات شعبية تُباع بالشوارع، تُصنع من الدقيق والخضار (تُشبه الباكورة الهندية).

ورأيتُ بأنّ والدي بدأت تنتفخُ أوداجهُ وراح الشّرر يتطايرُ من عينيه. وأنشأ سعيد يتنشّق.

أسرعت أُمّي لِتقفَ بينَ أبي وسعيد، وسَألتْ: ما قصة حاوية القمامة هذه؟ ما الذي كنتما تفعلانه؟ أنتما محظوظان لأنكما لم تُصابا بمرض. عمّ كنتما تبحثان؟

جَذبت أُمّي سعيدًا من ياقتهِ، وَهَمّت بأخذهِ بعيدًا. خَطا أبي إلى الأمام، ودفعها جانبًا. تراجعَ سعيد بتردّد، وَنشَجت أُمّي بصوت خفيض، ومقلتاها تفوران بالدّمع.

قالَ والدي وهو يمشي نحو سعيد: أنا أخبركِ ما الذي كان يبحث عنه في حاوية القمامة. إنه يبحثُ في حاويات القمامة عمّا لا يستطيع العثور عليه في المنزل. وعندما لا يجد ضالّته حتى هناك في حاويات القمامة، يبحثُ عنها في سرير أحدٍ ما، ليضاجع مؤخرته. أيها النّذل الصغير!

أردتُ أن أقول إنه أنا من وجد المال وليس سعيد.. كنتُ خائفًا مرعوبًا. كفَّ سعيد عن البكاء، وكانَ يراقب والدي بتركيزٍ وَثبات، مُتأهبًا للهرب. في هذا الوقت كانت أُمّي تَنشُجُ جَهرًا، وجسدها يرتعشُ كما لو أنها تُصلّي.

قالَ والدي، وقد شرعَ بالانحناء: لقد حذّرتك. لقد حذّرتك، وسأكسر عنقكَ من أجل ذلك!

استدارَ سعيد وفرَّ هاربًا، فأسقطهُ أبي بضربة على كتفهِ اليمنى. بدا الأمر وكأنه فأسٌ يقصّ اللحم. انثنت رُكبتا سعيد، وفغرَ فمه كما لو أنه يكافح لالتقاط النَّفَس. وثبَ أبي إلى الأمام، ووقفَ على مسافة إنشات من جسدِ ابنه البِكر المائج المضطرب. ركلهُ على بطنه. ثمّ ركلهُ مجدّدا عندما حاولَ النهوض. ضربهُ بقبضتيهِ الاثنتين معًا، نطحهُ برأسه، وعضّهُ من معصمه. ظلّ يضربهُ حتى أخرجَ ما في أمعائه.

صرخت أُمّي وهي ترمي بنفسها على أبي: دعهُ يعيش! سوفَ تقتله!

طرحها أرضًا. التفتَ إليها وزمجرَ مثل حيوان. كانت ذراعاه تندفعان بقوّة، وتلوّحان في الهواء غيظًا وحنقًا. وكانت أُمّي قابعة على الأرض. ثمّ عادَ إلى سعيد، وصرخَ في وجهه وزأر. ضربه بكراهية وغضب حقيقيّين، كان العَرق ينضحُ من ذراعيه إلى أسفل قدميه. الفاجر. وفي النهاية، وقفَ فوقه، مباعدًا رجليه، وصاحَ، هل اكتفيت؟ وقفَ فوقَ ابنه البكر، وصاحَ به: قل لي هل اكتفيت؟

ألقت أُمّي اللوم عليّ. أعلمُ هذا. كانَ سعيد ينتحبُ ويرتجف مثلَ حيوان صغير. غَسلّته أُمّي وَبكت عليه. غنّت لهُ ومَسّدتهُ وهي تضعه في الفراش. أنا من اكتشفَ ما جرى لهُ مساء ذلك اليوم. كانت أُمّي قد تركت شمعة بجوارِ فراشه. عندما دخلتُ غرفته، كانَ قميصهُ يحترق. وعلى الأرض بجواره، اشتعلت النيران في كومة من الملابس والصحف. كان مستلقيًا، يكافحُ من أجل النهوض، ويضربُ على صدره مترنّحًا. صحتُ باسمهِ، فالتفتَ إليّ، والخوف يتوثّبُ من مقلتيه.

صاحَ قائلًا: أطفئها! أطفئها!

صرخَ بكلّ ما أوتيَ من قوّة في كيانه. أطلقَ العنان لصراخ فزعٍ مذعور، وَخَبطَ على الأغطية. كافحَ كي ينهض لكنه لم يستطع. أسرعتُ نحوهُ، باكيًا صائحًا، محاولًا إخماد النار، لكنني أحرقتُ يديَّ فقط.

صرخَ عاليًا: آه، يا الله، يا الله.

رجوتهُ أن يُطفِئ النار. وقفتُ وشاهدتهُ يحترق. أغمضَ عينيه وسقطَ على الأرض، قسمات وجهه ملتويّة ومكفهرة. أنشأتُ أركضُ من حوله، أقفزُ وأصيح، وأبكي كالمأفون. تقلّبَ. ثمّ ارتطمت ساقاه بالسرير فَخَرّ الهيكل فوقه. واحترقَ بالكامل. كانت ساقاه مثلَ مشعلين متأجّجين عندَ الفخذين.

كانَ وجهه غير مألوف، ومُبقّعًا بالبياض في بعض أجزائه. وَصلَت النارُ إلى أعلى فخذيه. وباتَ صدرهُ كتلةً من اللهب.

كانت أُمّي هي من أتت أوّلًا. وقفت عند الباب ورفعت يدها إلى فمها. مزّقت الصرخة أصابعها، وكأنها انتُزِعت انتزاعًا من ضلوعها. هُرِعت إلى الداخل وراحت تضرب النارَ بِكفّيها. ضربت النار بكلِّ ما كان في متناول يدها. جاء أحدهم راكضًا بدلوٍ من الماء؛ لا يمكنني تذكره. ماتَ أخي. كنتُ في الخامسة من عمري. امتلأت الغرفة بالناس، جأروا بالأدعيةِ والنّواح. كانت الغرفة مغمورة بالمياه، وقصاصات من الجرائد المُتفَحمّة الطافية على البرك الصغيرة. كانت أُمّي تبكي بُكاء هيستيريًّا بين ذراعي أحدهم. استدارت وأشارت إليّ وهي تصرخ بصورة هيستيرية. لم أسمع ما قالته.

لماذا ألقوا باللوم عليّ، أنا الذي لم أُلحِق بِهِ أيّ أذى؟ كلّهم ضربوه. كنتُ في سنّ الخامسة. وكانَ هو صديقي وأخي. كان صديقي الوحيد وأخي الوحيد. لماذا لاموني؟

قرأ رجلٌ على القبر، أوّلا كلماتٍ من القرآن، من ثمّ تعليمات حول كيفية تَصرّف المرء في القبر. أوعزَ إلى سعيد بالإجابات التي يجب أن يُعطيها للملاك عندما يحضر لاستجوابه.

«وعندما يَسألك عن اسمكَ، قُل لهُ إنّك تُدعى سعيد بن عُمر، وَبأنّك عبد الله»...

لِقاء كل الخطايا التي ارتكبها سعيد سوفَ يتعذّب طويلًا. وعن كلّ المؤخرات الصغيرة التي ضاجعها، سَتُدخِل الملائكة سلاسل متوهجة بالنار في فمهِ وتُخرِجُها من دُبره. هذا هو عقاب الله.

دفعَ والدي مقابل «الخَتمَة» التي ستُقرأ في المسجد المحلّي. بدا وكأنّ

مئات الأشخاص قد حضروا لقراءة القرآن لِسعيد. تُلِيت الصلوات والأدعية، ورُتِّلت كلمات التأبين على روح الفقيد العزيز. قدّمَ الحلوى عمال مُختصون، للتّيقن مِن أنّ الجشعين في جماعةِ المصلّين لم يمسحوا الأطباق قَبل حصول جميع الحاضرينَ على الضيافة. لم يسبق أن ماتَ لي قريب من قَبل. أتى الناس لمصافحتي، لِمُشاطرتنا أحزاننا. جعلني هذا فخورًا بسعيد جدًّا.

عاشت روح سعيد بيننا عدّة أشهر. لم يُسمَح لنا بالغناء بصوتٍ عالٍ أو الشجار في كثير من الأحيان. غدت صلوت أبي أطول، وذراعاه أثقل. لم يكن مسموحًا لنا الذهاب لمشاهدة الأفلام أو حضور الأعراس أو الحفلات. بِالكاد كانت أُمّي تُكلِّم أحدًا. سافرت جدتي إلى تَنغا[1] لزيارة الأقارب. ضربني أبي في أغلب الأحيان. ملأني بالرعب لدرجة بِتُّ فيها أخشى التحدث معه. وباتَ كثيرًا من لياليه خارج المنزل.

عندما كان شابًّا، كانَ أبي مثيرًا للمشاكل. عندما كانَ يؤوب إلى المنزل تكون عكّازته مُغطّاة بالشَّعر والدماء، وبلا أي أدلّة عليه. كان في تلك الأيام رجلًا، رجلًا كما ينبغي أن يكون الرجال. بعض الناس يقولون إنه كانَ شخصًا حقيرًا آنئذ، وهي ليست إهانة بحقّه أبدًا. هناك صورة التُقِطت لهُ قبل ولادتي، يقفُ فيها أمام خلفية استوديو مرسومًا عليها شاطئًا وأشجار نخيل. كانت حدقتاه متوثّبتين من محجريهما، وتتحدّيان الكاميرا تحدّيًا متغطرسًا شرسا. كانت عكّازته مسنودة بعضَ الشيء على فخذه اليمنى. وكانَ مُعتمِدًا بِمرفقهِ الأيسر على طاولة زهورٍ مرتفعة. بدا وكأنه على وشك أن ينفجر في نوبة غضب غير قابلة للسيطرة.

---

(1) تَنغا: Tanga مدينة تَنغا (تنگا) عاصمة محافظة تَنغا في أقصى شمال تانزانيا على الحدود الكينية. وهي ميناء رئيس على المحيط الهندي.

أمّي هيَ من أرتني الصورة، وانتظرتُ صامتًا كي تقولَ شيئًا ما. وَضَعت الصورة جانبًا دون أن تتفوّه بكلمة واحدة، دونَ أن تنظرَ إليّ. أردتُ سؤالها عن تلك العينين اللتين كانتا تفوران غضبًا. والآن هما تلتمعان من السُّكْر. أردتُ أن أسألها، لطالما أردتُ أن أسألها لماذا هو على هذا النحو؟ لماذا هو تعيس وغير راض؟ أصحيحٌ ما كانوا يقولون عنه؟ أحقًّا كانَ يخطفُ الأولاد السّود الصغار ويبيعهم إلى عرب صُور[1]؟ أخبروني بهذا في المدرسة. أصحيحٌ أنهُ سُجِنَ لأنه مزّقَ مؤخرة صبيّ صغير؟

لم أستطع التصديق أن مثل هذه الأمور حقيقية. ومن جهة أخرى، كانت نوبات غضبه حقيقية للغاية، وعنيفة للغاية وَمؤذية، بحيثُ أنه بدا قادرًا على اجتراح أيّة قسوة. كانت شفتاهُ غليظتين، ومؤطرتين بالتشققات التي تنزفُ أحيانًا أثناء الحرارة الجافة. تراءى في الصورة أطول مما هو عليه في الواقع. كانت ذراعاه ثخينتين، بِعضلات مفتولة. كانَ شعرهُ مقصوصًا قصًّا قصيرًا جدًّا، وَوَخطهُ الشيب. كانَ سعيد ليبدو مثلهُ حين يكبر، وكانَ أبي لينظرَ إليه بعينِ الفخر والزهوّ. كانَ يحملني على طاعته واحترامه بالترهيب والوعيد، في حين لم أسعَ في حياتي كلها إلى تحدّيه أو معارضته. عشتُ في حالة رعبٍ منه. أحيانًا كنتُ أبكي حالما يحضر. عوائد قسوته تسبّبت بمثل هذه المشاعر.

في إحدى المرات، كنتُ حينها مريضًا، بَسَطت أُمّي فراشي على الأرض بجانبها، في حال احتجتُ رعاية ما أثناء الليل. كنتُ مُتباهيًا بِسقمي، وفخورًا

---

(1) عرب صور: يُرادُ بها ولاية صور، أهمّ ولاية في المنطقة الشرقية بِسلطنة عُمان، وتُعتبر عاصمتها الإقليمية. خلال القرن التاسع عشر كانت عُمان المحطة الرئيسة لتجارة الرقيق في منطقة الخليج العربي، وذلك في ظلّ صراع استعماري بين قوى دولية تسعى لفرض هيمنتها على المنطقة مثل بريطانيا وفرنسا والبرتغال من جهة، والدولة العثمانية والحكومة الفارسية والعرب من جهة أخرى.

بموقعي الرفيع إلى جوارها. في كثير من المرات لم تسمح لي بالاقتراب. آه، بلى كانت تعتني بي، وتُطعمني، وتلتقط القملَ من شعري، ولكنها لم تدعني أقترب منها. ولا يمكنني النسيان أبدًا كيف وقفت وراحت تصرخُ وتبكي ابنها المفقود، مشيرة بإصبع الاتهام إليّ. ولكن في تلك الليلة بالذات، رَبَتت عليّ ونوّمتني بواسطة سائل غريب حلو المذاق قالت إنه نافع لي.

عندما صحوتُ، كانَ والدي متكئًا على سريرها. كان الباب مفتوحًا، وقد أنارَ الفانوس الذي تُرِكَ مُشتعلًا في الردهة طوال الليل جزءًا من الغرفة. لم أستطع رؤيته بوضوح، وأتمنى لو أنني لم أره. كانَ السرير خلفَ ظلّ الباب. فاحت منهُ رائحة المشروب. حاول دومًا إخفاء شرابه منا لأنه كانَ يخجل به. رأيتهُ يمسكُ بمعصم أُمّي ويهمس. كانت المرة الأولى التي رأيتهُ فيها يلمسها هكذا. وفجأة، اعتدلَ في جلسته، ثمّ انحنى إلى الأمام وضربها. وعاودَ الهمس من جديد، بصوتٍ أعلى هذه المرة.

- إنك تحاولين إبعادي. بسببه! أي نفعٍ منه على أية حال؟ آه يا أمي! لماذا تريدين إزعاجي؟

حاولت أُمّي إسكاته، ورأيتُ يدها تمتدُّ إلى وجهه. أزاحَ يدها عنه، ثمّ مالَ إلى الوراء مجدّدًا.

سألها بصوتٍ لا أعرفه، أقرب إلى الاستجداء: لمَ عليك إحضاره إلى هنا؟ أنتِ تحاولين إبقائي خارجًا... من أجل ذلك المجرم القذر التافه. ماذا تحسبينني أيتها العاهرة البَكّاءة؟

وضربها مرة أخرى، وأخرى، وهو ينخرُ بشدّة. ومرة أخرى. عاركَ على السرير، ثمّ سحبَ عنها الكانغا[1] التي كانت مُلتَفّة بها. لم تقاوم أمي، ولم

---

(1) كانغا: Kanga قماش غير مفصّل من القطن الخفيف المنقوش تستخدمه المرأة في إفريقيا =

تنطق بكلمة. وراحت تئنُّ، بدا الأمر لا إراديًّا، من حينٍ إلى آخر. أطبقتُ عينيّ بإحكام، وسمعتُ جسدهُ يتحرك فوقها. سمعتهُ يئنُّ ويغمغمُ، أتى صوتهُ غليظًا أجشّ، ومكتومًا في الفراش. كانَ باب جدّتي مفتوحًا. توقف والدي، ورفعَ رأسهُ كما لو كانَ ينتظرُ اقترابها. ثمّ ضحكَ ضحكة خافتة.

قالَ مناديًا: تعالي وانظري، يا أُمّي العجوز. تعالي وشاهديني وأنا أقتلها.

وأخذَ من جديد يهمسُ ويتمتمُ، ويجامعها. بعد وقتٍ قصير عمَّ الصمت. سمعتهُ يبكي. سمعتُه وهو ينهض، ورأيتهُ من خلال دموعي مُنحنيًا من فوقي. وقال: انقلع من هنا. خرجتُ من الغرفة بِمشقّة، مُتسحِّبًا على أربع. كانت جدّتي واقفة في الخارج في الردهة. وأنشأتُ أزحف نحوها، وشعورٌ بالضعف والوهن يُثقلني من أثر الحمّى. استدارت على مهلٍ وولجت غرفتها وأوصدت الباب وراءها. وسمعتُ صوتَ المِزلاج ينزلقُ بهدوء في مكانه. أمضيتُ الليلة متكوّرًا قدّام باب جدّتي الموصَد.

استولى عليّ شعور وحيد، ألا وهو الرعب والاشمئزاز من العالم الذي جلبوني إليه.

اختبَأت مني أُمّي أكثر فأكثر، لكنني تعقبتها، وانتظرتها. ولمّا التقت نظرتي بنظراتها، في هنيهة خاطفة، لمحتُ خِزيها، وانكسرَ قلبي من أجلها. ولكنني لم أنسَ كيف وقفت، موجِّهة إصبع الملامة إليّ.

رحتُ أراقبُ المدّ وهو ينحسرُ خلفَ حاجز الأمواج، وأُصغي إلى هدير الأمواج المتكسّرة على الصخور. كانَ الجُوع يجعلُ أفكاري المشحونة بالغموض والالتباس أكثر إثارة للشَّجَن في كلّ دقيقة. وأيّ سوءٍ في هذا العالم إن كانَ اللهُ ينتظرنا بِجَنّتِهِ وَجَحيمِهِ وَفيلَقِهِ من المُعذِّبين؟

=غطاء للرأس، وقد يكون عبارة عن قطعتين، تلفُّ به المرأة جسمها.

كنتُ قد أصبحتُ رجلًا دونَ أن أعرف ماذا يعني أن تمسَّ امرأة وفي قلبكَ توطّدَت نيّة سيّئة. أيّ حديث عن الموت في حين لم تبدأ الحياة بعد! أخبروني بأن الله قالَ إن مداعبتك لنفسكَ فعل آثم، وإنَّ قضيبكَ سيتقلّص، وإنك سوفَ تَستنفدُ كلّ الحيوانات المنوية لديك، وهكذا لن تستطيع الإنجاب لاحقًا. كانَ الطبيب قد قالَ لي: «أنتَ تستمني كثيرًا، أليسَ كذلك؟» كانَ ذلكَ عندما ذهبتُ إليهِ لِعلاج الضيق في صدري. سُرَّ لرؤية نظرة الدّهشة المُذنِبَة في عيني. أخبرني بأنه درسَ علم النفس، وعرضَ عليّ تحليل شخصيّتي على الفور.

قال: «إنَّ ما تفعلهُ ضارٌّ لك. إنهُ يسحبُ كلّ قوّتك. ويجعلُ عظامكَ ضعيفة. اسمع، الكلام وحدهُ لا معنى له. سوفَ أعطيكَ بعض أقراص الدواء. قل لأمّك أن تقدم لكَ كثيرًا من اللحم لتأكله، والحليب لتشربه».

نعم، ومظلّة من ريش النعام لحمايتكَ أثناء التنزّه في حرّ النهار. سحبتُ دَمًا وكتبتُ به، أبرمتُ معاهدة مع نفسي. لكنّ الله خلقَ الفتيات جميلات وأعطى أجسادهنَّ رائحة نفّاذة. كنتُ أغتسلُ بعد ذلك من رأسي إلى أخمص قدمي. وما كانَ أحدٌ من الفِتية يُكلّفُ نفسه عناء الاغتسال فيما بعد. لم يكن عندهم إحساسٌ بالضّيق في الصدر.

التقطتُ كتبي، واستهلّيتُ طريقي إلى البيت. كان الشاطئ من خلفي يجفُّ في الشمس، ما يَزيد الرائحة النتنة على مرّ العصور. في الأيام السّالفة، قصدَ العبيد الذين رفضوا تغيير ديانتهم هذا الشاطئ ليموتوا. طافوا مع الحطام العائمة وأوراق الشجر الذابلة، مُنهكين من القتال، جلودهم السّوداء مُتجعّدة مع تقدّم السن، وقلوبهم مُحطَّمة كَسيرة. يا آبائي المساكين ويا أجدادي، يا أمّهاتي البائسات ويا جدّاتي، مُكَبّلين بالسّلاسل في حلقاتٍ حديديّة مَدقوقة بحائطٍ حجريّ.

سلكتُ الطرقات والأزقة المعتادة، مُتفاديًا الشوارع الرئيسة. في فسحة بين المنازل رأيتُ رجلًا عجوزًا مقرفصًا على التراب، ويكشط الجلد المتقشّر عن خصيتيه بينما كان مُركزًّا على إخراج كتلة من البراز. استدارَ لإلقاء نظرة على جهوده، وكان خيط التميمة يَخزُّ عميقًا في عضلات رقبته المترهلة. كشّرَ عندما رآني. وأطلق صفير الرائحة الغاضبة، وجبينهُ مخضّبٌ بالعرق في الشمس. ثمّ وقفَ، واستقامَ متألّمًا، ومشى إلى أقرب حائط ليتبوّل.

عند مكتب الشؤون الاجتماعية، صعدتُ الدرج عَدوًا، خشية أن أشمّ رائحة البول القديم. عبرتُ الطريق الرئيس، والذي كانَ خاويًا في منتصف الظهيرة، وانعطفتُ إلى زقاق بجوار الحمّامات العامة. كانت هناك رائحة قوية منبعثة من المجاري المسدودة والعفن. حولَ المنعطف، كانَ رجلٌ عجوزٌ يغفو خلفَ صندوق الدفع في متجره للفواكه والخضروات. كانت الفاكهة المتعفّنة، المثقوبة والنّازّة، مطروحة على الرصيف. وامتدّت خطوط من عصير المانغو السكريّ في كل الاتّجاهات بِفعل آثار إطارات السيارات.

«هنا سوفَ تتحوّل إلى ملفوف فقط».

هذا ما قالهُ لي مُعلّمي عندما كنتُ أعاونهُ في تسجيل الفائزين في «يوم الرياضة المدرسي». بطاقة حمراء للفائز الأول، وبطاقة زرقاء للثاني، وبطاقة خضراء للثالث. لماذا الملفوف؟ كانَ قد درسَ في إنكلترا، ولدى إيابهِ إلى البلاد ثابَ إلى الله، واعتنق الدين بحماسة غير اعتيادية. كانَ يقول: «ماذا تريدُ أن تفعل في حياتك؟ ارحل بعيدًا، اصنع من نفسك شيئًا. ماذا عن إنكلترا؟ هو بلد ملحد، ولكن ثمّة فرص هناك. ماذا تودُّ أن تصير؟ طبيبًا؟»

«أليسَ الجوّ بارد جدًا هناك؟» كنتُ أنفقُ ساعات طويلة وأنا أتخيّلُ نفسي طبيبًا في إنكلترا. أسيرُ في ممرات طويلة، مرتديًا معطفًا أبيض اللون،

ونظارات ذات إطار سميك وداكن، وأبدو مثل غريغوري بيك[1]. جميع مرضايَ من النساء وبحاجة دائمة إلى الإنعاش من الفم إلى الفم.

سألني مُعلّمي: أيّ فرصة تَرتجيها بمكوثكَ هنا؟ أقصى ما يمكنكَ القيام بهِ العمل في أحد البنوك، أو أن تصير معلّمًا. اللهم إلا إن كانَ لديك أقارب لا أعلم بشأنهم.

«ليس عيبًا أن تصبحَ موظّفًا في البنك. كلها أرزاق، فضل الله، ولكنها ليست ما تحتاجه البلاد. نحنُ بحاجة إلى المهندسين، والأطباء، وخريجيّ الجامعات. لسنا بحاجة إلى فلاسفة ورواة حكايات، بل إلى مسؤولين عن الغابات، وعلماء، وجرّاحين بيطريين. الثقافة والحضارة للأغنياء. الحضارة انحطاط. انظر إلى روما. انظر إلى بلاد فارس. انظر إلى بغداد، وإلى القاهرة. ما الذي جلبته الحضارة لهم سوى الخراب؟»

عَلّمنا الأدب الإنكليزي، وكثيرًا ما تشعّبَ بالمواضيع وانتقلَ إلى خُطَبٍ حماسية مطوّلة حولَ جهل الغطرسة الأوروبية التدميري. «الكيمياء والجبر وعلم الفلك.. كل هذه كانت أشياء علّمها المسلمون للأوروبيين المتخلّفين. ولكن فيما بعد عزفَ المسلمون عن انضباط الصحراء وتهذيبها. تاقوا إلى الولائم والمهرجانات والرفاهية. وسرعان ما فتكَ بهم أعداؤهم، لأنهم عرفوا في قلوبهم الهمجيّة أنّ الثقافة والحضارة انحلال. لذا، لا تشغل فكرك بشكسبير هذا، كثيرٌ من الناس يقولون إنه غير موجود على أيّة حالة، أو إن كانَ موجودًا، فهو حكيمٌ شرقي تُرجِمَت أعمالهُ إلى الإنكليزية. أنتَ تعرف كيف يبدون هؤلاء الأوروبيون. هذه جين أوستين، أعتقدُ أنها إنكليزية، أليس كذلك؟ لها أنف شامخ أحمر وكبير، وفمٍ صغير».

---

(1) غريغوري بيك (1916-2003): ممثل أميركي وهو من أحد نجوم هوليوود الأكثر شهرة.

ولكن، كان هذا في الأيام التي كان فيها البريطانيون ما يزالون أسيادنا، وكانَ مُعلّمنا يُعبِّر عن توجّسه بطريقة هزلية مضحكة، وذلك بالركض إلى باب الصف والتلصّص منه، تحسّبًا، في حال كانَ «الويلزي[1]» الذي كانَ مدير المدرسة يسير في الممر. وكان يرجع بعد ذلك ويستأنف خطابه الهائج. مُعلّمنا المسكين، لم يكن يعلم بهذا، ولكنّ أيامه كانت معدودة. كان البريطانيون على وشك المغادرة، وكان يوم الانتقام يقترب.

تزوّجَ أبي بأُمّي عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها. كانَ والدها سائق شاحنة، وكان بالإضافة إلى ذلك يمتلك دكّانًا في قرية صغيرة بالقرب من مدينة جينجا[2] في أوغندا. كانَ أبي في العشرينات من عمره في ذلك الوقت، وكان معروفًا بأنه مُفسد وصاحب مشاكل. ظنَّت جدتي أن المرأة ستشفيه من هوسهِ بالأدبار. علِمت جدتي عن طريق زوجة تاجر عَاجٍ، قامت برحلات متكررة إلى الأرياف، بهذه الفتاة الحسناء التي ضَاهت بجمالها بطلة «ألف ليلة وليلة». استرعت انتباه جدّتي فكرة الفتاة الريفية البسيطة الجميلة. بعد إشادات متكررة ومديح بحقّ والدتي، وبعد عدّة وقفات جدّية، ونظرات ماكرة أسفل حواجب منخفضة، حاكت المرأتان مخطّطهما.

لم ترق الفكرة لوالدي على الفور. لم يرَ أي داعٍ لها. في نهاية المطاف لم يعترض، ولا والد الفتاة، رغمَ أنه عرف بأن والدي كانَ عديمَ التدبير وفوضويًا ومخرّبا. خشيَ إن تركَ أُمّي على حلّ شعرها دونَ ضابطٍ لزمن طويل أن تتخذّ لنفسها عشيقًا من السُّود في الريف.

---

(1) ويلزي: نسبة إلى ويلز، وهو بلد يُعدُّ جزءا من المملكة المتحدة وجزيرة بريطانيا العظمى.

(2) جينجا: تقع جينجا على بحيرة فيكتوريا عندَ مصدر نهر النيل، وهي ثاني أكبر مدينةٍ ومركزٍ تجاريٍّ في أوغندا.

لم يُؤخَذ برأي أُمّي في الأمر. وجدت نفسها مخطوبة لرجلٍ حسن المظهر، وعَشِقته. كانت فتاة ريفية خجولة جاهلة. عندما سافرت إلى السّاحل من أجل زفافها، كانت المرّة الأولى التي تُغادر فيها منزل أهلها.

كان أبي خائنًا منذُ البداية. عَرَفت بأمرِ خيانته. كانت تشمّ رائحة الخيانة منه عندما يعودُ إليها. في البدء بَكَت، وتقبَّلت الأمر على أنه طبيعة الحياة، واحتفظت بِعارِها لنفسها. ثم بدأ يضربها بسبب صمتها المعذَّب المجروح مرة بعد مرة. أخبرتها جدتي بأن الزيجات تكون على هاته الشاكلة، ولكن الحال سينصلحُ في نهاية المطاف.

وكانَ يضربنا نحنُ أيضًا، حينها كانت أُمّي تتلّون ملامح وجهها فقط، وتتردد بِتحدّيهِ أمامنا. ولم تكن تفعل أي شيء سوى تَطبيب جِراحنا وكدماتنا، وكانت تئنُّ وتغنّي لِتهدِئتنا، وتمسّدنا بوداعةٍ وَتحنان. لم تُعلّمنا أبدًا كراهيته. وكان من الأفضل أن نكون مسلّحين بالكراهية.

ضربني عندما رفضتُ الذهاب إلى المسجد. قالَ إني انقلبتُ ضدّ خالقي، والتقطَ صندلًا وقذفني به.

قال: هيّا تعال، اخرج. المؤذِّن نادى للصلاة.

في خُمول الظهيرة، وفي عتمة ظلال أشجار المانغو انساقَ صياحهُ المكتوم. وقفتُ خارجًا عند الباب وسمعتهُ يندبُ ويتفجّعُ لِضلالي.

- ماذا دها هؤلاء الأولاد؟ في الرابعة عشر من عمره وقد سَئِمَ الله! فيما مضى واظبَ على الصلاة وحضور الجلسات الدينية، وكان يتدارس الكُتب النافعة. قال لي الإمام موسى إنه خُلِقَ ليكون فقيهًا. والآن انظروا إلى حاله!

ما من أحد أخبر الإمام موسى بأنني كنتُ في الثانية عشر من عمري لّما

بدأت أيضًا بممارسة العادة السرية. عاقبني الله على كلّ حركة من يدي. في النهاية انصرفتُ عن الله وتوقفتُ عن الإصغاء إلى الفقهاء العجائز الكذّابين الذين بمقدورهم التشديد على مسألة بإصبع ممدود بِشدّة بينما إصبعه الأخرى تَتلمّس دُبر طفلٍ صغير. وعوضًا عن ذلك بدأتُ ألعب كرة القدم.

لا أعلم كيف عرفَ بأني أقفُ في الخارج، ولكنهُ خرجَ من الغرفة كما لو أنه يتوقع أن يجدني. حدّقَ في وجهي للحظات، ووجههُ مُحتدما بالغضب. لم أقل شيئًا. أصابني الخَرس؛ استحلتُ واديًا خاويًا، ثورًا يرعى، بطّة جاثمة بانتظارِ صيّادٍ مُدجّج بالسِّلاح.

أتى صوتهُ وِديًّا وَرصينًا، ولكن وجههُ كانَ يفيض بالشرّ والغضب: اخرج! اذهب إلى المسجد، امضِ، «خنيث واحد»!

كانَ هذا في الأشهر الأخيرة بينما كانت ذنوبي ما تزال على عاتقه، قبلَ أن أصيرَ رجلًا. وبدأت أشعرُ بالندم لأنني لم أذهب. أحسستُ بالدموع تتشكّل في عينيّ. كما كانت عادتها دومًا إزاء كلّ مواجهة.

صرخَ وهو يدنو مني: الآن!

اقتربَ منيّ كثيرًا، كانت عيناهُ جاحظتين، والعرقُ يلتمعُ على جبينه. كانَ فمه فاغرًا، وفكرتُ، سوف يقتلني!

صرخَ كما لو أنّ رئتيه كانتا تنفجران داخله: ماذا قلت؟

كرّرت مقالي: قلتُ لا.

بدا مندهشًا. حائرًا. مني ومن سعيد. هزّ رأسه. لأجلي ولأجل سعيد، ولأجل كل الضرب والإذلال والترويع كل هاتيك الأعوام.

- أقسمُ بأنني سوف أكسرُ كل عَظْمة في جسمكِ إن لم تذهب. والله لأقتلّنك!. قال هذا مُهدِّئًا من روعه، بينما رفع بصره للأعلى هُنيهة وهوَ

يُقسِمُ، ويُشهِدُ الله على ما يقول. - اذهب الآن.

قلتُ وأنا أمشي مشيًا بطيئًا مُبتعدًا عنه: لن أذهب.

قال: فليسامحك الربّ، عندما تقابل سيّدك ومولاك يوم الحساب!

قلتُ: لا مولى لي.

فأجاب وهو ينظرُ إليّ جَزِعًا: بِسم الله...

فقلتُ، وقد ازددتُ عِنادًا ومُكابرة: لا يوجد إله.

ابتسمَ وحدّقَ بي دون أن يتكلم. أوصدَ الباب الأمامي، ثمَّ قَفَلَ عائدًا إليّ. وقفتُ ساكنًا بلا حراك. صفعني مَرّة بَعد مرّة، وهو يسألني إن كانَ هناك إله. حاولتُ ألّا أبكي. حاولتُ ألّا أركض. كانَ يستشيطُ غضبًا مع كل صفعة. شَتمتهُ واحتقرتهُ بِصمت، ولكن بعدَ ذلك فاقَ الألم احتمالي وبدأتُ أبكي. فقدَ سيطرتهُ على نفسهِ بالكامل، وراحَ يضربني حيثما وصلت يده. صِحتُ وزعقتُ، أعلى فأعلى: فليسامحني الربّ، اللهُ ربي الذي لا إله إلا هو، إله جميع الكائنات. أنِر بصيرتي، أنِر بصيرتي. الله الذي لم يلد ولم يولد، آه يا إلهي يا سيدي ومولاي ارحمني أنا الذي لا أستحقُّ رحمتك..

- الله أكبر! صاحَ والدي في غمرة فرحه، ولكزني في صدري.

أخبرتني جدّتي إنه لطالما حدّثها قلبها بأنني سوفَ أتغذّى وأكبر على حُبّ العائلة، وذات يوم سوف أنقلبُ عليها. وَتلَوّتْ ما بين تَرقّبٍ وتلذّذ طاغٍ وهي تحدّثني عن العذاب الذي ينتظرني في هذه الحياة. حَكَت لي عن الأمراض والآفات التي تُصاب بها عيون الزنادقة وأمعاؤهم وأعضاؤهم التناسلية. وسألتني: «من ستعبُد الآن؟»

طلبت مني أُمّي أن أستغفر، وألّا أقرأ كثيرًا من الكتب. وقالت إنني لو ضيّعتُ الله سأكون بمفردي في عالمٍ زاخرٍ بالمخاطر. وقالت لي بأن أبحث

عن الله، أن أحاول من جديد، وأن أطلب العفو والغفران.

زالت عني قرصات الجوع الأشدّ إيلامًا لمّا مشيتُ في الشوارع، وابتعدتُ عن الطريق الرئيس متوجّهًا إلى النهر. مشيتُ على الجسر عبر الجدول الصغير المتدفق في النهر، واستدرتُ لأشاهد المياه وهي تصبُّ في البحر. تراءى من البعيد الخط الداكن الرفيع للبرج اللاسلكيّ. امتدَّ البحرُ بلا نهاية. بلا حاجز أمواجٍ يعترض مجال الرؤية. شاهدتُ بهجة الأمواج المتلألئة لدى وصولها، وشعرتُ بقوّتها والأعماق التي أتت منها.

مرّ رجلٌ بجواري، ثم توقف واستدارَ وراحَ يتفرّس في وجهي. تنهدّتُ ممتعضًا في سِرّي. رجعَ ووقفَ إلى جانبي، واتّكأ على الجسر محدِّقًا في البحر، في ظهيرة ذلك اليوم التي انقطعت فيها أقدام السّابلة. أحسستُ بجسمهِ بِقربي. أدركتُ بأنّه يرومُ مؤخرتي. اختلستُ نظرةً إليه، فانتبهَ إليّ وَغَمزني. فأنزلتُ ذراعيّ عن حاجز الجسر، واستقام في وقفتهِ هو أيضًا، وكانَ مُبتسمًا وبدا خبيثًا مؤذيًا. حاولتُ ألّا أبدو مُتوتّرًا. «إطلالة جميلة» قال، وابتدرني بابتسامةٍ عريضة بِشفتيهِ اللحيمتين. كانت أسنانه مُبرقشة بِفُتات الطعام وصِباغ التبغ. وكان ذقنه مغطّى ببثور صغيرة انتشرت من أسفل شفتهِ وعلى طيات الجلد الثخينة فوقَ جوزة عُنقه. كانت شفتاهُ مُكتنزتين يكسوهما جلدٌ مُترهلٌ مَيت. وكانت نُتَفٌ من الطين والأعشاب وخصلات من الصوف مُلْتَبِدة في شعره. وقد برزت رقبته الثخينة مِن قميصٍ أبيضٍ ملطّخ بالأخضر تحت الإبطين. تبدّى لي كابوسي المُتخيَّل عن اللوطيّ السّادي، المغتَصِب.

قال: جميل. مُمرِّرًا الكلمة على شفتيه ببطء، بينما راح يُقلِّبُ فِيّ النَّظر. داعبَ شفتيه بِلسانهِ في محاكاة ساخرة للشهوانية. انتظرَ، وما زال مبتسِمًا لي. ثمّ مع تكشيرةٍ مُفاجئة، صقلَ حنجرته وَبصقَ كتلة من البلغم الأصفر في البحر. وابتلعَ ريقه مُباشرة ليرطّب حنجرتهُ الجّافة. ثمَ التفتَ إليّ وكانت

في عينهِ نظرة ماكرة مُتفحّصة. أمليتُ النَّظر مطوّلًا في وجهه البغيض المثير للاشمئزاز، ورأيتهُ مُبتسِمًا راضيًا عن نفسه، مُتحيّنًا فرصته.

سألني بعدَ حين: كم عمرك؟

سألته: ألم ألمحكَ مع أبي؟

قال: لم أفعل شيئًا. ما الذي تحاول قوله؟

ابتسمتُ لِمرأى ذُعره، وَهممتُ بالسّير مُبتعدًا.

صاحَ في إثري قائلًا: إن كنتَ بحاجة إلى نقود لا تتهيّب السؤال. سمعتهُ يضحك، وقد استلزمَ الأمر جهدًا لمنع نفسي مِن إطلاق ساقيّ للريح.

كنتُ قد تعبتُ من مقاومة الباشاوات[1] والاصطدام بهم. في عامي الأول بالمدرسة، كان عباس، زميلي في الصف، ينفحني سِنتًا في كل يوم من أيام السنة الدراسية لِاستمالتي وتهيئتي من أجل المضاجعة الكبرى. في يومٍ من الأيام كانَ عليه الذهاب لفحصِ أسنانه، أتى حينها إلى المدرسة خصيصًا ليعطيني سِنتًا. كانت عائلته ثرية، وكانَ يترأس خدمات جميع البلطجيّة في الفصل. كانَ يُنظَر إليّ على أنني ألعوبته، على قائمته. أحيانًا كانَ يحدّقُ في وجهي طيلة الصباح، أثناء درس اللغة الإنكليزية والحِساب والعلوم الطبيعية، وهو على علمٍ بأن المعلم والتلاميذ الآخرون كانوا يراقبونه بِابتساماتِ العارفين. فإذا ما نظرتُ ناحيته، بَلّل شَفتيه بِلسانه بِبطء. كنتُ أعلم بأنه في يوم من الأيام سوف يحاول لمسي، سيحاول جلب العار لي في حضور الصبية الآخرين كلّهم. وفكرتُ إن فعلَ ذلك سوف أُحضِر معي سِكينًا إلى المدرسة وأقتلهُ بها.

---

(1) باشا: Basha مفردة عامية سواحلية تدل على مثليي الجنس من الرجال ويقابلها Shoga للإناث.

كنتُ مُمتنًّا لنقوده. بِحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى مشهد الإغواء كان يدفع لي شِلنًا كلّ يوم، وكنّا أكبر سنًّا بكثير. وضحكنا في اللحظة التي كنا نخافُ منها لسنوات.

كانَ من المفترض أنه إن كنتَ ساكتًا وضعيفًا فلربّما تُجبَر على أن تُحشَر في زاوية ويُمارَس الجنس معك. في سنواتي الأولى من المدرسة، حاربتُ كثيرًا لِردع العُشّاق الطّامحين. لم يكن ضروريًّا أن تربح هذه المعارك، وأنا لم أربحها تقريبًا. المهم هو إظهار أنك ستقاتل مهما كانت المعركة غير متكافئة. كانَت المسألة بالنسبة إلى العديد من الصبيان مجرّد رياضة، طريقة لعرض رجولتهم وفحولتهم والتباهي بهما. حتى المعلمون ابتسموا لهذا. وكان من الممكن أن أفعل ذلك مع سعيد.

شعرتُ وكأنما الله وسمني بالعار، وبأنه كانَ يعاقبني على جموح سعيد. حَسِبتُ أنّ العذاب غيرَ مُنته. لم أتحدّث بالأمر مع أي شخص في المنزل. كنتُ محرجًا جدًّا وخجلانًا. وشعرتُ إن كنتُ قد عوملتُ كذلك، فَلأنَّ ثمة شيئا بي يدفع الأولاد للتصرف معي بتلك الطريقة. إلى أن فزتُ في إحدى العَرَكات.

بينما كنتُ أمشي عائدًا إلى المنزل ذات يوم، قابلتُ «سُعود»، أحدَ مُعذِّبيّ. لَحِقَ بي، وراحَ يخبرني كم هو يُحبّني، وكم هو الثمن الذي كانَ على استعداد ليدفعه لي. كانَ ثلاثة شلنات على ما أعتقد. توقفتُ منتظرًا إياه. وبينما هو يتقدّم نحوي أرسلَ لي قبلاتٍ مطوّلة سالَ منها اللعاب. اقترب مني وداعبَ خدّي بيده ثم ببطء قبّل أصابعه واحدة تلو الأخرى. وهتفَ له المتسكعون، القاعدون قدّام صالة الشاي قبالتنا، لدى كلّ قُبلة. استدارَ سعود ناحيتهم ليشكرهم. حينئذٍ انقضضتُ عليه، سدّدتُ قبضة يدي إلى وجهه بقوّة، وسقطتُ فوقه وركبتي مغروزة بين فخذيه. لكمتُه في وجهه بِضراوةٍ وهياجٍ

جنونيّ. آلمتني قبضتا يديّ بينما كنتُ أضربه، وكانت مفاصل أصابع يدي اليُسرى تنزف. لم أشعر حينها بالألم كثيرًا. كانت الدماء تقطرُ من فمهِ وأنفه، والخوفُ مَلأ عينيه. كافحَ للخروج من تحتي ولاذَ بالفرار.

توقفتُ بما يكفي فقط لرفع قبضتي في وجه المتبطّلين القاعدين قدّام صالة الشّاي قبلَ الجري خلفه. ورأيتُ رفاق سعود يُسارعونَ لإنقاذه. أطحتُ «سُعود» أرضًا، وَعاجلتُهُ ببضعِ لَكماتٍ أخرى شَفَت غَليلي قبل وصولِ رفاقه. تملّصَ مني بِمشقة وزحفَ إلى أسفل بسطة الخُضار. انتظرتُ حتى وصول رفاقه إلينا، متحدّيًا إياهم الانتقام لصديقهم الجبان.

بعد تلك الحادثة بدا أن المضايقات توقفت. حتى أنه تقرّب مني بعض الأولاد الذين أرادوا أن يُمارَس الجنس معهم. بعد مدّة من الزمن، تبدأ بالتفكّر مليًّا في كل ملاطفة، وبالشكّ في كل غريب يصادفك. في بعض الأحيان تركضُ وأنت تصرخ من مُجاملة بِنيّة حَسنة، أو قد تُسيء فَهم يَدٍ مُدَّت إليك للمُساعدة.

بجوارنا كان هناك بيت دعارة. كان يعيش في المنزل رجلان وامرأتان برفقة صاحب بيت البِغاء. كانوا أربعتهم يبدونَ متّسخين ومُخيفين وثَملين على الدوام. لقد كانوا العواهر الذين يدفع لهم الناس لإشباع شهواتهم. وجدتُ من الصعب التصديق أن أي شخص يمكنه الاستمتاع بهذه الأجساد المعطوبة المنهكة.

ثمّ ذلك الرّجلُ على الجسر.. ضخمٌ وعديم الحياء؛ ذو وجهٍ وبَدنٍ أفسدهما الزمن. رأيتُ فيه سعيدًا، سعيد كما كانَ سيصير، إن عاش.

بعد الجنازة، قال والدي: سيحاسبك الله على وفاة الصبي. وقالت جدتي إني وقفتُ ورحتُ أتفرّجُ عليه وهو يموت مِيتة مُريعة. وأردَفتْ بالقول: أيّ أملٍ يُرتجى حين يقتلُ الأخُ أخاه؟ وقالت لي أُمّي بأن أكفّ عن البُكاء، فَما كانَ

بيدي حيلةٌ إزاء ما حدَث. جعلوني أعيش أعوامًا من الشعور بالذنب حيالَ خطأ لم أقترفه. ثمّ إنه كان من الممكن شحذ كراهية النفس ووخز الضمير كوسيلة للتسبب بالألم. كانت ثمة كائنات تنهض ليلًا لتمتصّ دمي، وتزيدني ضياعًا وآثاما. حاربتهم بالطريقة التي أظهروها لي. رَدَدتُ لهم الألمَ بالألم، والصَّمت بِالصَّمت. تعلّمتُ كيف أصُدّهم وأوقفهم عند حدهم.

وكانت أوقاتٌ حاولتُ فيها التحدّثَ إلى أمي، لأخبرها كيف كانت تمضي أموري، ولكي أستشعر تَربيْتها عليّ بِوداعتها ورِقّتها المميزة. أردتُ أن أخبرها عن هيجان البحر وهو يضرب الشاطئ، وعن العويل الذي سمعتهُ بينما كنتُ واقفًا على الجسر. حاولتُ أن أقول لها إنني سمعتُ أجدادي يبكون، وبأنني أحسستُ بِلفح الحرارة التي غَضَّنت جِباههم، بشعور التهوّع المتراكم في أحشائهم، ورائحة الذُّرة والحِرمان في رِيحهم.

بيد أني كنتُ ألمس الأسى والألم الذي تسببتُ لها به، واعتقدتُ بأنها غير قادرة على إجبار نفسها على نسيان فقدانها لابنها. لقد جعلتها تقول: لقد كان سعيد ابننا البِكر. كانَ عزيزًا علينا. وأنت تفرّجتَ عليه وهو يموت... في تخيّلاتي جعلتها تقول ذلك. أسكَتتني بقصصٍ عن ملائكة تُحلِّقُ في الهواء، عن أنهارِ عَسلٍ جارية، عن موسيقى عذبة في الأثير. كانت المرأة ذاتها التي رأيتها طوال حياتي، يُضينها الألم على الدوام، غير قادرة دومًا على منح الراحة أو العثور عليها، غير عارفة كيف تجدها.

قالت لي قبل أسبوعٍ من الوقت الذي بلغتُ فيهِ مبلغ الرجال: لقد أخزيتني. أنت لا تدري شيئًا عن معاناة أبيك وكفاحه. قال لي إنك تمرُّ بجواره في الشارع ولا تُلقي عليه مجرد تحية. إن كنتَ تكرهه إلى هذا الحدّ، لمَ لا تغادر؟ أنت تقتات على الطعام الذي نضعه أمامك، ولا تفكّر مجرد التفكير بأبيك. إنه يجلس في الميناء طوال النهار، ويملأ استمارات للأشخاص

الذين لا يستطيعون الكتابة. مِن أجل مَن يفعل هذا برأيك؟ أليسَ بمقدورك أن تُظهِرَ له على الأقل شيئًا من الاحترام؟ لا تبدأ بالبكاء من جديد، اصمت! لقد أصبحتَ رجلًا الآن. كيف حدث وأن صِرتَ على هذه الشاكلة؟ كيف فشلنا في تربيتكَ هكذا؟

بكيتُ حينها، فَأخذتني بين ذراعيها وهدهدتني، وشعرتُ كما أردتُ أن أشعر كطفلٍ، لا حول لي ولا قوة بين أيدي من يعرفونَ أكثر مني. ومن الغريب الآن التصوّر بأننا استطعنا جميعًا العيش على هذا النحو، غارقينَ في الاستياء والكراهية.

اكتسبَ الشاطئ لونًا أبيضَ بِفعل الشمس والرّمال البيضاء. كانت السّلطعونات الصغيرة تحفرُ حفرًا في الرمال للاختباءِ فيها من الأقدام. طاردتُ واحدًا وقتلته، ثمّ دفنتهُ رسميًّا وبمهابة، قبلَ أن أنطلق عائدًا إلى المنزل.

***

الفصل الثاني

حلّت مرحلة الرجولة على نحوٍ غير ملحوظ إلى حدٍّ كبير: لا ذَبح كبش، لا عصا لا وصايا، ولا أوامر بالتقرّب من الله والسّعي لاكتساب الثروة. من حينٍ إلى آخر كانت هناك نُكات عن إيجاد زوجة لي. كان والدي هو من يُلقي هذه النُّكات، وكانت أُمّي تقمعها بنظرة حادّة.

الصِّبية في المدرسة أدركوا أنهم صاروا رجالًا الآن. لو تسنّى لنا، لرفضنا طاعة المعلم الذي يوجّه لنا الأوامر بمنتهى الفظاظة. بدأنا جميعًا بالتحدث بِجدّية عن المستقبل. كان الاستقلال وشيكًا، وتحدّثنا عن الفرص التي سيوفّرها لنا. ولم يكن هذا ما آلت إليه الأمور، وأعتقدُ أننا عرفنا ذلك حتى ونحنُ نوهِمُ أنفسنا بِتخيّلات الوحدة والتناغم العِرقي. إذ أنه بالنظرِ إلى تاريخنا المشحون بالتعسُّف وسوء المعاملة والجور والطغيان الذي مورسَ على الأفارقة بِتحالفٍ من العرب والهنود والأوربيين، كانَ من السذاجة التوقع بأن تَسير الأمور على نحوٍ مغاير. وحتى عندما لم تعد الفروقات مرئية للعين المجرّدة، كانت بقايا الدم تنعكس دومًا في تقسيم المغانم والامتيازات. بمضيّ السنين تكبّدنا، وبِيأسٍ متفاقم، خذلان الوعد بالحرية.

عقبَ ثلاث سنوات من الاستقلال، كان من الواضح أنه لا بدّ من البحث عن المستقبل في مكانٍ آخر. عندما كنتُ على وشك مغادرة المدرسة، استلقيتُ منتظرًا عودة أبي بعد ظهر أحد الأيام. كانَ عليّ انتظاره حتى ينهض من قيلولته ويغتسل ويبدّل ملابسه. كانَ الوقت متأخرًا في الحين الذي باتَ فيه جاهزًا، وبدا أنيقًا، وقد لاحت عليه مسحة طفيفة من الرّخاء

ورغد العيش. وقفَ مبتسمًا لبعض الوقت، مكرّرًا كلمة «إنكلترا» بهدوء. ظننتُ أنه سيضحك ثمّ ينصرف، وهو يتلفّظُ بِمَثَلٍ مناسب وقد أدارَ ظهره لي.

سألني في النهاية: هل تفكر بِمنحة دراسية؟

أومأتُ بالموافقة. فابتسمَ وهزَّ رأسه.

قال: لن تحصل عليها.

أومأتُ برأسي ثانية. قعدَ وصالبَ ساقيه، ورجعَ إلى الوراء في كُرسيّه، ووضعَ يدهُ تحت ذقنه.

منذ الاستقلال وجدَ لنفسه وظيفة مكتبيّة في وزارة الأشغال. وأعادَ تقديم نفسهِ في صورة جديدة كَفردٍ مُحترم ومرموق نسبيًّا في المجتمع. لم يتخلّ عن رِفاقه القدامى تمامًا، ولكنهُ باتَ يلتقيهم بتحفّظٍ وعلى نحوٍ متقطّع. وصارَ يرتدي ملابس رسمية آنئذٍ ويتعطّر بزيت خشب الصندل. ومع ذلك، ما زال يلاحق المومسات، وما زال يؤوب إلى البيت مترنّحًا من السُّكْر في بعض الليالي.

كنّا جالسين في غرفة الضيوف، التي لا يمكنني فصلها عن موت سعيد، كانت أرجلنا متلامسة تقريبًا. نفّضَ الغبار عن طرفِ كُمّيهِ بِعناية، وتنهّدَ بأناةٍ، ورفعَ في وجهي حاجبيه مُستفهِمًا.

سألني: فَإذن... من أين ستحصل على المال؟ هذه الحكومة لن تعطيك مالًا، وإن كنتَ نابغة عصركَ وفريد زمانك. إنهم لا يهدرون أموالهم على آرابي رانغي رانغي[1] (عربّي ملون). إلا إذا كنتَ تريد الذهاب إلى كوبا لتتعلم كيف تصير مناضلًا من أجل الحرية. أو أنك تودُّ السفر إلى بلغاريا كي

(1) عِبارة بالسواحيلية.

تتعلم لغة «الإسبرانتو[1]». كيفَ ستصل إلى هناك؟

قلتُ: يمكنني العثور على عمل عندما أصل إلى هناك. عمل ودراسة معًا.

قال: ويمكنني أن أضع رأسي في دلو من الماء وأغرغر. ولكن إلى أين سيوصلني فِعلي هذا؟ أنت لا تعلم مدى صعوبة هذه الأشياء. سألتك، كيف ستصل إلى هناك؟

نظرَ إليّ بترقّبٍ لكني لم أقل شيئًا. وما أدراني كيف سأصل إلى هناك؟ كنتُ سأجدُ طريقة ما.

طقطقَ بِلسانهِ مُتململًا، وقال: عليكَ أن تكون صلبًا للغاية لمواجهة أمرٍ من هذا القبيل.

أومأتُ بِخنوع. شعرتُ بارتياح لأنه لم يَسخر منّي ويطردني من المنزل، أو يتهمني بالتخلّي عنهم. أظنني أيضًا فكرتُ بأنهُ سوف يغضب عندما يعرف بموضوع رحيلي، في حين أردتُ التخلّص من الخِلاف والكَدَر. لذلك كنتُ مستعدًّا للاستماع طائِعًا إلى أية نصيحة. ابتسمَ في وجهي ابتسامة عريضة وهزَّ رأسه. كانَ الغبار قد بدأ من جديد بالاستقرار على ثنيتي كمّيه. أتت عبر النافذة المفتوحة صيحات الأطفال الذين كانوا يلعبون في الخارج. وتدفّقت الحرارة على هيئة تموّجات من الجُدران المطليّة باللون الأبيض.

قال: انتظر لحظة.

---

(1) الإسبرانتو: Esperanto لغة اصطناعية سهلة ابتكرها العالم الفيزيائي والخبير اللغوي البولندي لودفيغ زامنهوف سنة 1887، كمشروع لغة إتصال دولية. الهدف من لغة الإسبرانتو تكوين لغة تجمع بين الإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية ولغات الدول السلوفاكية بالإضافة إلى بعض من اليابانية واللغات الشرقية، بطريقة سهلة ومبدعة. الهدف الأسمى منها تحقيق السلام بوصفها لغة لا تتقيد بمصالح سياسية أو عرقية.

ثمّ نهضَ على عَجل، وَدلفَ إلى غرفة نومه. وعادَ بخريطة كبيرة لإفريقيا. رفعَ ساقي بنطاله إلى أعلى، وجثا على ركبتيه. عدّلَ جلسته ومن ثمّ فردَ الخريطة أمامه على وِسعها.

قال: إنها خريطة قديمة. ثمّ رنا إلي كما لو أنه توقع مني أن أقول شيئًا ما. استبعدتُ من عقلي فكرة أنه بدا أحمقَ وهو منبطح هناك بالأسفل، خشية أن تتجلى الفكرة على وجهي. وأشارَ على نحوٍ حازمٍ إلى منطقة بحيرة نيانزا[1]. سنقيم مُعسكرًا هنا ونهاجم العدو عند الفجر. تتبّع الطريق من كامبالا[2] – من سيفكر في الذهاب إلى هناك الآن؟ – عبرَ بحر الغزال[3] وصولاً إلى النيل في الأسفل. تخيّلتُ نفسي على متن سفينة كليوباترا، متلألئة بأوراق النباتات البرونزية والذهبية، بِنوافيرها وإيقاعاتها الأوقيانوسيّة الضخمة تتواثبُ في الشمس الاستوائية. قال: «طوال الطريق نحو الإسكندرية». ثمّ تتبع الطريق رجوعًا. الإسكندرية! مدينة الفاتح الأعظم! وها هنا الرونزوري: جبال القمر ذات القمّتين، والعواصفُ الهادرة تدنو. وها هنا بلدة العَدوة[4] حيثُ قهرَ الرهبان الأثيوبيون عنجهيّة إيطاليا وغرورها. بالقرب من مصبّ بحيرة تانا، المكان الذي قعدَ فيه الأمير الشيرازي[5]، هاربًا من غضبِ سيّده، منبوذًا

---

(1) بحيرة نيانزا: تُعرف أيضًا باسم بحيرة فيكتوريا، وهي ثاني أكبر بحيرة للمياه العذبة في العالم. كما تُعدُّ بحيرة فيكتوريا إحدى البحيرات العظمى الأفريقية وتطل عليها ثلاث دول هي كينيا وأوغندا وتنزانيا.

(2) كامبالا: عاصمة أوغندا وأكبر مدنها.

(3) بحر الغزال: نهر في جنوب السودان، وهو الرافد الغربي الرئيس لنهر النيل.

(4) إشارة إلى معركة عَدوة التاريخية سنة 1895 التي وضعت حدًّا للتوغل الإيطالي في الأراضي الإثيوبية.

(5) الأمير الشيرازي: هو الأمير علي بن حسن الشيرازي، وهو ابن شاه شيراز وأمه حبشية. =

مُبغَضًا، قبل اكتشاف النيل الأزرق[1]. وضحكَ ساخرًا من حماسته.

قال مع تنهيدة، وهو يعودُ إلى كرسيّه: نعم، اذهب. أَرِهم بأننا لم ننتهِ جميعنا. إن الأشياء التي يفعلوها بنا في هذا البلد... ثمّ انحنى إلى الأمام ووضعَ يده على فخذي: ضع في بالك شيئا واحدًا فقط، وهو ألا تفقد إيمانك بالله.. عندما تذهب إلى تلك البلاد الأجنبية.

ابتسمَ ابتسامة عريضة وَارْتكى. ثمَّ ضحك فجأة وهزَّ رأسه قائلًا: أنت شخص متكتم. لا تخبر والدتك بالأمر، ستشرع بالبكاء أو شيء من هذا القبيل. دَع الأمر لي. تحتاجُ أوّلًا إلى جواز سفر. أعرفُ شخصًا في دائرة الهجرة. سوفَ يساعدنا.

وقامَ بإشارة ليدلّ بأنه سيكون هناك دفع أموال. نظرَ إلى ساعته وافتعلَ أمارات الدهشة على وجهه.

قال: اترك أمر جواز السفر لي. عليّ الذهاب الآن. سوف تكون رحلة عظيمة. أتمنى لو أنني كنتُ شابًّا أنا أيضًا.

نقفَ على طرفي كُمّيه ونظرَ في ساعته من جديد ثمّ غادر. جعلني أشعر بالتفاؤل أكثر مما ظننتُ. بات الأمر أشبه بمؤامرة صغيرة بيننا، ورحنا نحكي

=مؤسس سلطنة كلوة. كان علي بن الحسن شيرازي واحدًا من سبعة أبناء للأمير الحسن من شيراز، بلاد فارس. عند وفاة والده، طُرد عليّ من ميراثه من قبل إخوته المتحاربين. ويُقال إن ثريًّا سواحيليا باع جزيرة كلوة للأمير علي بن حسن الشيرازي، فأسس الأخير مدينة كلوة على أرض هذه الجزيرة (سنة 975 ميلادية)، والتي تحولت إلى سلطنة كلوة ثم أصبحت واحدة من أكبر مراكز التجارة على الساحل الشرقي لأفريقيا، وقد اشتهرت آنذاك بتجارة الذهب والحديد من بلاد زيمبابوي، والعاج من بلاد تنزانيا المعروفة الآن، والنسيج والأحجار الكريمة والخزف والبهارات من آسيا.

(1) النيل الأزرق: نهر ينبع من بحيرة تانا في إثيوبيا.

بشأنها كلما كنا لوحدنا. لم يَدُم تفاؤلي. خامرني شكٌّ بأنهُ كانَ يُراوغني، وبأن حماسهُ ورواياته عن محاولة رشوة المسؤولين ما هي إلا اختلاق، مجرّد خدعة مُنمَّقة. في بعض المرات كانت تطفو على وجهه نظرة استمتاع خبيثة. كنتُ متردِّدًا في تصديق أنه سيتلاعب بي بمثل هذه الطريقة المُحكَمَة واللئيمة. ومن ثمّ عصرَ ذات يوم، بعد أسابيع عدّة على محادثتنا الأولى، عادَ من العمل في حالةٍ مزرية. لم يتحدّث مع أحد، ولكن لم يكن هذا أمرًا مُستغرَبًا. من حين إلى آخر، كان يلفتُ نظري، وأعرفُ بأني جزء من غضبه بطريقة ما. غادرتُ المنزل وهِمتُ على وجهي في الشوارع بعد الظهيرة للابتعاد عن طريقه.

رجعتُ إلى البيت لأجدهُ بانتظاري في غرفة الضيوف. أومأ لي بالدخول بينما كنتُ ماشيًا في طريقي. كانَ المتجبّر الظالم العبوس ذا الصوت الأجش مجدّدًا. كانَ الجو في المنزل قائظًا شديد الحرارة، وقد ارتفعَ الغبار من أركانٍ متعددة لدرجة أنَّ الهواء كانَ مشحوذًا بِحُبيبات الرّمل.

سألني: أين كنت؟

وكانَ العرقُ متراصفا على جبينه في فقاعات غاضبة. ولاحظتُ بأنه لم يأخذ حمامه المعتاد، وقيلولة بعد الظُّهر، الأمر الذي أحرجهُ وأجّج من غضبه. انتظرتُ بِصمت، على أمل أن يواصل الحديث دونَ إجابة مني، على أمل أن يُنفّسَ عن شكواه وحنقه ومن ثمّ يدعني وشأني بِسلام. عَبَسَ بانتظار إجابة.

قلتُ: ذهبتُ إلى الميناء.

فانفجرَ غاضبًا وقال: كنتُ في انتظارك. حتى أنني لم أستحمّ، وأنت كنتَ تلهو في الميناء. تريدُ هذا، وتريدُ ذاك، لكنك تريدُ شخصًا آخر للقيام بالمهمّة بالنيابة عنك. أنت لا تُبالي بالإذلال الذي تعرّض الآخرين له. مضيتُ إلى كلّ هذه الصعوبات.. بينما أنت تلعبُ في الميناء.

نهضَ فجأة، وتوترتُ ظانًّا بأنه سوفَ يضربني. أشارَ إلى الكرسي الذي كانَ جالسًا عليه، فجلستُ. خَطا قُبالتي، وراحَ يلتفُّ إلي ليرمقني ما بين آنٍ وآخر. وفكرتُ؛ لقد سئمتُ هذه المعاملة. أنا رجلٌ الآن!

قالَ على حينِ غِرّة: ما كانَ عندي أحدٌ ليهتمّ بي. لم يكن عندي أب، أتعلمُ هذا؟ ولكن أنت.. تتوقع مني مقابلة كل هؤلاء الناس، أن أعاني كل هذا الازدراء وقلّة الاحترام.. وما همّك أنت؟ تذهب إلى الميناء وتلهو هناك.

وقفَ عند النافذة، مُمسِكًا أحد القضبان. ثمّ قال، وقد لانَت نبرتهُ، وأشاحَ بنظرهِ بعيدًا عني: تحدثتُ مع موظف دائرة الهجرة اليوم. أخبرني إنه ثمّة قانون آخر. وقال إنه ليس بإمكاني التقدم للحصول على جواز سفر لأنني كنتُ في السجن. هل تعرف بأني كنتُ سجينًا ذات يوم؟

لم تتبدّل قسمات وجهه، وأتى سؤاله عاديًّا. صقلَ حنجرته ورأيتهُ يبتلع البلغم الذي أخرجه. تخيلتهُ واقفًا في عتمة ساحة الخيّاط، ورائحة الفاكهة العطنة استحالت حامزة لاذعة لدى اختلاطها ببول وفضلات الماعز، بينما الصبي الصغير يئنُّ عند قدميه. وتخيّلتهُ يصيح بِشماتة على الجسد الممزق: هل اكتفيت؟

استطرَدَ قائلًا بعبوس: من الأفضل أن تعرف ذلك مني. لم أرتكب أية جريمة.. لكن الناس لا تنسى أبدًا.

الصبي يمشي في الشوارع الآن مُهلهل الثياب. الأطفال الصِغار يسخرون منه، ويُنزِلون سرواله للمزاح، ويُدخِلونَ في دُبرهِ نوى ثمار المانغو القديمة وقِطعًا من الكاسافا. كانَ يتحرّى وجهي، يبحثُ عن علامات، يلتمسُ التعاطف والشفقة.

تلفّظَ عِبرَ أسنانه المكزوزة: اتّهموني باغتصابِ صبي يبلغُ من العمر ثماني

سنوات. صبيٌّ أبله يبيت في الشوارع. ترقبَ ردًّا مِني، لكني لم أُبدِ أية إشارة. عرفتُ بأني كنتُ أرفضُ الاستئناف، ولكني كنتُ صغيرًا جدًّا يومئذٍ لأفهم تكلفة مثل هذه الأمور. مشى إلى النافذة مرة أخرى، ووقفَ هناك للحظات.

رمقني بعينين واسعتين مُناشِدتين: كنتُ بريئًا، أرادوا فقط رفع اللوم عن أحدهم. أتفهمني؟

أومأتُ. وتنهّدَ.

قالَ مستطردًا: أطلقوا سراحي بعد ثلاثة أشهرٍ. أليسَ ذلك إثباتًا لصحة كلامي؟ ثمَّ أتينا للعيش هنا، مع اللصوص والبغايا، في هذه البؤرة القذرة. هؤلاء الناس لا يَنسون.

ألقى نظرةً خاطفة على ساعتهِ، ورنّقَ النظر عبر النافذة مطوّلًا، إلى نهاية الطريق. قال متنهدًّا: عليَّ أن أغتسل. لقد كانت أمك.. مبعثَ مواساة وراحة كبرى لي... كانت جميلة... كانت جميلة حقًّا. هل تعرف بأنها كنت في مثل سنّك تقريبًا عندما تزوجتها؟

هزَّ رأسه وتمتمَ شيئًا لم أسمعه. استندَ إلى الجدار، ولوقتٍ طويل نظرَ من النافذة دون أن يتفوّه بشيء. دخلت الغرفة هبّة هواء ساخنة: انسابَ نسيمُ البرِّ بِخفّة، حاملًا معهُ الانشراح إلى غرفتنا المُغبّرة. وبدأت تكتسحُ الأفق حُمرة الشفق الكئيبة. عادَ إليّ وتبيّنَ لي أنه كانَ يبتسم.مكتبة سُر مَن قرأ

قال: كانت مصدر راحة عظيمة.

توقفتْ سيارة في الخارج وَأطلقت بوقًا مرتين، وكان صوتُ مذياعها مُدوّيًا. أخرجَ رأسهُ من النافذة ولوّحَ. ثمَ قال لي: يجب أن أبدّل ملابسي، اذهب وأخبره بأن ينتظر بضع دقائق.

كانت أمّي جميلة، وحوّلها إلى كائنٍ يعيش على الألم. سعيد، أيها الدّاعِر

الصغير الجريح، هل تعلم بأنها كانت لهُ سلوانًا وراحة كبرى؟ والآن ها قد وجدَ راحته حيثُ استطاع. لم أصدّقه، وخشيتُ أن حقيقة ما حدث لم تَعُد مُهمّة. فما عَهِدتهُ إلا هكذا؛ يُمضي لياليه في الدِّعارة والسُّكْر، وجميعنا نتظاهر وكأننا لا ندري وِجهته عندما يكون في الخارج. كنا نأكل ونعيش وكأنّ لا أحد غائب. وعندما يؤوب إلى المنزل في ساعة مُبكِرة من اليوم، مُتعثّرًا عند الباب، ويصرخُ متلفّظًا بكلماتٍ نابية، وَيضرب أُمّي، كنا جميعًا نتظاهر وكأننا نيام. في بعض المرات فكرتُ بأن ينبغي عليّ فِعلَ أي شيء لأوقفه عِندَ حدّه. كنتُ أكبر إخوتي، وأقصر منه ببضعة سنتيمترات فقط. لربّما كنا جميعا بائسين مُثيرين للشفقة كما كانَ يرانا، بيد أني كنتُ أُشفِق من إشعار أُمّي بالخجل والخزي. حتى سعيدة الصغيرة كانت تعرف ما الذي كانَ مُتوَقعًا منها. لم يُعلّمنا أحد أن نفعل هذا. كنا نتصرف بتلك الطريقة لكي نَقِيْ أُمّي من الخِزي الذي عرفنا أنها كانت تشعر به، والذي شعرنا بهِ معها. في النهار، لم يكن يُقال شيئًا عمّا كان يدور في الليالي. كما لو أنها لم تكن قط. لم نكن نتحدث عن معاقرته للخمور، أو عن عُنفه ولو بصورة عابرة. غالبًا لم يكن يتسبّب لها بِكدمات في أماكن ظاهرة للعيان، وحتى وإن كانت مرئية؛ فقد كان كلّ ما نفعله هو تَجنُّب النَّظر إليها. خلال النهار، كانَ والدي سيدنا السّاخط، الذي كانَ لكلمتهِ سلطة توازي عقوبة الله.

تساءلتُ عما كان سيفعله في حال عَلِمَ بِحَمل زكية. كان إحساسهُ بالشرف سيتطلب شيئًا من القصاص. هذا ما كانَ مُتوقعًا من الأب والأخ، في واقع الحال. وما حدث هو أنهم أبقوا الأمر سرًّا عن أبي. أَخَذتها بي مكُوبوا - جدّتي - بعيدًا بضعة أيام، لتُقيم مع صديقة، وعادت زكية إلى البيت طَاهرةً مُطهَّرة، على الأقلّ إلى حِين.

نَضَجت زكية قبل أوانها. ففي سنٍّ مُبكِرة تخلّت عن دورها كخادمة

منزلية، عن الصورة النّمطية للبنت الصغيرة. تبدّت أولى تباشير أنوثتها المتبرعمة عندما كانت في التاسعة من عمرها فقط. وحينئذٍ أُجبِرت على لبس البويبوي[1]، غِطاء الحِشمة الأسود، وحُظِرَ عليها اللعب في الشوارع. وبدأت جدتي تتحدث عن القنابل الذرية والرجال في السّماء. وأنشأت تحكي عن العثور على زوج، وزكيّة تضحك في وجهها، وهي تفرّ هاربة منها إذ تحاولُ ضربها على قلّة أدبها. وما كانَ أي شيء من هذا كافيًا لقمع مفاتنها الواضحة والشّرِسة، ووجدت طرقًا للتملّص مِن انتباه جدّتي وأمي، مُرافقتيها. أرادت التمثيل في مسرحية مدرسية لكنّ جدّتي منعتها. أرادت ركوب الدراجة ولكن لم يُؤذَن لها بذلك. عندما بلغت سنّ الثانية عشر أخرجوها من المدرسة لأنها أخفقت في الحصول على مقعد في مدرسة ثانوية حكومية، ولم يرَ والدي أيّة جدوى من إرسالها إلى مدرسة خاصة مأجورة. في بعض الأحيان كانت تستعير كُتُبي. أذكرُ أنها بَكَت عندما قرأت «روميو وجولييت».

فقط في وقتٍ لاحق، بعد اكتشاف حَملها والتخلص منه بسرعة، أخبرتني عن الرجل الذي صارَ حبيبها. كانَ أحد المعلّمين في مدرستها القديمة، شابٌّ من الريف في أوّل وظيفة له. لم يكن أكبر مني في ذلك الوقت. قالت زكية إنها لم تعلم ما الذي حدث له، وكانت خائفة من السؤال. طلبت مني تحرّي أخباره. أتعجبُ الآن كيف لم تعتقد بأني سوفَ أحتجُّ على عارها بِحملِ عَصا في وجهه، أو أن أفضحه على أقلّ تقدير. سألتُ عنه واكتشفتُ بأنه طلبَ نقله إلى الريف.

أخفوا الحقيقة عن والدي، وأما بالنسبة إلى زكيّة كان الأمر كما لو أنها فقدت احترامها لنفسها بالكلّية. والآن، في السادسة عشر من عمرها باتت تنتقّل من علاقة إلى أخرى بِسُخرية شخص أكبر منها سنًّا بكثير، متخلّية عن

(1) Buibui بالسواحيلية. عباءة سوداء ترتديها النساء.

كل تحفّظٍ وتَعقُّل. ولمّا تقلصت صدمتي الأولى حيالَ تصرّفاتها، بدأتُ ألاحظُ المتعة التي تستمدّها ممّا تفعله. في الشوارع كانت تستعرض جمالها بوقاحة وعلى نحوٍ سافر، وكانت مزهوّة بإثارة الإعجاب. وعندما تركنُ إلى نفسها، كانت تَعي عواقب حرّيتها. جربتُ أن أجد طريقة للتحدّث إليها، ولكن ماذا كان هناك لأخبرها به ولم تكن تعرفه؟ أن أخبرها بأن تصرّفاتها كانت أقرب إلى الانتحار بالنسبة لامرأة؟ وبأن رغبتها المجنونة سوفَ تجعلها في خاتمة المطاف منبوذة وعرضة لسوء المعاملة. لم تكترث لِمحاولاتي، وابتسمت بفورةٍ من انتصاراتها، وبنشوة قدراتها المحدَثة. كانَ مستقبلها مرسومًا آنئذ. عاجلًا أم آجلًا، عندما تقسو عليها الأيام بما فيه الكفاية، ستغدو عشيقة أحدهم، إن حالفها الحظ.

توسّلَتْ إليها أمي. في بعض الأمسيات، بينما كنتُ مُستلقيًا على الحصيرة في الفِنَاء، وأستذكرُ دروسي من أجل الامتحان، كنتُ أسمعهما تتهامسان، وهما جاثمتين في ضوء المصباح، في الطرف الآخر من الفَنَاء. وكانت أمي تبكي مصيبتها، وفي النهاية تشاطرها زكية البكاء. أردتُ الذهاب إليهما، أن أكون معهما، لكني خشيتُ أنهما سترفضا عرضي عليهما بالمواساة. باتت زكية شيئًا آخر لا نتحدّث عنه.

حاولوا إخفاء الأمر كلّه عني، فذاكَ أمرٌ لا ينبغي على الرجال إشراك أنفسهم به. كانوا خائفينَ من أي تعاطفٍ قد أُبديه، لأن ذلك من شأنهِ أن يجعلني أبدو رقيقًا متساهلًا ومُشتبهًا به. ولقد لمحتُ التماعة مرتابة في عينِ جدّتي عندما مسّدتُ شعر زكيّة ذات مرة في حضورها.

انتهت مؤامرة جواز السَّفر بيني وبين أبي في محاورة بيننا بعد ظُهر ذات يوم. وما عادَ هناك مزيد من النظرات ذات المعنى والأخبار المهموسة عن موظّفي الهجرة. تقدّمتُ بطلبٍ رسميّ للحصول على جواز سفرٍ، عارفًا بأنَّ

ثمة فرصة ضئيلة للحصول عليه. كانت الامتحانات وشيكة، على أيّة حال، وَطَغَت على جميع المخاوف الأخرى. كنتُ أُمضي فترات ما بعد الظهيرة في المدرسة، أراجعُ دروسي ثم أذهب لِممارسة الجري المرهِق في المضمار. كانَ هناكَ اقتناعٌ بِصرامة النّظام الحاكم. وكان الوقت في الحسبان، ومخصّص لغرضٍ واحدٍ محدّد. لم أشغل بالي في انعدام الجدوى في هذه الجهود، وبأنّ نتائج امتحاناتنا ربّما لن تصدر حتّى، خوفًا من أننا قد نقرّر البحث عن مَصائر أفضل في مكانٍ آخر. في المدرسة، كانَ الطلّاب المتقدّمون للامتحان يتبخترونَ في الأرجاء، يدللهم المعلّمون وينظرُ إليهم الأولاد الأصغر سنًّا بعين الرهبة. أشرفَ على أوقات المراجعة لدينا فِتيان أصغر سنًّا، والذين اختلقوا الأساطير حولَ اجتهادنا، مثلما فعلنا مع مَن سبقونا.

كنتُ أعودُ إلى المنزل أوّل المساء، وغالبًا ما يكونُ المنزل خاويًا. كانت أمي وبي مكُوبوا في العادة تذهبان للزيارة في فترة ما بعد الظهر، أو لِحضور إحدى المناسبات النسائيّة التي لا نهاية لها. وكانت سعيدة، أختي الصغرى، ترافقهما أحيانًا، إلا أنها في غالبية الأحيان كانت تلعب مع الأطفال الآخرين في السّاحة. وكنتُ أقعدُ على حصيرتي في حوش الدّار، أقرأُ أو أتكىءُ على الجدار السّاخن غائبًا في خَدرٍ مُرهِق. وكانَ يَطيبُ لجدتي التسلّل مِن خلفي عندما أكون في حالةٍ كتلك، وَأن تقول لي شيئًا ساحرًا ومُشجِّعًا: سوفَ تَفشل.

بِمضيّ السّنين، باتت قسوتها مُثيرة للسخريّة وتهريجيّة. وَما عاد أحد يُلقي لها بالًا، صارت تتسحّبُ في أرجاء المنزل، وكلّها آذانٌ وعيونٌ، متيقّظةً لأيّ قلّة احترام أو استهزاء. وكانَ يُطرِبها القول: سوف يضعونكَ في مشفى المجانين. وكنتُ أعتقدُ أنَّ الضحكَ إزاء هذا قسوة بالغة. في بعض الأحيان كانت تُشهِرُ إصبعها في وجهي، ثمَّ تَنسحِبُ إلى غرفتها، وتصفقُ الباب قبلَ

أن توصِده بالمِزلاج. ومع هذا، كانت كلَّما عادت من المناسبات النسائية التي كانوا يحضرونها، تجلب لي معها قطعة من الكعك أو الحلوى. وقد اعتادت القول: «إطعام الحيوان»، وهي تضحكُ ضحكة مُجهَدة لها صَفير، منبعثةً من رئةٍ مُعتلّة.

كانت الزيارات والمناسبات موضعَ أهمية بالنسبة لأمي. إذ كانت جزءًا من الاحترام الذي منحتنا إيّاه وظيفة والدي الجديدة. وصارت تواجه مشكلة بملابسها في هذه الآونة، على الأقل عندما تخرج من البيت. وكانت توبّخ زكية على الإفراط. فتقول لها: «آه، لا تجعلي مني أضحوكة يا فتاة». ولكنّها الآن تتطيّبُ بالعِطر، وتُغمِّقُ جفنيها بالكحل. وهي تقصِدُ الخيّاطة مع رِزم مِن قماش البوبلين والتَفتا والحرير التي حصلت عليها من البائع الجوّال. وفي الأَمسِيَة كانت تُبدّلُ ملابسها بالأسمال البالية وتُثير ضجة حولَ الفناء بينما تُحضّرُ عشاءنا. وفي نهاية اليوم الطويل والشاق، كانت تؤدي صلاة العِشاء على حصيرة في الحوش، ثمّ تستلقي لأخذ غفوة من شدة التعب. وكنتُ آنئذٍ أسمعُ أنينها وهي نائمة، بينما أنا متمدد على بعدِ بضعة أقدام عنها، محدِّقًا في كتبي في ضوء المصباح الزيتي.

وعندما تَنتبهُ من نومها، بعد ساعة أو نحو ذلك، كنّا نتجاذب أطراف الحديث لبعض الوقت. وكانت تسألني مُتعمّدة أسئلة استدراجية عن المدرسة، كانت الإهانة جليّة في مغزاها، لكني لم أستطع كبح نفسي من التّباهي بمعرفتي. أحيانًا كانت تغفو بينما أتحدّث، وكنتُ أهزّها بلا رحمة لأنني لم أفرغ بعد من سرد العملية المخبرية لتصنيع الكلور، أو ما شابهها. عرفتُ بأن ينبغي عليّ الحديث معها عن الرحيل، ولكن كان الجبنُ يستولي عليّ عندما تحين لحظة الكلام. انتظرتُ مساءً لن تكون فيه خارج المنزل، ولن أكون أنا فيهِ مُرهقًا ومشغول الفكر والبال.

وذات مساء، وجدتها في الحوش لدى عودتي من المدرسة. كانت مقرفصة على الأرضية، تُشعِلُ النار. قرفصتُ بالقرب منها. تبدّت لي اللحظة الخطأ. وبدأت فكرة البحث عن حياة أفضل في مكانٍ آخر تبدو طموحًا غير مسؤول، وعلى أيّ حال، فمن غير المرجح أن تتحقق. رَنَت إلى السّماء، ثمّ انشغلت بالقدور.

سألَتني في النّهاية: هل ستمطر برأيك؟

كانت السماء مكفهرّة منذ أيّام عدة، وخلال النهار كانت الرطوبة لا تُطاق. حتى ذلك الحين كانت قد هبّت علينا عاصفة واحدة جافّة، وذلك عندما جرفت الريح التراب، وصيّرتها شياطينَ غاضبة اندفعت اندفاعًا جنونيّا في جميع الجهات.

أجبتُ: لا، لن تمطر قبل بضعة أيّام.

نظرتْ إلى السّماء مرة أخرى، ثمّ إليّ.

قالت: سيهطلُ المطر الليلة، وما أدراكَ أنتَ بهذه الأمور؟ كلّ هذا الغبار والحرارة لازمتنا أيّامًا طويلة. إنه موسم الأمطار الآن. سوفَ يُصلّون صلاة الاستسقاء في البلاد. ستمطر، أنا أعرفُ مثل هذه الأشياء. قالت ذلك، وفي صوتها شيء من الإغاظة.

سألتها: ماذا تطبخين؟

طَرَفت بعينها بتمهّلٍ يَنمُّ عن كربٍ ومعاناة. موزٌ من جديد. أكانت أيّامًا عسيرة تلك التي كنا نحياها؟ كانت في ذلك الحين قد فقدت اهتمامها بتدبّر أمور المعيشة، بابتكارِ وجبات ذكية من كرش الحيوان والسردين. في بعض الأمسيات كانت تُعطي كلّ واحد فينا بضعة سنتات للذهاب إلى صالة الشاي لنشتري خبزًا وفاصولياء. كانت تتقبل أي شكوى تَبدُر منّا باستياء

صامتٍ مثقلٍ بالشعور بالذنب. وهي قلّما تأكل شيئًا في الليل، ولكنها كانت تطهو شيئًا ما إذا كان والدي موجودًا في البيت. لا أعتقد أنني كنتُ أعترضُ على الخبز والفاصولياء بقدر اعتراضي على الموز، ولا أظنّ بأنني ألومها على رفضها لخدمتنا جميعًا. ومع ذلك، في بعض الأحيان، عندما كانت وجبة الموز الثقيلة تخترقُ تلافيف الأمعاء وتُتخِمها، أتساءل ما إذا كان من الأجدى إنفاق المال على الثياب والعطور والسُّكْر.

سَألَتني: هل أنت جائع؟ أنت دومًا جائع.

جَذَبتْ عنقود الموز الأخضر ناحيتها، وراحت تفصلُ القرون. توقفت قليلا كي تنظّف القشرة من شائبة ما، كما لو كان الأمر مهمًّا. كانَ رأسها منخفضًا فوقَ عملها، مائلًا قليلًا إلى الجانب. حزنتُ لأني جعلتها تشعرُ بالذنب حيالَ الطعام.

قلتُ: أنا أحبُّ الموز.

رفعت رأسها وابتسمت كأنها تقول كاذب!

سألَتني وقد انعطفتْ بالمحادثة إلى مسارٍ آخر: هل صلّيتَ الليلة؟ لا أعتقد أنّ لديك الوقت. أنت في هذه الأيام مشغول إلى الحدّ الذي لا تُفرِدُ فيه وقتًا لله.

نَظَرت إلى السّماء مرة أخرى وَتنهّدت. كانوا يُقدِّمون التضحيات من أجل استجلابِ المطر. كانَ كبار السنّ في القرية يأخذونَ الأرز أو الدقيق، والحيوانات أحيانًا، إلى الضريح الموجود على الجُرف. حيث يمكنك في الليل سماع الأشباح. هذا ما اعتقدناه عندما كنّا صغارًا، أنا وأخي. أحيانًا كنّا نسمعُ خَطوهم عبر القرية، يَجرّونَ من خلفهم سِلالهم من أجل القرابين. أرادَ أخي أن نذهب إلى الضريح ونقضي الليل هناك لمحاولة رؤيتهم. قلتُ لهُ إننا سوفَ نُصابُ بالعمى. وقالَ والدي إن الأشباح وتقديم القرابين محض

عادات بِدائيّة.

سألتها: هل ستهطل الأمطار؟

فسألتني وهي تُحدِّق بي مِن مسافة بعيدة: نعم؟ ستُمطِر الليلة، انظر إلى السّماء.

قشّرت الموز بِعودٍ خشبيّ حادّ، وألقتهُ في إناء مملوء بالماء عند قدميها. في كل مرة رَمت فيها موزة، كان الرذاذ يبلّل قدميها. لا يبدو أنها لاحظت ذلك.

سألتني: هل سمعت بِابن سعيد؟

فترت همّتي، وكانت بي رغبة لإنهاء الحديث والخروج للتجوال في الشوارع. بدت هَشّة وحزينة للغاية، وترددتُ بزيادة بؤسها بالتحدّث عن الرحيل. وذاكَ ما فسّرتُ به جُبني.

- لقد قتلَ كلبهُ اليوم. قادَ سيارته فوقَ الكلب فانفَقعَ مثل حبّة الطماطم. رأيتُ ماحدث، كنتُ هناك. نهضَ وجرجرَ نفسه بعيدًا.

قمتُ لأغادر. رفعت نظرها إلى أعلى وابتسمت. ثمّ قالت ضاحكة في وجهي: لطالما كنتَ ليّنَ القلب.

سألتُها وأنا أستعدُّ للخروج: ما الذي سيحدث له؟

قالت متهكمة: سيدخلونه السجن. إنهم كالحيوانات، جميع أفراد عائلته. انظر إلى الأوغاد الذين أنجبوهم.

كانت شائعةٌ تقول إن ابن سعيد طاردَ أمي لِسنوات، وبأنه كتبَ لها رسائل - وهي التي لا تستطيع القراءة - وَقد مَرَّرتها إلى والدي. كانت تسري في عروق ابن سعيد دماء نبيلة. فقد انحدرَ من آل بوسعيد[1]، حُكّام

(1) آل بو سعيد هي العائلة الحاكمة في سلطنة عُمان كما حكمت ذات السلالة زنجبار=

زنجبار حتى الثورة، ومن سلاطين عُمان حتى يومنا هذا. كان حفيد سائقي العبيد الأصليين، رجلا صاحب امتيازات. في شبابه كان يُرهِبُ الناس في الشوراع، والسُّلطات الاستعمارية غَضّت الطرف عنه، غير راغبة بإفساد علاقاتها بعائلته ذات النُّفوذ والسّطوة. حتى إنه قتلَ رجلًا ذات مرة، وهو بحّارٌ إنكليزي. والسُّلطات غضّت الطرف عن هذه الجريمة أيضًا. ولكن الوقت تغيّر، وتحوّل سعيد إلى شخص يُطيل الحديث مع زجاجة «الجِنّ» الخاصة به، مُتكئا على نافذته، ويطلُّ منها ليصيح بالشتائم على المارّة. كانت عنتريّاته في الخارج تنتهي دومًا بأفعال خُيلاء وغطرسة لا مبرر لها. السُّلطات الجديدة ما زالت مُتساهلة معه أيضًا. افترضوا بأنه مجنون، وحبسوه في مشفى الأمراض العقلية ليلة واحدة لتهدئتِهِ.

قلتُ: سأخرجُ لبعضِ الوقت فقط.

مشيتُ عبر الزقاق بجانب المنزل. كان العجوز صاحب المبغى على نافذته، جالسا خلف القضبان، مرنّقًا النظر عبرَ الزقاق المعتِم. غالبًا ما كان يفعل ذلك، قاعدًا بجوار نافذته المفتوحة على مصراعيها، محدِّقًا في جدار منزلنا. كانت نافذتهُ مُطلّة على نافذة غرفة نوم جدتي. أغضبت سهراته جدّتي حدّ الجنون. في بعض الأوقات كانَ يُحرِقُ البخور، وغالبًا ما كانَ يُزمّرُ بِمزمار القربة على الملأ.

عندما كنتُ طفلًا كان يُدلّلني، ويحتضنني بين ذراعيه، ويفرك خدّي. كانت أمّي خائفة منه، لدرجة أنها تهيّبت التعبير عن خوفها. حذّرتني منه، وأخبرتني بأنه رجلٌ قذر، وَحلّفتني ألّا أخبرهُ بما قالت. في خاتمة المطاف

=تأسست هذه العائلة على يد أحمد بن سعيد البوسعيدي (1744-1783) الملقب بالمتوكل على الله (1744 م) مؤسس الدولة البوسعيدية في عُمان.

أعلَمت أبي بِوَلَعِ الرجل العجوز بي. في البدء صَبّ أبي جامَ غضبه عليّ، ونعتني بالدّاعر الصغير. ما الذي فعله؟ قل لي الحقيقة! ثمّ ذهبَ إلى الرجل العجوز، وهدّدهُ بكلّ شيء، من الإخصاء إلى انتقام الله. وعاد إلى البيت غضبانًا ومذلولا، ذلك أنَّ الرجل العجوز لم يسكت والزبائن أيضًا أتوا لمؤازرته. لم يتحدّث العجوز مع أبي بعد هذه الحادثة أبدًا، وأنا تجنّبتُ الزقاق ما أمكنني.

لمّا مررتُ بمحاذاة النافذة، ضحكَ الرجل العجوز ضحكة مكتومة، على غرار ما يفعله دومًا. ذات مرة تَلفّتُ إلى الخلف لإلقاء نظرة بعدما مررتُ من أمامه، ولمحتُ على وجهه تكشيرة تنمُّ عن كراهية شديدة، لدرجة أني لم أتجرأ بعدها أبدًا على النظر إليه. حلمتُ بهاتين العينين الدّامعتين الشّرستين المحدّقتين في عتمة الزقاق شديد الرطوبة.

في السّاحة، تحتَ شجرة البمبوزيا العتيقة، كانت مصابيح الكيروسين متوهّجة، بينما كان الناس يستعدّون للمساء. وأسفل أحد المصابيح، كانت لعبة الورق المطوّلة ما تزال دائرة.

على أطراف الساحة تناثرت عربات بائعي الكباب، وباعة الفول السّوداني والحلويات الجائلين. وكان راديو مطعم عدّوسي يُطلقُ مزيجًا من الأغنيات الصاخبة والأمنيات الطيبة غير المنتهية للأصدقاء والأقارب. خرجتْ سعيدة مِنَ العتمة راكضةٍ وأمسكت بيدي.

«إلى أين أنت ذاهب؟» سألتني وقد أظهرت على وجهها تعابير طفولية فَرِحة. لم أجب ولكني بدلًا من ذلك حاولتُ شدّ خصلتي الشعر الخشنتين البارزيتن على جانبي رأسها. ضربتني على يديَّ وأبعدتهما عنها، وعادت أدراجها إلى عُصبةِ الأطفال التي أتت من عندها. كانت حينذاك في العاشرة من عمرها تقريبًا، في العمر الذي يَجبُ فيه مواراتها عن أعين الرجال. إن

تصرفاتها الصبيانية هي ما أنقذها من هذا المصير. كانت أوفرنا حظًّا. كانت قادرة دومًا على النأي بنفسها عن الاضطرابات في المنزل، وكانت تنعمُ على الدوام بنوعٍ من الرضا الذي لا شأنَ له بما يدور من حولها. وصفتها أمي بالحالمة، وغالبًا ما شَعَرت بالإحباط بسبب قلّة انتباهها. وكانت سعيدة تتأذى من هذا الكلام، فتتذكر أن تساعد في الغسيل بضعة أيام. وكانت تطوي زيّها المدرسي، وتضعُ كتبها جانبًا، وتعرض على أفراد المنزل تحضير أكواب من الشاي. وكان هذا الحال ليدومَ فترة وجيزة، ثمّ ما تلبث أن تعود إلى ذاتها غير المبالية، مستغرقة في بهجة خيالاتها وقصصها الباطنية إلى حدٍّ يُنسيها الاهتمام بأن تكون فتاة صالحة.

هيمنَ الليل بسرعة كبيرة، وامتدّت الظلال على الطريق. انبعثت أنوار خافتة من قناديل الشوارع المتناثرة في الطريق عبر البلدة. وألقت مصابيح الكيروسين بمربعات من الضوء من الشبابيك ذات القضبان. الظِّلال التي مررتُ بها كانت متحركة راعشة ومُحدِّقة. في وهج المصابيح الشَّاحب، بدا العالمُ وكأنّهُ سَهلٌ من الرُكام والصخور الراسية في قاع البحر، لا العالم الحقيقي.

بينما كنتُ مارقًا بِجوار ساحات السيارات الخالية والمستودعات المقفلة، بدا الأمر وكأنني كنتُ أطوفُ حولَ نيران مخيّم مُهمَلٍ ارتادهُ حشدٌ كبير من الناس... مكان اختيرَ بصورة عشوائية وعلى عَجل بهدف عَسكَرةٍ مؤقتة على الطريق ومن ثمّ الانطلاق إلى أماكن أخرى. لمحتُ صورة عابرة لفتاة مُتخفِّفة من ملابسها، كانت تتحرك مبتعدة في ظِلال المساء المبكرة، كان رأسها يتمايل بِخفّة بينما تغذ السير، وخطوتها واثقة للغاية.

عاودتُ الدخول إلى السّاحة من الطرف المقابل، بجانب مطعم عدّوسي. كانَ المكان مُشبَعًا بالضوء. وكانت اللافتة الموضوعة فوقَ المدخل مغطّاة

بالحشرات التي راحت تَطِنُّ طنينًا مسعورًا لدى ملامستها المصابيح. قُدّام المطعم كانَ رجلٌ واقفًا خلفَ طاولةٍ، سطحها من الألومنيوم، يصنع خبز الشّباتي[1]. على زاوية المطعم كان هناك زقاق طويل وضيّق، حيث كانَ يذهب الزبائن لإراحة مثاناتهم الممتلئة. وفي نهاية الزقاق يقع المكتب الفرعي لحزب الشعب التقدّمي التابع لنا. فوقَ الباب دُهِنت بالطلاء الأسود عبارة «الحرية الآن». لم تكن الحروف التي نُقِشت بها العبارة نَيّقة، كانت قد كُتِبت في خضم الصراع. صارت باهتة الآن، بقايا زمن كان فيه لهذه الشعارات معنى.

كانَ المكتب غَاصًّا بأناسٍ يلعبون لعبة الورق والدّاما. في المكتب الداخلي كان رئيس الفرع يتصدّر الجلسة ويتجاذب أطراف الحديث مع زائريه، ويرتشف القهوة من كوبٍ صغير، مُصغيًا إلى التملّق والإطراء المبالغ به من حوله. كان أحد المتنورين الجدد. مُمثلنا في مجالس الأعيان وأصحاب النفوذ. لقد تعلّمنا مُسبقًا ألّا نصطفي واحدًا منّا لمثل هذه المهام، ولا أحد من أولئك الذين استمروا لقرون، وضد جميع الأدلة البادية للعيان، في تسمية أنفسهم عربًا. لقد عَلّمنَا الاستقلال بما فيه الكفاية من الكراهية العنيفة التي شعرت بها بقيّة البلاد حِيال التاريخ الذي كنا جزءا منه. مشينا على مرّ العصور في دروب الاختلاط والتزاوج بين الأعراق مُحتالين، وسَخِرنا من إخوتنا غير الأشقاء ومن أخواتنا غير الشقيقات، أظهرناهم بمظهر الحمقى، في حين أن أولئك الذين زعمنا أننا منهم، وَهُم أدرى بنا، تبرّأوا منا واحتقرونا، بِاعتبارنا سُلالة هجينة من أبناءِ أجلافٍ مُندفعين. لذلك، اخترنا الآن رئيسًا

---

(1) الشباتي: Chapati خبز مرقوق من الدقيق يُصنع من عجينة غير مخمّرة، منشأه الأصلي الهند، وغذاء رئيسي في نيبال وبنغلاديش وباكستان وسيرلانكا وشرق أفريقيا وشبه الجزيرة العربية والكاريبي.

لا يتكلم مثلنا، وشهامةً منه أنه لا يحكي غالبًا عنّا بالسوء. كان الشخص الوحيد الذي بمقدورهِ إقناع المشفى بإرسال سيارة الإسعاف إن كان أحد ما يعاني حالة حرجة. كان بمستطاعه، ببضع كلمات هامسة، أن يغلبَ بالحُجّة شرطيًّا مُفرطًا في اندفاعه. وكانَت كلمته نافذة كأن يتوسّطَ لطالبٍ أوشكَ على الرسوب، أو لرجلِ أعمالٍ شبه متيقن أنه سيفقد رخصة عمله. لِذا كُلِّفَ بالمهمّة، وقبلَ التكريم بتثاقل. غُطّيَت جدران مكتبهِ بالشعارات، وصور أعيان الحزب. وكانت هناك صورة كبيرة لقائدنا يقفُ فيها إلى جوار ملكة إنكلترا، وكانَ بدينًا على نحوٍ مُحرِج وعيناهُ يكسوهما الخبث وآثار السُّكْر.

كان الأمر غير اعتياديّ أوانَ كفاحنا للتخلّص من البريطانيين. ابتهجنا بوحدتنا، وتحدثنا بكلمات التسامح مع أخطاء الماضي، ساعحنا أنفسنا على أهوال تاريخنا وخداعنا لأنفسنا فقط. اقتحمنا الشوارع بفرحة وحماسٍ عارمين، وَهتفنا من فرطِ سرورنا باقترابنا من الحرّية. في الأيام التي سبقت الاستقلال غمرنا فرح وطني مسعور. أتذكرُ رجلًا راح يجوبُ الشوراع وهو يعزف على الساكسفون، وتَبِعهُ جميع الأطفال في أرجاء المدينة وهم يغنّون لحنهُ «صَوِّت للبطل المنتصر/ فوتي مبيني يوغوو»، وكانت هناك مظاهرات مدرسية تعلوها المشاعل، ولقاءات لألعاب القوى، وبطولات رياضية. خرجت الأمة كلها في مسيرة. كان حَدَثًا لم نشهد لهُ مثيلًا من قبل. كانت شرطة مكافحة الشغب الجديدة، التي شكّلتها الحكومة الانتقالية قبل الاستقلال، تتمرن على العرض العسكري. وكانَ الصيّادون ينظّفون قورابهم وَيَطلونها، استعدادًا لسباق القوارب. وانهمكَ العُمّال التابعون لإدارة العمل العامة بتحضير العربات الكرنفالية من أجل مواكب الأزياء. وكانت الأحياء تضع الرتوش الأخيرة على تحضيراتها الكرنفالية. في حين خيّم الكشافة في الخارج، وراحوا يصقلون المهارات التي سوف يعرضونها، ويتدرّبونَ على صيحات المعارك: كاليبا كاليبا ياهوو! وفي المدرسة طُلِب منا

كتابة مقالة معنونة بـ: ماذا يعني الاستقلال بالنسبة لي.. مهرجان!

وها نحنُ اليوم أحرار. وزعيمنا يقفُ بجانب ملكة إنكلترا دونَ إراقة ماء وجهه. إنه سمين، ممتلئ حدّ الانفجار بثمارِ سلطته العفنة؛ فاسدٌ وفاسقٌ وَسفيه. كما أنهُ يتمتع بحماية شرطة مكافحة الشغب، والتي تحولت الآن إلى جيشٍ مدجج بالرشاشات والدبابات، ولهُ عدوٌّ واحدٌ فقط. وما عاد الجنود مضطرّين للدقّ على الأبواب قبل دخول المنازل.

توقفتُ عند السينما لإلقاء نظرة على اللقطات الدِّعائية. كانَ فيلم سيّدتي الجميلة[1] يُعرض للأسبوع الثالث على التوالي، وكانت صالة العرض مزدحمة ومليئة عن آخرها. عدتُ خطوة إلى الوراء للحصول على رؤية أفضل، فاصطدمتُ برجلٍ كان يقفُ خلفي. استدرتُ لأنظر، وكانت كلمات الاعتذار على طرفِ لساني. لكني لم أستطع التكلّم. نظرَ الرجلُ إليّ بهدوء. تمتمتُ بشيءٍ ما ثمّ مضيتُ مبتعدًا، مدهوشًا من الخوف الذي شعرتُ به. التفتُ لأرى، فوجدتُ أن الرجل كانَ ما يزال واقفًا في مكانه، وَيتتبعني بنظراته.

سمعتُ المؤذِّن يُنادي إلى الصلاة. فلبّيتُ النداء بدافع وجوب صلاة الجماعة. توضأتُ من خزانات المياه، وألقيتُ نظرة على الحوض الخرسانيّ كيما أرى إذا ما كانت فرشاة الأسنان المهترئة ما تزال موجودة. انهملَ الماء من يديّ وجرى في سيلٍ ثم صبّ في البالوعة اللزجة. كانت دورة المياه في نهاية غرفة الوضوء، وكانَ ثمّة رجل فيها يسعلُ سعالًا شديدًا، فطغى صوتُ سُعالهِ على جَلَبة الوضوء.

---

(1) فيلم سيدتي الجميلة (1964): الفيلم الأميركي My Fair Lady ويروي قصة بجماليون للكاتب الكبير جورج برنارد شو بطولة أودري هيبورن وريكس هاريسون.

ردّدتُ الكلمات اللازمة بِحكم العادة، ومع هذا لم أتعجّب من شعور التطهير الذي أحسستُ به. كانت في المسجدِ طمأنينة تجعل القلب يشعرُ بأنه ههنا سوف يستريحُ من كل عنائهِ وَعذاباته. نَدّ عن المُصلّين طنينٌ خافت وهم يُهمهمونَ بِصلاتهم سِرًا. ثمَّ وقفَ رجلٌ في المقدّمة ومشى نحوَ المحراب المواجه لِمكّة. رفعَ يديه في الهواء وَتلفّظَ بالنية ثمّ أَمَّ بِنا جميعًا في الصلاة. في نهاية الصلاة تصافح كل واحد فينا مع جيرانه. تحرّكتُ من مكاني في الصفّ الذي كنتُ فيه، وذهبتُ للجلوس في مؤخرة المسجد، مُتَلذِّذًا بالعتمة وتراتيل المصلّين المدوزنة وصلواتهم على النبيّ.

مشيتُ باتجاه تقاطع شارع كيزا، وتساءلتُ فيما إذا كانَ ينبغي عليّ المضيّ في طريقي أو العودة إلى المنزل. خرجَ رجلٌ من أحد البيوت. رَمقني بحذَرٍ ثمّ ابتسمَ كما لو كانَ قد تعرَّفَ إليّ. كانَ رجلًا ودودًا قصير القامة بدينًا، وكانَ كرشهُ مُتدلّيًا فوقَ سرواله.

سألني: هل أنت تائه؟

وأجبتُ بالقول: لا، أنا في طريقي إلى المنزل.

قالَ، ومِن وراء صوته اللطيف قلقٌ خفيّ: فَإذن لا تتسكع في الشوارع! ألستَ خائفًا؟ هل أنت مجنون؟

عندما عدتُ أدراجي مرورًا بمطعم عدّوسي، كانَ الرجل العجوز نفسه جالسًا إلى طاولة بجوار الباب. يعملُ جمعة عدّوسي في المطبخ أوان ساعات الذروة، ثمّ يخرجُ في وقتٍ لاحقٍ من المساء كي يعدُّ الغلّة. وقد اشتهرَ بالبخل وما زادَه منظرهُ إلا تعزيزًا لسُمعتهِ هذه. كانَ نحيلًا ويرتدي ثيابًا بالية على الدوام. وكانتا يداه مشوّهتين ببقعٍ من الجلد المشدود، وكانت ورديّة ومسلوخة على نحوٍ مريع. تكهّن زبائنه، بِلا انقطاع، بالكنز الذي يخفيه في مكانٍ ما.

كانت المقاعد قدّام المطعم مزدحمة بالأشخاص الذين يستمعون إلى الأخبار في المذياع. وكان من بينهم الطلّاب الجادّون المهتمّون بِشؤون العالم. غادروا منازلهم لكي يأتوا ويستمعوا إلى الأخبار في هذه الطقوس الليلية. ارتشفوا قهوتهم بصمت وتبادلوا النظرات فيما بينهم عندما كشفت المؤامرات عن نفسها خلال كلمات المذيع. عندما انتهت النشرة أفصحوا عن فرضيّاتهم حولَ الوضع الحقيقي للأمور. بعد وقتٍ قصير، باتت نقطة البحث الأساسية واحدة من الأشياء القليلة التي اهتمّوا بها حقًا، ألا وهيَ الصراع العربي - الإسرائيلي.

أُقِرَّ بالإجماع على أنه ما من جدال في أن إسرائيل لم تنتصر في حرب الأيام الستّة[1] بمفردها. زعمَ أحد الرجال أنه يعرف أن أدولف هتلر هو رَيّس إسرائيل، وأن الملك حسين باعهُ مخططات المعركة. كانَ الرأي العام أن المصريين كانوا ينتصرون في سيناء، وقد أطبقوا على الإسرائيليين بين كفيّ كمّاشة، وكانوا يجرّونهم أبعدَ فأبعد قبل أن يغلقوا الباب ويَفتِكونَ بهم. ولمّا كان النصر في قبضة العرب تدّخل الأمريكيون. الرّوس الذين وعدوا بمؤازرة العرب لم يفعلوا شيئًا. وبدلًا من إلقاء قنبلة ذرّية على أمريكا، ألقوا خطابات في الأمم المتحدة. كان الموضوع زاخرًا بالاختلافات، وطُرِحت بعض الآراء المتشدّدة، ولكن على العموم كان الرأي السائد هو أن هذه القنابل كانت مسؤولة عن نموّ أثداء كبيرة للفتيات الصغيرات.

---

(1) حرب الأيام الستة: حرب 1967 وتُعرف أيضاً في كل من سوريا والأردن باسم نكسة حزيران وفي مصر باسم نكسة 67 وتسمى في إسرائيل حرب الأيام الستة. هي الحرب التي نشبت بين إسرائيل وكل من العراق ومصر وسوريا والأردن بين 5 حزيران/ يونيو 1967 والعاشر من الشهر نفسه، وأدت إلى احتلال إسرائيل لسيناء وقطاع غزة والضفة الغربية والجولان وتعتبر ثالث حرب ضمن الصراع العربي الإسرائيلي.

ألفيتُ أمي مُتمددة على الحصيرة في الفِناء. وهج المصباح خفّفَ من معالم وجهها، ما أدى إلى بروز العظام. عندما اقتربتُ، أزعجتها حركتي فانتفضت واستيقظت فجأة.

قلتُ وأنا أقرفصُ إلى جانبها: لا عليكِ.. ولكن من الأفضل أن تذهبي إلى الداخل.. أظنها ستمطرُ أخيرًا.

جلست ببطء ووجهها يتلوّى من الألم. دلّكت الكتف التي كانت مستلقية عليها، وحاولت كظم تثاؤبها وأخفقت في ذلك. ألقى المصباح بظلاله البغيضة على وجهها وهي فاغرة فمها لأخذ نفس من الهواء. قعدتُ خلفها ودلّكتُ كتفيها، ورحتُ أضغطُ عليهما براحة يدي مثلما علّمتني. هزّت كتفيها لإبعادي، وابتسمت عندما جئتُ لأقعد قبالتها. سألتني: أين كنت؟ يجب أن تستذكر دروسك من أجل الامتحانات. كما أنك لم تتناول عشاءك بعد.

- أكان اللحمُ جيدًا؟ قلتِ إن له رائحة كريهة بعض الشيء.

- إن كنتَ تشتري لحمًا زهيد الثمن سوف تشمّ دومًا رائحة التوفير الذي قمت به. اسأل والدك عن ذلك، وليس أنا.

قلتُ: تحدثت معه عن الرحيل بعد الامتحانات.

انتظرتني لأكمِل، ثمّ أومأت برأسها.

قلتُ: يتعين عليّ التفكير في هذا الأمر. كما أنه أخبرني عن حادثة السجن... لماذا أرسلوه إلى السجن؟

همست مُحذِّرة ووضعت أصبعها على شفتيها: لا ترفع صوتك هكذا!

سألتُها هامسًا: كم كان عمره؟

لم تُجِب لبعض الوقت. عندما رفعت بصرها لأعلى كانَ في عينيها خوفٌ وشعور بالذنب: لم تكن خطيئته. كانوا يريدون أي أحدٍ لإلصاق التهمة به. وما كانَ ليفعل مثل هذا الشيء. يجب أن تصدّقني.

نظرت إليّ كما لو أنها خدعتني. نعم، قلتُ لها لكي أُطمئِنها. وقالت: كان من الممكن أن تكون ابنًا أفضل له. أن تساعده أكثر.

تسبب لي ذلك الاتّهام بالألم. تذكرت وقت جنازة سعيد، وكيف اتّهمني والدي وهو يبكي بمقتل سعيد. انتشلني أحدهم وأخذني بعيدًا، وتحدّث معي بلطف وجعلني أخجل من أجل والدي. من يفكر بأن يلومه على وفاة ابنه البِكر؟

قلتُ: ربّما، ولكن ربما لم يكن هناك شيءٌ بوسعي القيام به لمساعدته.

قالت: لا تقل هذا. ثمّ أرخت نظرها لأسفل.

- أكانَ ذلك عندما بدأ يعاقر الشراب؟ عندما خرج من السجن؟

في خاتمة المطاف قالت: أنت لا تعلم الأشياء التي حدثت. الأشياء التي فعلوها به. عندما خرج من السجن كان مختلفًا.. أنت وسعيد كنتما مجرد طفلين صغيرين. ثم بدأ حينها الشرب. لم يكن خطؤه. لقد آذوه. أعني أنهم ضربوه. حطّموا فؤاده.

- إنه يخرجُ للقاء النساء.. ويضربك.

أغمضت عينيها ثمّ تنهدت بحسرة. انحنت كي تضبط المصباح، وأخفضت رأسها باتجاه الضوء بحيثُ تبدّى وجهها مصقولًا بِصلابة معدنية.

- أنت تريد إظهار والدكَ بمظهر الوحش، أليس كذلك؟ ألا تفهم؟

اصطدمَ بظروف صعبة للغاية. ما لقيهُ كانَ كثيرًا جدًّا بالنسبة له. السّجن وسعيد.

قلتُ: ما زال يضربك.

صرخت قائلة: «ماذا تريدني أن أفعل؟ لماذا أنت هكذا؟» وحدّقت بي للحظات. تنهدت، ثمّ ابتسمت وأردفت بالقول: إنه دورك الآن، تصرّف بما يليق. يجب ألّا تُلقي بالًا للأشياء التي أقولها. إنني أحمدُ الله على ابنٍ مثلك. تجاهل المرأة العجوز فقط.

- لستِ بعجوز.

قالت: أشعرُ بأنني عجوز.

قلتُ: تشعرين بذلك بسبب الشّيب. سأشتري لك صبغة شعر، وسوف ترين كم ستبدينَ شابّة.

افترّ ثغرها عن ابتسامةٍ عريضة وقالت: إيّاك! سيظنّ الناس أنّ ثمة رجل يسعى ورائي. ثمّ جرّت نفسها ووقفت على قدميها، وهي تئنُّ وتغمغمُ حول الأطفال الذين يتسكعون في الشوارع طوال ساعات الليل وكأنهم ليس عندهم بيوت. لم تعجبني نغمة هؤلاء «الأطفال» لكنني تغاضيتُ عن الكلمة. ذهبت إلى السقيفة الصغيرة التي كانت بمثابة حجرة مؤنٍ لنا، وخرجت بإناء الطبخ المحتوي على بقايا الموز.

قالت: إنهم يُحدِثون الكثير من الضوضاء في الخارج. انبعثت أصوات السُّكارى الصاخبة من مبغى الرجل العجوز. كانَ أحدهم يضحكُ ضحكا هيستيريًّا على صوت موسيقى مزمار القربة. أومأتُ برأسي، وشرعتُ أتناولُ كتلة ثقيلة مرصوصة من الموز الخاثر. راقبتني وأنا ألاقي صعوبة بالأكل حينًا من الوقت، وكانت ترمقني بدهشةٍ متزايدة. قالت: أحضِر كأسًا من الماء قبل

أن تختنق!

رحتُ إلى الصنبور، وكوّرتُ كفيَّ تحت الماء الجاري، وصببتُ الماء في فمي. شعرتُ بِالثقل يهبط إلى معدتي. عدتُ إلى القِدر خاضعًا مُمتَثِلًا. هبَّ نسيمٌ قويٌّ مفاجئ، فارتعشَ نور المصباح. وأحسستُ أنها نظرت إلى الأعلى.

قالت: سيكون هناك مطر الليلة.

قلتُ: أجل.

- تولّانا الله برحمته.

أخذت القِدر مني عندما ما عاد بوسعي تناول المزيد. سكبت فيه شيئًا من الماء وتركتهُ ليُنقَع طوال الليلة. ولمّا عادت سألتني: فَإذن ماذا ستفعل؟

- أريدُ أن أدرس.. لكنّ المشكلة هي المال..

كانت هناك صرخة مفاجئة في الظلام، وهرعَ كلبٌ عبر الحوش، واختفى في العتمة.

- ربما ينبغي عليّ الحصول على وظيفة.

قالت: أعتقد أنه بإمكاننا العثور على المال. إن كنتَ تعرف ما الذي تودُّ القيام به.

- نعم يا أمّاه. وابتسمتُ لها، وفي نيّتي التسامح والصبر على تفاؤلها الأمومي. حيثُ توجدُ الإرادة يكون الطريق، وكلّ هذا هراء. لاحت على وجهها ابتسامة واسعة إذ تكهّنَت بتفكيري، وَبدَت للحظة سعيدة حقًّا.

قالت: خالك أحمد، أخي، في نيروبي. سنذهبُ إليه، إنه رجلٌ ثريٌّ الآن. أنتَ من عائلته. يجب أن يساعدك.

- مضحك للغاية. أنتِ تمزحين!

على الرغم من أني لم أتوقع منها الإتيان بأي شيء مثير للعجب، إلا أنني ما زلتُ أشعرُ بخيبة الأمل لأن الخال أحمد هو كل ما أمكنها التفكير به.

سَألَت ضاحكة: وَمَن يمزح؟ إنه مدينٌ لي بالمال. عندما ماتَ والدنا، باعَ خالك أحمد المتجر والأعمال التجارية واحتفظَ بكلّ شيء. وقال لي إن احتجتُ مالًا يمكنني الذهاب إليه في أيّ وقت. لقد سرقني ليصنع من نفسه رجلًا ثريًّا، لذلك سوف نستردُّ أموالنا الآن.

- وكيف ستستردّينه؟ سوف تسرقينه؟

قالت وهي ما تزال ضاحكة: بإمكاننا ذلك. حسنًا يمكننا المحاولة على أية حال. ما خطبك؟ إنها فرصة.

- أمّي، ما الفرصة التي تتحدثين عنها؟ إنه لا يعلم حتى إن كنت على قيد الحياة. إنه لا يُكاتِبك. حتى أنه لم يرسل لك رسالة واحدة.

ردّت بِعناد: إنها فرصة. يجب أن تذهب وتقابله في نيروبي. سوف أقول لأبيك أن يكتب له ويشرح له الأمر. سيكون صعبًا، أعني والدك، لكنه سيقوم بالأمر. ثمّ سوفَ تذهب إلى نيروبي...

- وسيجدني خالي أحمد فتىً لا يُقَاوَم.

ضحكت ضحكة مدوّية وقالت: سوفَ يحبّك.. أنا أعرف أحمد.. إنه يحب أن يواجهه الناس ويخبرونه بما يريدون.

واقترحتُ أن أقول له: لقد أتيتُ من أجل مال أمي.

صفقتني على ركبتي وقالت: اذهب إلى النوم الآن. سوف أتحدث مع أبيك غدًا. وعليكَ أن تراجع دروسك بعمق وتركيز، وأن تجتاز امتحاناتك.

في كل ليلة تختفي، وعندما أسألك أين كنت تقول بأنك ذهبت للتمشّي. ستجلب معكَ إلى البيت ذات يوم فتاة حبلى.

بلى يا أمي.. أنا تيس أحراشٍ كبير.. شعرتُ بها في العتمة تعود مرة أخرى إلى الحصيرة، وتتموضع عليها بانتظار عودة أبي إلى المنزل.

رقدتُ على المرتبة في الممر. خلال النهار كانت حزمة الكابوك[1] محشورة في الفراغ أسفل خزانة الطعام. في الليل سحبتها، مزودة مع قطعة قماش تُستخدم للفراش، وبسطتها فوق المرتبة. تقلبتُ على الجانب الآخر كي أحاول القراءة في ضوء اللمبة الكهربائية في الممر. كانت ثلاث غرف في المنزل مزودة بالكهرباء، لكن لم يكن يُسمَح لنا إلا بالمصابيح الضعيفة، إلا إذا كان لدينا زوّار.

كانت من حولي علامات الخراب. الأرضية مُثقَّبة، والخرسانية متهالكة. وكانت الحوائط المطلية بالدهان الأبيض ملطّخة ببقع الشّحم والدهون. بينما كانت خزانة الطعام تعجُّ بالصراصير، التي تخرجُ في الليل جائعة وتجوب المنزل والفِناء على هواها. صحوتُ من الكابوس على وقع خربشة أرجلها على وجهي. لقد عشتُ لِسنوات مع هذه القذارة، ولكن الآن باتَ من الصعب القيام بأبسط الأشياء دونما القلق بشأنه. كانَ عليّ أن أُجبِرَ نفسي على الدخول إلى الحمام، حيث كسا العفن الأخضر اللزج الأرضية بأكملها. وكانت الجدران في غرفة المؤن مغطّاة بأبواغ الفطر الأسود، وانتشرت عبرَ

---

(1) الكابوك: kapok قطن وألياف نباتية تُستخرج من شجرة الكابوك المعمرة، وهي شجرة سريعة النمو، وتُعتبر من أطول الأشجار بالعالم، مقاومة للجفاف ومقاومة للطفيليات، يُستخرج من بذورها زيت يُستعمل في صناعة الصابون، وثمارها تنتج القطن وتُعتبر من أجود أنواع القطن يستخدم للمراتب والمخدات واللحف، موطنها آسيا وأفريقيا، وتنمو في المناخ الإستوائي.

عوارض السقف شلل قذرة من شبكات العنكبوت القديمة. لطالما اشتكت زكية من القذارة وبشدّة، ولكنها كانت ترفضُ دعوة أمي لفعل شيء حيال ذلك. ما من أحد منا فعل شيئًا حيال ذلك.

في كلّ ليلة يأتي البعوض. بِقسوةٍ لا تُخطِئ يأتي إلى جلد الأذن الرقيق. ومع ذلك، وعلى الرغم من أني كنتُ أنام والملاءة إلى ما فوقَ رأسي، إلا أني لم أنجُ من الشعور بأن أفواهها الطويلة الساق تثقبُ الملاءة وتشرب من دمي.

الأيام الأخيرة التي سبقت الامتحان كانت مليئة بالقلق من الفشل وبأحلام سخاء خالي أحمد. كانَ من بين الطلاب مرضى بالفعل، البعض منهم سوفَ يُنقَش اسمهم في الأسطورة لأنهم درسوا بجدٍّ أو تناولوا كثيرًا من المنشّطات ليبقوا مستيقظين. عشيّة الامتحانات لم أستطع النوم. سمعتُ صوت أمّي في الفناء. كانَ أبي ما يزال في الخارج.

وكانت لحظةٌ ظننتُ فيها أنني ما زلتُ أحلم، إلّا أن الضربات على كتفي كانت حقيقية بما فيه الكفاية. كانَ انتشال نفسي من صفاء الحلم إلى التشوّش الذي خيم عليّ، عمليةً بطيئة.

همست أمي: تعالَ إلى الخارج.

لحقتُ بها إلى الخارج، متوقعًا أمرًا ما لهُ علاقة بوالدي. كانَ وهجُ مصباح الشارع منتشرًا في الفناء، لم يكن كافيًا لإنارة أي شيء لكنه كفيلٌ بتبديد ظلال الليل الحالك. سعلَ رجلٌ في العتمة، ووثبَ الذعرُ إلى ذهني. كانت والدتي تتلمّسُ المصباح. في النهاية، قَدَحت عودَ ثقاب، وأضاءت الشعلة فوقَ جسدها المرتعش، وغمرت المكان من حولها بالضياء.

سألتُ: من هناك؟ وقد حاولتُ تنحية نبرة التحدّي والمواجهة في صوتي، لأنني كنتُ مُتيقنًا بأن أبي هو من كانَ يدنو في العتمة. كانت القهقهة المطوّلة

هي الإجابة الوحيدة التي تَلقيّتها.

قالت والدتي بصوتٍ مرتجف: تقدّم إلى الضوء!

تَنهدَ الرجلُ لكنه لم يتحرّك. وبينما قرّبت منه أمي الضوء أكثر، اكتشفتُ بأنَّ الرجل هو خميس، أحد أصدقاء والدي. كانَ مستندًا على ركنِ المنزل، إحدى قدميه في الحوش، والأخرى في الزقاق. بذلَ جهدًا لرفع نفسه عن الحائط إلا أنه كفّ عن محاولته متنهدًا. وقال: يجب أن تأتي.

أغمضَ عينيه، ولم يبدُ عليه بانه كانَ ميّالًا إلى الشرح. عدتُ إلى الداخل لارتداء ملابسي، وخرجتُ مسرعًا شبه عار. كانَ خميس على الأرض ورأسهُ مخفيًا وراء زاوية البيت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

سألتُ أمي: هل قال أين هو؟

رفعت كتفيها مُستهجنةً وأشارت إلى خميس: اسأله!

كانت عيناه مغمضتين ولكنهُ كانَ يبتسم بِانتشاء. كانَ مجرد رجل صغير القدّ هزيلًا ومن السهل جرّه إلى أعلى. استجابَ لي عندما رفعته ولكنه كانَ مرتخيا، وتفهّمتُ إغراء ضرب الناس وإيذائهم في مثل هذه الحالة. فاحت منه رائحة شيء فاسد، شيء مهمل. دمدمَ بابتهاج عندما تعرّف إليّ. تمايلَ أمامي، وقد أغمضَ عينيه مرة أخرى.

سألته: أين هو؟

هزَّ رأسه كما لو كانَ يعاني من صعوبة في الفهم. قال بمشقة، كما لو أنه يتحدّث بفمٍ ممتلئ: إنه يثير المشاكل. يريد القتال، سوفَ يُضرَب، إنه سكران.

قالَ كلمته الأخير باشمئزاز، ثمّ ضحكَ وصفعَ جبهته مِن عبثية الموقف. هزّ رأسه مجدّدًا وطَفِقَ يبكي. دفعتني أمي جانبًا وَلَطَمت خميسا. دفعتها إلى

الخلف. كانَ خميس ينشجُ كما الأطفال.

وسألتهُ ثانيةً: أين هو؟ ثبّتهُ من كتفيه كيما أوقفُ هذا التأرجح العنيف الذي رافقَ نحيبه.

صاحَ بصوتٍ بدا صغيرًا مثل صوت طفل: في مبنى سوود.

قلتُ لأمّي: من الأفضل أن أذهب. كانَ وجهها متصلّبًا من الغضب. وبدت وكأنها بانتظاري لأقول شيئًا ما، أن أشمَت أو أن أتذمّر.

- هل تعلم كم الوقت الآن؟ عندك امتحانات غدًا.

- بلى أعلم، ولكن عليّ الذهاب.

تأوّه خميس ونحّى يدي جانبًا بينما كنتُ أساعدهُ كي ينهض عن الجدار. ولكن مرأى أمي وهي تحمل قطعة خشبٍ مسنّنة أفزعه بما يكفي لكي يتحرّك. مشى قدّامي مترنّحًا، وهو يتمتم ويبصق. ثمّ تركتهُ في السّاحة. عندما أدرك ما كنتُ أقوله، سمحَ لنفسه بالانزلاق على الأرض بارتياح. انتابتني رغبة بتفتيشه كي أرى ما إذا كانَ بحوزته أية نقود. كنتُ قد سمعتُ قصصًا عن مَحافظ ملأى بالأموال وجِدَت في جيوب المخمورين النائمين. فجأة أطلقَ خميس ريحًا بصوتٍ عالٍ. وسرتُ مبتعدًا على عَجل عندما رأيتهُ يجتهدُ لتكرار فِعلته.

كانت ليلةً دَهماء، والخواء غريبًا ومُخيفًا. وكانَ في الجوّ شيءٌ من الرطوبة، ورائحة نفّاذة في الهواء. كانت الأمطار قد بدأت بالهطول، ولكن على نحو مبدئيٍّ ومتقطّع. في أي يوم قد تهطل الأمطار الفعلية. بلغتُ الواجهة البحرية وسلكتُ الرصيف العتيق المرصوف بالحصى الممتد على طول الطريق وصولًا إلى أحواض السفن. اصطخاب البحر غطّى على إيقاع خطواتي المخيف. كان حرّاس الجمارك يحومون بالقرب من بوابة المرفأ. ظننتُ أنهم سوف يُوقِفونني،

إلا أنهم حملقوا بي دونما اهتمام وتركوني وشأني. كانَ ثمة ممشى على طول السياج الشائك الذي يطوّقُ منطقة الميناء. مررتُ بجوار أهرامات الأكياس والصناديق، لعبنا هنا عندما كنا أطفالا، صنعنا منها مخابئ ومغارات.

تفرّع الطريق عن السور واتّجهَ صوب المستودعات التي وقفت آنئذ صامتة وضخمة في خواء الليل. ما وراء المستودعات كانَ هناك دغل من أشجار المانغو. وفي الفسحة ما بين أجمة أشجار المانغو والمستودعات كان ثمّة مبنى قديم واطئ، محاطًا بقطع من الخردة انتُشِلَت من مكان آخر وسُحِبَت إلى هنا. هذه هي بؤرة سوود، قذرة حقيرة وسيئة السمعة، تتساهل معها الحكومة لأنها تستقطب من هَزمتهم الوقائعُ والأحوال من ذي قبل.

كانَ على درجات السلّم رجلان مستلقيان باستهتار. تحرّكا لدى رؤيتي مقتربًا. لمّا دنوتُ أكثر، استرخيا مجدّدًا، والابتسامة تعلو وجهيهما. وقفتُ على مسافة معينة من السلّم. تقدّم أحدهما نحوي، وكان مرتديًا قميصًا بلا كُمّين مفتوحًا حتّى سرّته. بدا الرجل الآخر أكبر سنًّا. ارتكزَ على الحائط وراحَ يمسّدُ لحيته المرقّعة. كانَ جليًّا على كليهما أنهما رجلان فظّان كريهان، مُتبرّمين من معيشة الكفاف التي يعيشانها مدى الحياة. الرجل الذي تقدّمَ نحوي أمالَ رأسهُ، وأشارَ بذقنه إليّ.

قلتُ باستكانة: جئتُ من أجل أبي. أعتقدُ أنه هنا في الداخل.

ضحكا. أعتقد أن طريقة كلامي بدت طفولية. تحرّك الرجل الأكبر سنًّا بسرعة، وهبطَ السلالم مُقعقعا. تراجعتُ بضع خطوات، مشدود الركبتين متأهبا للقتال، وقلبي يخفقُ بقوّة. وقفَ فجأة وفَطِنتُ إلى أني كنتُ رافعًا قبضتيّ. حدق في قبضتيّ وابتسم، ثمَّ أشارَ لي بيدهِ أَن اذْهَبْ.

وقال: هيا عد إلى بيتك قبل أن أحشر عضوكَ الصغير في فمك. هيا أسرع قبل أن أغيّر رأيي، أيها الخنزير اللعين! ابتعد من هنا!

أخفضتُ ذراعيّ ببطء، كما لو كنتُ في محاورة داخلية حولَ الحكمة من تَساهُلٍ كهذا. ضحكَ الرجل الأصغر، ثمّ أومأ إلى رفيقه. وَسَرت في أوصالي رِعدة. تحدّثَ الرجل الأصغر مع صاحبه بغضب وبكلامٍ مُهين، ناعتًا إياه بآكِل القذارة ولحوم البشر. قال: لقد جاءَ ليأخذ والده. أنت لا تعرف معنى هذا أبدًا، لم يكن لديك ابنٌ قط. دَع الصبي وشأنه. وبدا في نظري الآن رجلًا طيّبًا، وَهمجيًّا نبيلًا. ثمّ خاطبني بالقول: لا يوجد أحد هنا في الداخل، لربّما كان هناك، في باحة الخردة تلك. والآن، انقلع من هنا، حسنًا؟

أومأ برأسه وغمز. حاولتُ تَبيُّنَ شكل إنسان ما بين مقاعد السيارات المحطمة، وهياكل الأسرّة المكسورة. كانَ هنالك ضوء كافٍ للرؤية، إلّا أن الظلال شوّشت المشهد. عثرتُ عليه مستلقيًا في أريكة مُصندقة نُزِعت منها حَشوَتها.

في البداية ظننتُ أنهُ مُصاب. كانت ساقاه ممدوتين في زوايا غريبة. أخفت ذراع الأريكة الضوء عن وجهه. لمستهُ من ذراعه بتردّدٍ، لكنه لم يتأتّ بأي حركة. كانَ ما يزال مُرتديًا سترته، وكانت عكازه مسنودة على الأريكة، كما لو أن أحدا ما وضعها هناك بعناية. حاولتُ أن أهزّهُ كي أوقِظه. صاحَ قائلًا: آه اللعنة، وهو يحاول الاستيقاظ متخبّطًا بذراعيه وساقيه. انحنيتُ إلى الأمام وصفعته بأقصى ما أستطيع، وشعرتُ بشيء من المتعة عديمة الشفقة حيالَ الألم الذي علمتُ أني ألحقتهُ بجسدهِ فاقد الإحساس. ضربتهُ من جديد، وشعرتُ بالخجل من المتعة التي منحني إياها ضربي له. ثمّ تأوّه.

صحتُ به: هيا، آن الأوان للعودة إلى المنزل.

هززتهُ هزًّا عنيفًا. انتفضَ مجددا وهذه المرة سقطَ على صدري. ثمّ أبصرني. كافحَ كي يجلس، كما لو أنه يسعى لإخفاء سُكْرِهِ عنّي. ومن ثمّ مالَ إلى الوراء ثانية وهو يبتسمُ بسخرية. وقال بتثاقل: «ها أنت ترى ما أنا فيه».

كانت من ورائي جَلبةٌ، فاستدرتُ لأرى رجلًا يزحفُ خارجًا من برميلٍ فولاذيّ ملقىً على جانبه. فاحت من الرجل رائحة البول. قالَ وهو يزحفُ على أربع: أنا رجلٌ قويّ.

قال والدي وهوَ يشيرُ بعكّازهِ إليه: لقد ضاجعتُ مؤخرته مرات عدّة. إنهُ يسقطَ على قارعة الشوارع ويضاجعه الأولاد الصغار.

سَكنَ الرجل على مهلٍ، وتداعى منبطحًا على الأرض. انثنى أبي إلى الأمام وبصقَ عليه. وما كانَ ذلك مهمًّا على ما يبدو. فقد ضحكَ الرجل وتدحرجَ، وتبدّى فجأة ضعيفًا للغاية. أحسَّ أبي بضعفه، فجاهدَ للنهوض على قدميه، وبدّلَ بين قبضتيه على عكّاز المشي. لففتُ ذراعي من حوله كي أحميه من الرجل. كانَ ملمسه مقزّزًا، مترهّلًا ورخوًا. قادنا مباشرة نحو الرجل الذي بدا آنئذ نائمًا. فجأة، وبقوّة غير متوقعة، انحنى أبي إلى الأمام، وأرجح العكّاز على ظَهْر الرجل. وههنا أفلتهُ. جاهدَ كي يستعيد توازنه، أخذَ نفسًا مفاجئًا ثمّ تقيّأ.

انتظرتهُ حتّى انتهى، وانتظرتُ وهو يئنُّ ويمسحُ نفسه، ولم أذهب إليه حتى بدا عليه أنهُ على استعداد للنوم مرة أخرى. استلزمَ الأمر وقتًا طويلًا لإقناعهِ بالتحرّك، وأحرزنا تقدّمًا بطيئًا. بدأت تمطر عندما مشينا عبر السّاحة. في البدء لم يكن هناك سوى بضع قطرات قليلة، ثقيلة ومتفرّقة، راحت تهبطُ على الجلد وتُطرطش بقوة. كانت بداية هطول الأمطار الغزيرة. خمّنتُ ذلك من حجم القطرات. كانَ المطر يزداد غزارة مع كل دقيقة، ويرشقُ أقدامنا بالتراب. سرعان ما باتَ يَسحُّ سَحًّا على رؤوسنا، وكان مُبهِجا ومُنعشًا بِحدّته. مشينا متعثّرين نحوَ ظُلّة أحد المستودعات. أحاطت رقعة كبيرة من الماء بغطائنا الضيق، وَانصبّت من السقف الخالي من المزاريب. سمعتُ أبي يتنفّس بصعوبة بجواري.

قلتُ له: سوفَ يرقصون في المدينة. على افتراض أنك مهتم.. أو إن كنت تأبه للأمر..

تمتم قائلًا: اللعنة.

تلمّستهُ في الظلام ووجدتُ ذراعه. جذبتها وانطلقتُ. أتي معي دونَ اعتراض. باتت دفقات المطر لاسعة وتنقرُ اللحم، وشعرتُ بأنَّ ذراعه تنزلقُ من قبضتي. أجلْتُ النظر من حولي لكني كنتُ قد فقدته. اللوطيّ التافه. سأفشلُ في امتحاناتي. من أمامنا كانت بوابة الجمارك، والمصابيح على جانبيها ألقت بأشعتها الواسعة على الأرضية. ناديتُ عليه بصوتٍ عالٍ، على أمل أن يسمعني في خضّم قعقعة انهمار المطر. بابا، أين أنت؟ يا بابا! أجابتني أغنية وربما كانت صرخة فرح. ركضتُ باتجاه الضوء، راجيًا ألّا أصطدم بأحد الهياكل الصدئة في أرض النفايات. رأيتُ السلك في الوقت المناسب للتوقف عن عجلتي واندفاعي بذراعين ممدوتين. ارتفعت صيحةٌ من ورائي وصِحتُ من حيثُ كنتُ. عندما رأيتهُ كانَ مُكشّرًا عن أسنانهِ، كانت ذراعاه مشرعتين لعناق المياه التي كانت تلفّنا. مددتُ يديّ إلى كتفيه وسحبتهُ نحوي. التصقَ بي وأخذَ يهمس بآياتٍ من القرآن.

الدرب الآن باتَ زلقًا للغاية، وكانَ علينا توخي الحذر أثناء المسير. وصلنا أخيرًا إلى الطريق المرصوف بالحصى، وكانت الأشعة الضوئية المنكسرة تمتدُّ بعيدًا من أمامنا وتنيرُ لنا الطريق. كانَ والدي شاردًا في مشهدِ المطر وهو يسّاقطُ عبرَ أشعة الضوء. شرعتُ أهرولُ كي أحثّهُ على اللحاق بي، بيد أنه نادى عليّ كي أتمهّل. صاحَ قائلًا: «لن يُضرّك شيء إن تمهلت». مشيتُ من أمامه، مُنتظرًا كل خطوة منه للأمام، واضطررتُ إلى العودة كثيرًا لأقنعهُ بأن يُعجّل. كانَ المطر قد صفّى ذهنهُ قليلًا، ولم يعد يترنح ويهوي مثلما فعل في بداية المسير. استدارَ ليلقي نظرة على الضوء مرة أخرى، وهو يمشي إلى

الخلف. تداعى رويدًا رويدًا كما لو كانَ يُلقي بنفسه بِتأنٍّ على سريره. استلقى في برك المياه، وهو يصفّقُ بيديه ويضحك.

غنّى: «منذ زمن بعيد». وقد جعلَ صوتهُ عميقًا أجشّ ومبحوحًا مثلَ شيخٍ عتيق يقرأُ بالتجويد. «عندما كنتُ مجرّد طفل صغير. وأبحرتُ في البحار بحثًا عن رزقي. غرقت سفينتنا في الشعاب المرجانية، وَسَبَحنا إلى جزيرة سقطرى. حيثُ احتجزنا الملك هناك أُسارى»...

قلتُ لهُ وأنا أنحني من فوقهُ مادًّا لهُ ذراعي: لم تذهب إلى أيّ مكان حتّى تغرق فيه.

نظرَ إليَّ للحظة، وما زالَ مُكشّرًا عن أسنانه، ويرمشُ كي يبعد المطر عن عينيه. وقالَ موجّهًا إليّ سبّابته مخاطبًا: - فيما مضى. كنتُ رجلًا شريفًا حسن السمعة. أتعلمُ ما حصل؟

قلتُ: دعنا نذهب إلى البيت. تعال يا أبي. عندي امتحانات غدًا.

قالَ بهدوء: إنهم على علمٍ بأمرك. أخبرت الجميع بأنك سوف تهرب بعيدًا.

تمسّكَ بذراعي بينما كنتُ أرفعه، ثمّ صاحَ عليّ: أيها الخائن اللعين القذر!

مشينا بصمتٍ على طول الواجهة البحرية، وتوقفنا مرة واحدة فقط كي يتبوّل والدي. كنا على وشك الوصول إلى المنزل عندما سارَ بمحاذاتي واعتمدَ على ذراعي.

قال هامسًا: ها هنا أنسب مكان لك. أخبرتُ الجميع بأنك ستهرب. سوفَ يضعونكَ في السجن، أيها الخوّان اللعين. أنت نافعٌ جدا بالنسبة لنا، بإمكان أي شخص ملاحظة ذلك. سوفَ يضعونكَ في السجن!

قلتُ: لا يهمّ.

وقد عنيتُ بذلك بأن السُّلطات كانت تعرف بأني أريدُ المغادرة. فلقدُ تقدّمتُ بطلبٍ للحصول على جواز سفر.

فقال بصوتٍ عالٍ ينضحُ بالسخرية: «يا ولدي العزيز، الشاب الشجاع النابغة. أنت لا تخشى شيئًا. أيّ ابنٍ أنت! يا من يكرهُ أباه وأمه وقومه والله»... كانَ بمقدروي رؤية الكراهية في وجهه. كانَ الماء يتقاطر من شعره. كنّا في الأرض العراء تحت شجرة البمبوزيا. وكان المطر قد بدأ يخفّ. أفلتَ ذراعي ومشى مبتعدًا على نحوٍ متعرّجٍ عبرَ الساحة. وقفَ قدّام ماخور الرجل العجوز وقذفه بثمرة توت علّيق كبيرة. انتظرني حتى أدركته، ثمّ تركني أمرّ. وخزني في ظهري بعكّازه مرة، ومرّة أخرى. تركتهُ يمضي قبلي عبر الزقاق. سمعتهُ وهو يشتم عندما تزحلق. وثبتُ من فوق الجسد شبه المنبطح، ثمّ انعطفتُ للدخول إلى الفناء الخلفي.

شرعتُ أخلع ملابسي مذ كنتُ في الخارج. ظهرَ عندَ زاوية البيت، وكانَ ظلّه يدنو ويتماوج في العتمة. أتت أمّي إلى الباب وهي تحملُ مصباحًا فوقَ رأسها. نظرت إليّ أوّلًا، وراحت تنقّلُ عينيها على كامل جسدي المبلل شبه العاري. ابتسمتُ على الطريقة التي رازتني بها وعلى تقييمها لي، وبدا أن ذلك قد طمأنها، ذلك أنها أومأت لي برأسها وأرجحت المصباح صوبَ والدي. كانت عيناهُ مُغمضتين، وكانت ثيابه مُغطّاة بالوحل. وضعت المصباح بجانب الباب، وعاودت الدخول إلى المنزل. مشى مترنّحًا من خلفها، وهو يدمدمُ بضحكةٍ مكبوتة.

***

الفصل الثالث

مرّت أيام الامتحانات في جوٍّ ضبابي مشوّش. لقد أدركنا جميعنا أنها ذروة سنوات البؤس، ليس لأننا ميّزناها على أنها عتبة لأي مستقبل رغبنا به وتمنّيناه لأنفسنا، ولكن أيضًا لأن كلّ واحدٍ فينا كانَ يأمل من خلالها التوكيد على مكانته وقيمته. كلّ شيء تآمر علينا لإغرائنا بهذا الموقف العبثيّ. كنّا أبطال المرحلة، نواجه اختبارات الحياة والفِكر، ونتصارع مع عدوٍّ غير عقلانيّ يسعى في كلّ مناسبة إلى نصب الفِخاخ لنا وخداعنا. بعد كلّ جلسة، كنّا ننطلقُ من قاعة الامتحان في جسدٍ واحد، مثلَ فدائيين عائدين من المعركة، نجوبُ الشوارع ونستعرض أنفسنا كناجين من مراوغات المُمتَحِنين وأحابيلهم. شكّلنا على قارعة الطريق مجموعات مناقشة ملؤها الزهوّ والاعتداد بالذات؛ وتساءلنا هل ينبغي أن تكون الإجابة صواعد[1] أم هوابط[2]؟ ما من أحد ضحك علينا، مع أن المعلمين تظاهروا بالتسلية لرؤيتهم حماستنا المفرطة. جميعنا عرفَ الجوائز التي صارت متوفرة للذين نجحوا من قبلنا.

كانَ تبجيلنا لِعظمة هذه الأمور في ذلك الوقت مسألة عادة. سرت الشائعات حتى قبل انتهاء الامتحانات حتى بأن النتائج لن تُعلَن أبدًا. كانت الحكومة قلقة من رغبة الطلّاب الناجحين بالمغادرة، ومع مغادرة كثير من

---

(1) صواعد: رواسب كلسية متحجرة في أراضي المغاور.

(2) هوابط: رواسب كلسية متحجرة في سقوف المغاور.

الأشخاص بالفعل، كان النقص الحاد في المعلمين والناسخين والموظفين الإداريين في ازدياد. وانتشرت إشاعات تزعمُ بأن النتائج لن تُعلَن سوى لأولئك الذين أتمّوا عامين في الخدمة الوطنية الجديدة. في خضمّ الامتحانات، كان اهتمامي بهذه الأمور جديًّا ولكن مفصولًا. إذ كانت جزءا من المناخ المُسكِر من المكائد والسياسة والانتقام الذي جلبه الاستقلال.

وبعد أن هدأت حدّة الامتحانات، وتحوّلت أسابيع الانتظار إلى أشهر، باتَ معنى ما حُرمنا منهُ واضحًا. في أعداد صغيرة في البداية، استُدعيَ الطلاب إلى الوزارات الحكومية، وعُرِضَ عليهم وظائف إدارية برواتب مخفّضة. بينما استُدعِيُ آخرون إلى وزارة التربية والتعليم وعُرِضت عليهم وظائف مُدرس مُساعِد دونَ رواتب، مُنِحوا فقط تكلفة المصاريف والوعد بِمنحة دراسية في الخارج عندما تغدو النتائج معلومة. نُصِحَ بقيّتنا بالانضمام إلى الجيش. ذهبتُ إلى مكتب الهجرة للاستعلام عن جواز سفري. كانت وسيلة لتمضية الوقت. انضممتُ إلى طابور الانتظار ووصلت بعد ساعات إلى المنضدة، حيثُ أخبرني الضابط، دونَ الحاجة إلى مراجعة أي ملف، إنه لا يوجد شيء حتى الآن.

تحدّث أبي معي كثيرًا خلال شهور الانتظار الطويلة. كانَ الأمر كما لو أنّ العودة معهُ إلى البيت تلكَ الليلة قد رفعت عنهُ شيئًا من عبء الإخفاء. وقد كتبَ الرسالة إلى عمي، وهي مناشدة مطوّلة مُتشكّية إلى الرجل الكبير. قرأها عليّ قبل أن يرسلها، لافتًا انتباهي إلى موضعِ ذكاءٍ هنا وحذاقةٍ هناك. قرأها بتباهٍ وتبجّح، مانحًا إياها بالصوت والتعابير القوّة التي نَقصتها على الورق. ذكّرَ خالي أحمد بالوعد الذي قطعهُ لأمي، أختكَ العزيزة، وبقولهِ إنها إذا احتاجت المال من نصيبها في المتجر، فسوفَ يكونُ متاحًا دومًا. والآن ابنها على استعداد لتكريم اسم العائلة وتشريفه، فإذن هَلّا سَدّدَ الدَّين من فضله؟ ووقع الرسالة باسم: أخوك.

مرّت أربعة أشهر تقريبًا قبل أن نتلقى أي ردٍّ. في ذلك الوقت كان من الخطورة بمكان الإتيان على ذِكر موضوع الرسالة في حضور أبي. إذ كانَ في ذلك مدعاة لإحدى نوبات غضبه. عندما أتى الردّ كانَ غامضًا ومتضمّنًا العنوان بطريقة كيّسة دَمِثة، ودعوة لي لقضاء عطلة في نيروبي. كفَّ عن شتمِ خالي أحمد ووصفه بالبخيل آكل المال الحرام، وما عاد يدعو الله بأن يُنزِل طاعون الدمامل على السارق. افترضَ أن المشكلة انتهت أخيرًا. كانَ المال بِشكلٍ أو بآخر في طريقه إلينا. وقال: لا يمكنك التوقع منه أن يقول نعم سأعطيكَ المال. لن يكون الأمر مهذَّبًا. هذا يكفي. واقترحَ علينا أن نخرج ونحتفل.

في بعض الأحيان كان يَتندّر على الليلة التي عُدنا فيها معًا إلى المنزل، ويخبرني هامسًا كم كانَ ثَمِلًا مع أنني لم أنتبه. وقال لي كم كان مُتعبًا تلك الليلة، لأنهُ قضى المساء في فعل أشياء بذيئة لا ينبغي أن تُشرَح لِشاب في مقتبل العمر. فضحكتُ كما كانَ مُتوقَّعًا مني.

في البيت كانَ يُشار إليّ بسخرية على أنني الرجل الذاهب إلى نيروبي. ابتاعت أمي من البائع الجائل أشياء ظنّت أنها ستكونُ مفيدة لي في سفري إلى نيروبي، أو أنها ستُعجبُ الخال أحمد كهدية. لم يأتِ أحد على ذِكر جواز السفر. حجزَ خالي أحمد من أجل العطلة في شهر حزيران، بعد شهرين من وصول رسالته. أجريتُ زيارات يومية إلى دائرة الهجرة، وانضممتُ إلى طوابير الانتظار طوال اليوم، وتلقيتُ الردّ نفسه.

ذات مساء، عندما بدأتُ أيأس من السّفر بالمطلق، استدعتني زكية إلى الخارج. مشت نحو العتمة خلفَ ماسورة المياه العمودية في الفناء وانتظرتني هناك.

قالت: بوسعي التحدث مع شخص ما بشأن جواز السفر.. إن أردتَ

مني ذلك..

لم أستطع رؤية وجهها لكنني سمعتُ نبرة الخجل في صوتها. لم أكن أعرف بأن الأمور قد وصلت إلى هذا الحدّ. كان السؤال الذي قفزَ إلى فمي: من هو؟ لكنني تمكنتُ من كبح نفسي من التلفُّظ به.

أجبتها: لا، الأمور بخير. سوفَ يعطوني إياه في النهاية. سأستمر في الذهاب إلى هناك حتى يعطوني إيّاه..

ضحكت، إلا أن صوتها كان حزينًا يخالطهُ الشفقة على الذات. وقالت: أنتَ طفلٌ في بعض الأحيان.. ما كان عليّ أن أكلّفَ نفسي عناء سؤالك..

- زكية...

أجابت بِحدّة: لا، لا تقل شيئًا.. لن تعرف حتى ما الذي كنت تتحدث عنه.. إنني أقابل الرجل على أية حال.. وفكرتُ بأني سوف أسأله من أجلك.. ولكن إن كنت غير راغب بأن أفعل...

وقفنا صامتين فترة طويلة.. لم أعرف ماذا أقول لها.. أعتقدُ أنها كانت تنتظر إغراء ما لإقناعي، وكنتُ أحاول التفكير في طريقة لعدم إيذائها برفضي.. ولا لحظة كنتُ على استعداد لقبول معروف من شخص فظَّ أساءَ مُعاملة أختي مِن قَبل.

قالت في النهاية: كنتُ أحاول المساعدة فقط.

سمعتها تبتلع ريقها محاولة ألّا تبكي. كانت قد بلغت لتوّها عامها السابع عشر. عادت أدراجها إلى المنزل. ناديتها لكنها تجاهلتني.

في تلك الآونة مرّت الأيام ببطء شديد. حلّت الأمطار ومضت، وعاد موسم الجفاف. كانت الأعشاب والشجيرات مزهرة في كل مكان، حريصة على تحقيق هدفها قبل أن تحوّلها الشمس إلى رماد.

كان الرجل العجوز صاحب بيت البِغاء قد اشترى لنفسه تيسًا. أبقاهُ مربوطًا في الزقاق بين بيته وبيتنا وقلّما أطعمه. ولمّا جنّ جنونه من الذباب والجوع راحَ يهاجم كل من يتحرك في نطاقه. وكانَ قد أتلفَ كل الأعشاب في متناول حبلهِ الطويل، والنباتات التي كانت تتشبّث بالجدران بقوّة لسنوات. أحيانًا، وفي غمرة اليأس المطلق كانَ يأكل ملء فمه من التراب.

أتى التيس ليحتلّ مكانة مهمة في منزلنا. تساءلت والدتي بصوتٍ عالٍ عمّا إذا كان قد جُلِبَ لإضفاء تنوع على طقوس العربدة في المبغى. إنه يجلس هناك ويراقب الحيوان وهو يتضوّر جوعًا. تخلّت جدّتي عن كل شيء وكرّست ساعات يقظتها لمشاهدة الحيوان البغيض. جلست إلى نافذتها محاولة التغلّب على تحديق التيس بإرادتها. وأما والدي، الذي أكنّ له التيس كراهية غريزية، كان يوبّخه ويعامله بعنف. في بعض الأحيان كان يخطو عبر الزقاق المعتم ممسكًا بسكّين المطبخ، وكان يلوّح بها مهدّدًا في وجه التيس، مُتمتمًا بالشتائم واللعنات. وكانَ التيس يحاول بطريقة محمومة أن يقطع الحبل كي يتمكن من مهاجمة والدي.

كانَ الرجل العجوز راضيًا ومستمتعًا بكل ذلك. جلسَ بجوار نافذته، مرنّقًا النظر عبر الزقاق، وراح يراقب ثغاء التيس الغاضب باهتمامٍ صبور. اعتادت جدتي تجميع بولها في دلوٍ تضعه أسفل السرير. في يوم من الأيام أخذت دلوها إلى الزقاق وألقت بالسائل اللاذع على التيس. على سبيل التنويع، كانت تملأ أحيانًا أكياسا ورقية سميكة بالبول وترميها على الحيوان.

لا الجوع ولا الاضطهاد قلّلا من شراسة التيس. هاجمَ كل شخص كان مجنونا بما يكفي لعبور الزقاق الممرّغ بالبول. كان والدي آخر من استسلم، وشعرَ بأن الأمر يتعلق بمسألة كبرياء رجوليّ. في لحظة إحباطه، ادّعى أنه رأى الرجل العجوز على يديه وركبتيه بين ساقي التيس. ما الذي كنتَ

تفعله هناك أيها العجوز المنحرف؟ هل كنت تحلبه؟ بدأ الأمر يسترعي انتباه الأطفال في الحيّ. صار والدي شخصية مثيرة للسخرية لدرجة أن بعض أفعاله بدأت ترتدُّ على سعيدة التي آثرت البقاء في المنزل هربًا من المضايقة. نأت زكية بنفسها عن كل هذا، عالقة في اهتياجها العاطفي، وما شاعَ عنها من اختلاطٍ وتحرر جنسي قد منحها آنئذٍ نوعًا من الجاذبية والسحر. جلبَ الأطفال للتيس ما استطاعوا من طعام، وأمضوا ساعات يراقبونه في مزارهِ المُعتِم. جدّتي، التي تسارع تقدّمها نحو الشيوخة تسارعًا كبيرًا، حوّلت حقدها إلى الأطفال. هرعت إلى الخارج حيثُ كانوا مجتمعين ورشقتهم بدلو من الماء النفّاذ فتفرقوا.

لم يعد من الممكن إخفاء أفعال زكية عن والدي. إنهُ لا يتحدث الآن مع زكية أبدًا، ولا ينظر إليها أبدًا. خشينا من اليوم الذي سيفقدُ فيه سيطرته على نفسه ويتهجّم عليها في إحدى نوباته الجنونية. كانَ الأمر كما لو أن مسًّا من الجنون أصابها. كانت سيئة المعشر، يَصعُب التعامل معها. منذ رفضتُ عرضها بمساعدتي صارت تتجنّبني. وكانت تُسكِت أمّي بلا شفقة حالما تستهلّ الكلام. كما لو كانت تخشى التوقف، زجّت بنفسها في علاقات قذرة ومفتوحة مع رجال ذوي سُمعة مريعة. راقبت عِداء عائلتنا مع التيس بذهولٍ وعدم تصديق.

ضجِرتُ. وسئمتُ رحلاتي اليومية إلى مكتب الهجرة. مللتُ من قراءة الكتب ذاتها، والمسير في نفس الطرقات. كانَ شهر رمضان المهيب يقترب، مع جوعه اليومي وساعات نهارهِ البطيئة. عندما حلّ الشهر جَنَحت المدينة بأسرها إلى النُّعاس، وأغلقت المتاجر أبوابها، ونامَ الناس طوال اليوم قدر استطاعتهم، مُحاربين الجوع بالنسيان. وبقدوم الليل، كانت الحياة تبدأ من جديد بنوعٍ من الانغماس والنَّهم والجنون. انتفخنا بالطعام الذي قضينا يومنا

نحلمُ به. طافَ الناس في الشوارع بحثًا عن الأمور المثيرة، وظلوا في الخارج حتى ساعات مبكرة من اليوم. لعبَ الأطفال حتى التّعب لعبة الغميضة أو لعبة شرطة وحراميّة. كان حينذاك وقت المحادثات الطويلة، التي تمتدُ بعيدًا في قلب الليل، وقت ألعاب الورق بلا نهاية، وقتُ المغازلة والتودّد. كان الجوع في النهار هو الذي جعلهُ وقتًا للألم. قصدَ الله من خشونة رمضان أن يُعلّمنا الانضباط الذاتي، ولكن عوضًا عن ذلك كانت الأمزجة شديدة التوتر خلال النهار، وكانَ الإفراطُ يعقبُ الحِرمان في كل ليلة.

ظللتُ بعيدًا عن مكتب الهجرة والجوازات خلال الأيام الأولى من شهر رمضان، بينما كانَ جسمي يعتاد البقاء دونَ طعام. عندما وصلتُ إلى المنضدة، ابتسمَ موظّف الاستقبال لرؤيتي ثانيةً وهزّ رأسه.

قلتُ: أريدُ رؤية ضابط الهجرة. ودونما انتظار ردٍّ رفعتُ غطاء المنضدة القلّاب، وسِرتُ قُدمًا. لم يتأتّ الموظف بأي حركة لإيقافي. اعتمدَ على المنضدة وأخذ يراقبني وأنا أجتازُ المقاعدَ سريعًا في طريقي إلى المكتب. كنتُ أعرف مكانه بالضبط، فلقد رأيتُ الرجل يدخل ويخرج منه مرات لا تُحصى. طرقتُ الباب ودخلت. كانَ اسمه عُمر شينغو. في وقتٍ من الأوقات كان لاعب كرة قدمٍ شهيرا، واليوم هو مشهور بِفسقه وفجوره. شرعتُ في شكوى غاضبة دونَ مقدمات، دون أن أنظر إليه حتى. حاولَ ردعي مرة أو اثنتين: من أنت؟ ارجع إلى المنضدة. أين تحسبُ نفسك؟ دفعتهُ جانبًا، وكنتُ سأضربهُ بشيء إن حاولَ طردي. عندما ركّزتُ في وجهه المتعجرف المهزول، صرتُ مقتنعًا بأنه الرجل الذي كانت تفكر فيه زكيّة عندما عرضت عليّ المساعدة.

في الآخر المطاف، قال لي وهو يبتسمُ مهزومًا: تفضل بالجلوس.

- لا أريدُ الجلوس، أريدُ حواز سفري. أنا آتي إلى هنا كل يوم...

قال وهو يرفعُ يده لإسكاتي: أعلم، أعلم، قل لي ما اسمك وسوف أُحضِر ملفّك.

كنتُ أراقبُ وجهه عندما أخبرتهُ باسمي. دوّنهُ ومضى بعيدًا. عندما عاد كانَ يبتسم. قال: أنا أعرف عائلتك، ما أحوال والدك هذه الأيام؟ وبقية عائلتك؟

وقّع على الأوراق أمامي، وقال لي بأن أُعيد الملفّ إلى موظّف الاستقبال وأنا في طريقي للخروج. ولم يتمكن من كبح نفسه من التبجّح والتفاخر في آخر الأمر: بلّغ سلامي للجميع، ولأختيك أيضًا.

استغرقَ الأمر ثلاثة أسابيع أخرى حتى صارَ جواز السّفرِ جاهزًا، وذلك في عَشيّة العيد. ذبحَ الرجل العجوز ماعزه بمناسبة العيد، وأرسلَ ساقه لأمي. وبينما كان الجميع يحتفلُ بالأغاني بمناسبةِ انتهاء شهر رمضان وَبحلول العام الجديد[1]، كنتُ رفقة آمالي التي انتعشت وأنا أتصفّحُ جواز سفري الجديد. في غمرة البهجة العامة لذلك اليوم، نسيت زكية نفسها وذلك بأن تَركت أحد عشّاقها يوصلها بالسيارة إلى المنزل. كان والدي في المنزل، يستضيفُ قريبًا بعيدًا من تَنغا، ويقدّم له الضيافة من قهوة وحلوى. عندما غادرَ الضّيف، ورآهُ والدي متوجّهًا إلى محطّة الحافلات، عادَ مُسرعًا إلى المنزل، وقد استَشاطَ غضبًا. تلقّتهُ أمي عند الباب، وأخذت على عاتقها تحمّل وطأة غضبه. وقفتُ بالجوار، عازمًا على التدخل إن حاول ضربها. جلست زكية في غرفة جدتي، وفي عينها نظرة فارغة تَشي بِلامُبالاة يائسة، فَبدَت منبوذة أكثر مما كانَ سيجعلها الصراخُ والدموعُ تبدو.

في الردهة، أقسمَ أبي، بخطورةٍ ورصانة، بِاسمِ الله على الجميع أن يكونوا

---

(1) خطأ من المصدر: من المعروف أن شهر محرّم هو أول أشهر السنة الهجرية. بينما شهر رمضان هو الشهر التاسع في السنة الهجرية.

شاهدين على هذا الفعل، وإن لم تُقوِّم ابنتهُ زكية من سلوكها وتصرفاتها، فلسوفَ يرميها - والله وبالله - في الشوارع لتتدبّرَ أمرها بنفسها.

صرخت أمي في وجهه، وطلبت منهُ التراجع عن يمينه، وسألتهُ إن كانَ يعلم بأنّ قسمه هذا قد حوّل ابنته إلى عاهرة في الشوارع. نظرَ إليها أبي حينذاك، وقد استحالَ غضبهُ دموعًا. وقال: لقد فعلنا ما بوسعنا.

بَدَت الرحلة إلى نيروبي قابَ قوسين أو أدنى. حاولت أمي إعطائي أكبر قدر من المعلومات عن خالي أحمد. حكت لي عن رحلة السفر. ظانّة نفسها خبيرة، لأنها سافرت مرة واحدة. وكان ذلك كافيًا، إذ لا أحد في المنزل سافرَ أكثر من ثلاثين ميلًا من الساحل نحو داخل البلاد. وكان لديها قصص مُفزعة لتقصّها عليّ. أخبرتني عن مَشقّة السّفر على متن القطار، وعن عادات شرب الكحول لدى سائقي القطارات. حكت لي عن اللصوص والنشّالين المتربّصين في كل زاوية وركن من شوارع نيروبي. وأعطتني تعليمات حول الطريقة المثلى لتحيّة خالي أحمد، وعن الملابس المناسبة للطقس البارد هناك.

رَاقَبت جدّتي واستمعت باستنكارٍ عدواني خفيّ. أحيانًا، عندما تغدو غير قادرة على كظم حنقها من الضجّة التي كنتُ أُحدِثها، كانت تسألني عن أدائي في الامتحانات. كانت تلك طريقتها المجنونة للسُّخرية منّا على استباقِنا الخيرَ قبلَ حصوله. من دون التّيس كانت أيامها فارغة آنذاك.

لم يكن لدى أمي شكٌّ بأن خالي أحمد سوف يمنحنا المال. قلتُ لها إن حصّتها في المتجر لن تكون كافية لدفع تكاليف السّفر، وبأنني لن أتمكن من الحصول على ما يكفي من المال من خالي أحمد مالم ألمس حسن نيّته. لوّحت بيدها استهجانًا من حِيطتي الزائدة. وتمكنت من إقناعي في النهاية. يبدو من الغباء الآن أنني سمحتُ بحدوث ذلك، إلا أنّ التأثير التراكمي لتخيُّلاتنا أقنعنا جميعًا بأننا قد نكون على خطأ.

أُدرِجَ قانون جديد في ذلك الشهر، لإضفاء الطابع الرسمي على ما كانَ قيد الممارسة بالفعل، حيثُ سيجري تخصيص الوظائف والمقاعد الدراسية استنادًا إلى طريقة الحصص، وذلك وفقًا للتوزيع العِرقي للسُّكان. ولتسهيل ذلك، كانَ على جميع المواطنين تسجيل عِرقهم في مديرية السُّكان الجديدة. وبالتالي إصدار بطاقة هوية تُبيّن الاسم والعمر والعنوان والعِرق. وقد يؤدي عدم إبراز هذه البطاقة عند الطلب إلى الاعتقال الفوريّ.

تفشّى الذُّعر بين الناس الذين صار عِرقهم حالة مزاجية، أكثر من أي خاصيّة مميّزة. كانَ رفض الإجابة عن الأسئلة المتعلّقة بالعِرق بمثابة تحدٍّ للبريطانيين وتأكيد على الوحدة والسيادة القومية. والآن باتَ رفض الإجابة عن السؤال مخالفًا للقانون. عندما ذهبتُ لأسجلّ من أجل الحصول على بطاقتي، أعطيتُ اسمًا مُزيّفًا. كانَ تحدّيًا غير مجدٍ، لكننا لم ندرك في ذلك الوقت الحزم الذي اعتزمت الحكومة التعامل به إزاء مشكلة مجتمعها المختلط. اتضّحَ لي أن عملي التخريبي كان من الممكن أن يتسبّب لي بصعوبات جمّة. لا يمكن إجراء أيّ عمل رسمي دون بطاقة. لقد أفسد هاجسُ الخطر الذي قاسيتهُ وأنا أحمل تصريحَ مرور مزوّر كثيرًا من اللحظات الهادئة.

يوم الأحد الأخير قبل مغادرتي إلى نيروبي كنتُ مضطرًّا لاستخدام البطاقة. كلّ يوم أحد، كان من المتوقع أن يتطوّع جميع سكّان المدينة للعمل في الكتل الجديدة من الشقق السكنية التي كانت جزءا من مخطّط الحكومة لإزالة الأحياء الفقيرة. كنا قد أتممنا بالفعل مقرّ الحزب الجديد بنجاح بهذهِ الطريقة. حضرَ المئات من الناس يوم الأحد الأوّل، خائفين للغاية من عدم الحضور، وفي أذهانهم العُنف الذي أخرجَ به أعضاء رابطة الشباب الناس من المنازل والمقاهي ودور السينما. كانَ ذلك بالنسبة إلى مقرّ الحزب أولوية وطنية. من الواضح أن هذه الحملة كانت أقلّ إلحاحًا. الفوضى التي حصلت

في يوم الأحد الأول هذا، وفي الآحاد اللاحقة، أتاحَت للناس الابتعاد دونَ أن يَلْحظهم أحد. في خاتمة المطاف اضطّر الحزب إلى إرسال كوادره للتحرّي عن العالات والطُّفيليين وإخراجهم من منازلهم، ومن ثمّ سَوْقهم إلى الخارج للعمل من أجل الأمّة.

يوم الأحد الأخير قبل مغادرتي، قام مسلّحو الحزب بحملةِ تفتيش من بيت إلى آخر. وحرصوا على عدم التمييز على أساس العمر أو الصحة. النساء العجائز والأطفال الصغار والأمهات المرضعات وجماعة الرجال المتعَبين جميعهم تطوعوا للعمل. تنقلوا من بيت إلى بيت، قرعوا الأبواب وصرخوا على من يجيبونهم، ودفعوا المواطنين وضربوهم لِحثّهم على الروح الوطنية. وانتهزوا الفرصة أيضًا للتحقق من بطاقات الهوية. في الوقت الذي بلغوا به منزلنا كنّا قد ارتدينا ملابسنا وعلى أُهبة الذهاب. أصرّ أبي على أنه لا ينبغي لنا التحرك إلى أن يجبرونا على الخروج. فتحتُ الباب لثلاثة رجال. تطلعوا من خلفي بسرعة. اخرج، اذهب إلى العمل. ثمّ دفعني أحدهم جانبًا، ودخل المنزل، صائحًا، بأعلى صوته. دون تفكير، أمسكتُ بياقتهِ المتّسخة وسحبتهُ إلى الخلف. عندما صارَ بمحاذاتي، ساعدته على الخروج بدفعةٍ عنيفة على صدره.

تحرّكوا ثلاثتهم معًا. تراجعوا خطوات إلى الوراء. وتحوّل سلوكهم من الحزم المبرر إلى الحذر. كانوا قذرين مفتولي العضلات، ويشبهون الناس الذين قد تجدهم في أي مكان يتطلّب مثل هذا العمل، مُتشرّدون مُتغطرسون يَسلِبونَ النساء العجائز إرواءً لِذُهانهم بِسبب كرامتهم المجروحة. ذكّرني أحدهم بالرجل بلا أكمام الذي رأيتهُ في ساحة سوود. دفعني أبي جانبًا بعنف.

توسّل إليهم قائلًا: إنه مجرّد صبي، مجرّد صبي!

سُحِبتُ إلى الداخل بقوّة، أعتقدُ أنّ جدّتي هي التي سحبتني. كان الرجال

الثلاثة غاضبين، ويصيحون على أبي. وكان يتمتمُ معتذرًا، مُطأطئ الرأس. استُدعيتُ لمواجهة الرجال الثلاثة. كانَ الرجل المهلهَل الذي سحبتهُ إلى الخارج على استعدادٍ الآن للتنفيسِ عن غضبهِ في بضعِ ضرباتٍ محُكمة التسديد. انفصلَ عن الآخرين وخطا حتّى مسافة إنشات مني، تُشجّعهُ هتافات رفيقيه الساخطة. أحسستُ بهدوءٍ ورباطة جأشٍ، وكنتُ لأُلقي بنفسي عليه دونَ أي استفزاز آخر لو كانَ هناك داعٍ. كانَ الرجل العجوز، وقد ارتدى ملابسه للخروج، كانَ يُراقبُ المشهد بخوفٍ ملموس. أشارَ إليّ فردُ العصابة ذو الرائحة الكريهة بإصبعٍ غاضبٍ إلى أنفي.

صرخَ قائلًا: ستكون في ورطة. ثمّ بصقَ بِغضب. أضافَ الرجلان الآخران بعض الشتائم القذرة وحاول أبي إقحام جسده بيني وبين الرجل الغاضب. فدفعهُ الرجل جانبًا بغيظ. وقالَ بينما ما يزال مرتجفًا ويبصقُ بانفعال: هيه أنت، اسمعني. ستخرج وتذهب إلى العمل، أو سوف نتصرّف معك. معكم كلكم أيها الحثالة. هل تحسبُ نفسك سيّدًا هنا؟

غمغمَ الرجال الثلاثة ممتعضينَ من هذا الإفراج، ضمّوا قبضاتهم وأصدروا هسهسةً عبر أسنانهم التي كزّوا عليها مثل أشرار ميلودراميين. تصوّرتُ أنهم كانوا سيضربونني حتى الموت. توقّفَ الناس من أول الشارع إلى آخره للمشاهدة والاستماع. ورأيتُ أن ذلك بَلبلَ الرجال الثلاثة وَجعلهم قلقين. كانَ خوفهم من أنهم كانوا على وشك الوقوع في أعمال شغبٍ جماعية. ولم يكن هناكَ خطرٌ من ذلك. لقد تعلّمنا جيدًا طُرقَ الخضوع، وإن لم يكن هذا واضحا تمامًا لِمُعذّبينا.

قال الرجلُ الغاضب: أروني بطاقاتكم. جمعَ والدي البطاقات وناولها للرجل. تفحّصَ ثلاثتهم الصور بإمعان، ثمّ أعادوا لنا البطاقات.

- ألا تريدون التحقق من الأسماء؟ سألتهم، وقد أردتُ أن أُعرّفهم بأني

أعلمُ أنهم لا يستطيعونَ القراءة.

همسَ الرجل بحنق: سوف أقتلك. ألقى نظرة سريعة على الحشد وتلفّظَ بالسُّباب. عندما استداروا للمغادرة، ولم يدّخروا شتيمة ولا إساءة لنا، لم يتوقفوا لقرع أبواب منازل أخرى في الشارع. هلّل الحشدُ بابتهاج عندما انعطفوا إلى السّاحة الخالية. وَهمَّ بعض الناس بالعودة إلى منازلهم. هزَّ الرجل العجوز رأسهُ ولوّحَ بإصبعه في وجهي.

قال: كانت هذه حماقة، ها نحن الآن جميعنا في ورطة. ثمّ غمزني وابتسم. بينما ربتَ أبي على ظهري. لقد كنتُ بطلًا. وقال الرجل: أريتَ ما الذي يفعلهُ التعليم لهؤلاء الصغار. إنه يجعلهم شجعانًا.

تطوّعنا جميعنا للعمل في ذلك اليوم. فكّرَ والدي أنه من الحكمة عدم التسبب بمزيد من المتاعب. كانت الفوضى سيّدة الموقف كالعادة في موقع العمل. لم يقترب أحد لتوكيلنا بأي عمل. انتظرنا حتى اشتدَّ توهج الشمس، من ثمّ عدنا إلى منازلنا.

في الليلة التي سَبقت مغادرتي، أَعدَّت أمّي وليمة. أُخرِجَت السجّادة من كيسها، وخُبِطَت وبُسِطَت في غرفة الضيوف. وبما أنَ الكراسي دُفِعت إلى الجدار في الخلف، كانَ هناك مكانٌ كافٍ لنا جميعًا للقعودِ مُتراصّين. ومثلما فعلوا طوال فترة الانتظار الطويلة للرحلة، تحدثوا عنها كمجرّد إجراء شكلي. استُبعِدَت كل أحاديث الحذر. وكلّما أتى أحدٌ على ذِكر قصة السفر اتّخذها أبي وسيلة للمزاح. في صحبتهم وجدتُ أنه من السهل أن أنسى شكوكي الخاصة. في هذه الوفرة من الطعام الدسم والتفاؤل الكبير بدا أن لا شيء كانَ خارج نطاق قدرتي. تلقيتُ كلمات النصح المتبصّرة الحصيفة، وفُصِّلت التحذيراتُ والتهديدات تفصيلًا لا لبس فيه، وطُلِب العون من الله بخشوع. لم تقل زكيّة ولا كلمة طيلة المساء، لكنها كانت تبتسمُ لي كلّما نظرتُ إليها.

كانَ من المزمع أن أغادر في الصباح الباكر. أصرَّ أبي على مرافقتي إلى المحطة، ورفض السّماح لأي شخصٍ آخر بالمجيء. وفيمَ العَناء والجَلَبة؟ سأسيرُ معهُ في طريقي إلى العمل. أنتنَّ النساء تُردنَ دومًا أن تصنعنَ من الحبّة قبّة! آويتُ إلى فراشي تلك الليلة مُفعمًا بأفكار السّفر. فقط لأنّ أمي عادت إليّ في منتصف الليل لتودّعني مرة ثانية، أدركتُ أنني لم أفكّر بها. تحدّثنا لوقتٍ قصير قبل انصرافها قائلة إنها جاءت فقط لِتتمنى لي التوفيق للمرة الأخيرة، ولتخبرني بأن لا داعيَ للقلق من أي شيء.

وجدتُ صعوبة في النوم. انتابني الهلع من التفكير بأنني إن لم أنم فسوفَ أصحو في الصباح متعبًا. وعادت الشكوك القديمة للسخرية من تفاؤل المساء. عاودتني مخاوفي القديمة من السفر كي تبقيني مُستيقظًا حتى ساعات الصباح الأولى.

مُترعًا بالخوف من كل القصص التي سمعتُها، فضّلتُ السّفر بالدرجة الثانية بدلًا من الثالثة. بتلك الطريقة سأكونُ متأكدًا من سرير محجوزٍ. في حين كان السّفر بالدرجة الثالثة، بإجماع الآراء، عبارة عن ثني ركبتين فوقَ مقاعد خشبية مُضلّعة. كانت مقصورتي خاويةً عندما صعدتُ القطار. خبّأتُ حقيبتي تحتَ طبقة السرير السفلية، كما نُصحِتُ. كانت المقصورة مكسوّة بألواحٍ خشبية. كانَ التنجيد من المشمّع الأخضر الناعم، وبارد الملمس. نافورة الشرب الصغيرة أسفل النافذة كانت تعمل بواسطة رافعة طويلة مستدّقة. وكانَ الحوضُ المصغّر مقعّرًا تحت الذراع المقوّسة للنافورة، ومُلتمِعًا مثل عُملة معدنية جديدة. وكانت من فوق النوافذ ستائر، مجمّعة في الزوايتين، ومُثبّتة إلى الجانب بأشرطة. سحبتُ قلّاب النافذة إلى أعلى وأخرجتُ رأسي منها، مثلما رأيتُ أشخاصًا يفعلونَ ذلك في الصور. نزلَ والدي من على الرصيف وأتى للوقوف تحت نافذتي.

سألني: كيف يبدو الأمر؟

كانَ لطيفًا رَضيًّا، وسعيدًا في الحديث. تطاولَ على أطراف أصابعه ليرى ما في الداخل، لكنه لم يكن طويلًا بما يكفي. ترجلّتُ إلى الرصيف لأقول له وداعًا.

قال: اسمع، ليس عندي وقت كثير. كن حذرًا. ولا تفعل أي شيء أحمق... وعُد إلينا. هل تفهم؟ يجب أن تكتب وتُعلِمني بكل شيء. إن كانت هناك أية مشاكل اكتب وبلّغني. فلترافقك آمالنا وأمنياتنا الطيبة.

أمسكَ بيدي وعصرها. قلتُ لهُ وداعًا، على أمل أنهُ انتهى من الكلام. أردتهُ أن يذهب قبل أن يُحرِج نفسه بمشاعر أبوية سخيفة لم يشعر بها. قال وهو يعصر يدي مرة أخرى: كن ابنًا صالحًا، مثلما كنتَ على الدوام. وقد صار صوته أخشن، وانكمشتُ حَرجًا لمّا رأيتهُ وهو يتماهى مع دوره مفتونًا. ثمّ ابتسمَ بغتةً، مما يشير بأنَّ العرض ما عاد يُهمّه. وقال بصوت اعتياديّ أكثر: لا ترجع من دون شيء. أنت تفعل كل ما في وسعكَ لإقناع هذا اللصّ بِمساعدتك. لا نريد أي شيء لأنفسنا، فقط القيام بالواجب من خلال ابننا. هذه ليست إجازة. أفهمت؟ لا تجلب لنا العار ولا تَعُد خالي الوفاض. وهزَّ رأسه قليلًا كما لو أنه غير مُتيقن من أنني فهمت.

قلتُ بابتهاج: لا تقلق.

استدارَ ومشى عائدًا إلى الرصيف بِاتّجاه الحاجز. بينما كنتُ أشاهدهُ يخفُّ مبتعدًا، كبحتُ رغبتي العارمة في الضحك. بدا الموقفُ غير مضبوط. عندما رجعتُ إلى المقصورة، كانَ هناك رجلٌ يجلسُ على السرير المقابل لسريري. كانَ شابًّا، قد أحنى رأسه فوق كتاب. عندما دخلتُ رفعَ بصرهُ إلى الأعلى، وَحيّاني مع إيماءة وابتسامة. قعدتُ على سريري، واتكأتُ على حافة

النافذة، ورحتُ أراقب حركة الناس على الرصيف. كنتُ سعيدًا لأنّ مُرافقي في السّفر كانَ شابًّا. سرعان ما بدأ القطار بالنفخ والصفير استعدادًا للانطلاق.

«كم الساعة الآن؟» أتى الصوت واثقًا من نفسهِ للغاية. تَلفّتُ لأنظر إليه وهززتُ رأسي. لم يكن لديّ ساعة. ابتسمَ، ونهضَ ثمّ مشى نحو النافذة. كانَ شعرهُ مقصوصًا قصيرًا، كما لو أنّه في الجيش أو الشرطة. كانَ وجههُ نحيلًا للغاية وشديد السواد. وكان متين البنية مثل رياضيّ. ألقيتُ نظرة خاطفة على الكتاب الذي تركهُ مفتوحًا ومقلوبًا على السرير، فتى المنجَم لِبيتر أبراهامز[1].

- لماذا لم نتحرّك حتى الآن؟ ينبغي أن يكون الوقت قد حانَ الآن.

نظرَ إلي وهو يقول كلامه هذا، بل أنعم النظرَ لدقيقة أطول مما يحتاج إليه الأمر، كما لو كانَ يتأمّلني. قدّم لي نفسه باسم موسى موينى، وانحنى إلى الأمام مصافحًا.

سألني: إلى أي مدى ستصل؟ ثمّ قعدَ مجدّدا، وألقى نظرة عابرة على كتابهِ قبل أن يغلقه ويضعه بجانبه.

قلتُ محاولاً محاكاة طريقته العفوية، وابتسامته العريضة: إلى نيروبي.

فقال بابتسامة متّسعة كشفت عن أسنانه: وأنا أيضًا!

تريّثَ لبعض الوقت، وما زال مبتسمًا، ويومئ برأسه مشجّعًا. شيءٌ ما كانَ مُتوَقّعًا مني. بادلتهُ الابتسامة والإيماءة أيضًا. تضاءلت ابتسامته قليلًا. في آخر الأمر سألني بلطف: ما اسمكَ يا رجل؟

---

(1) بيتر هينري أبراهامز (1919-2017): صحفي وكاتب جنوب إفريقي، من جوهانسبرغ. عُرِفَ بنصير الوحدة الإفريقية، وبتاريخه الطويل في الكفاح ضد الاستعمار.

فأجبتهُ، وقد شعرتُ بالغباء والفظاظة: آسف، اسمي حسان. حسان عمر.

- سُررتُ بلقائك يا حسان. وأنا موسى موينى. مُردِّدًا اسمهُ للمرة الثانية. اتكأ إلى الخلف وعلى مُحيّاه ابتسامة فخورة. تساءلتُ عمّا إذا كان ينبغي عليّ معرفة الاسم. تنهّدَ، وسرّحَ النظر عبر النافذة من جديد، وقد نفدَ صبرهُ من القطار.

سألني: هل هذا مسقط رأسك؟

أومأتُ بالإيجاب. جذبَ نفسًا بعمق، وهزَّ رأسهُ بإشفاق. وبطريقة حاسمة مبالغ بها قال: هذا المكان ميت. أنا هنا منذُ يومين، ولن أتردد في أن أقول لك، يا أخي، بأني رأيتُ ما فيه الكفاية. لا شيء هنا سوى بيوت الدعارة، ومن يَهوون مضاجعة المؤخرات. ينبغي عليهم اقتلاع المكان وإعادة تشييده من جديد. ولستُ أتعمّد الإساءة يا صديقي.

سألته: من أين أنت؟

أجاب: مِن دار السّلام[1]. مدينة الأحلام!

من كلّ ما سمعتهُ عن تلك المدينة، كانَ مُرحبًّا به فيها. ومع ذلك، ما كنتُ قَلِقًا من إظهار جهلي بقول ذلك. وعليه كانَ لا بدَّ لي من الاعتراف بأنني لم أذهب إلى تلك المدينة قط. وفي النهاية لم أقاوم القول: «سمعتُ بأنها مدينة مترِبة للغاية وبشعة». كنتُ مصمّمًا على ألا أخاف من ابتسامته الواثقة ومظهره الرياضي الحَسَن.

- بشعة!

---

(1) دار السلام: العاصمة السابقة لتنزانيا، وتقع على الساحل الشرقي للبلد على المحيط الهندي.

وكان بوسعي رؤية أنهُ لم يكن يتظاهر بالصدمة. - لدينا هناك أسواق مركزية، وفنادق خمس نجوم، وملاهي ليلية. ماذا لديكم هنا؟ يجب أن تذهب وترى بنفسك!

صفّرَ القطار بصوتٍ عالٍ، وارتجَّ في بدء الانطلاق، وتمايلَ ببطء مجتازًا رصيف المحطّة. تفرج موسى من النافذة وابتسم ابتسامة واسعة. عليّ الذهاب للتبوّل. أظنُّ أني لمحتُ دورة مياه في آخر الممر. هلّا انتبهتَ إلى حقيبتي؟ هناك العديد من الجياع على متن القطار.

أحببتهُ. بدا غير مكترثٍ لشيء. كلُّ شيء كان جديدًا عليّ، الطبيعة والقطار. عشتُ هناك طوال حياتي ولم أفكر مطلقًا في هذه الأشياء مرتين. على مسافة قصيرة كانت هناك أجمة من شجيرات وأشجار تسدُّ الأفق. فوجئتُ بمدى السُّرعة التي صرنا بها في الريف.

كانت هذه هي المرة الثانية التي أبتعدُ فيها عن المنزل. المرة الأولى كانت رحلة مدرسية إلى تشواكا[1]، عشرة أيام على البحر، لدراسة أنماط المدّ أو الجزر أو شيء من هذا القبيل. عشرة أيام شهيّة من السّمك شِبه المطبوخ والفطائر المحلّاة الرطبة! أصرَّ المعلمون على أن نطبخ لأنفسنا. في الليل كنا نجلسُ على شرفة المنزل الشاطئيّ ونترنم بأغاني الحبّ الشجيّة. وجلسنا طوال الليل بالقرب من المقبرة، في انتظار الأشباح التي لم تظهر أبدًا. لعبنا الهوكي على الشاطئ... حينذاك عثرَ أحدهم على كهفٍ فاحت منه رائحة الموت وأوراق الشجر المتعفنّة. وجدنا بركة باردة في أعماق الكهف، ضريح لإله ماءٍ عتيق. سَبَحنا فيها حتى جاءت النساء ورشقننا بالأحجار لأننا دنّسنا مياه الشرب الخاصة بهنّ. هطلت الأمطار في الليلة التي سبقت رحيلنا، فتشبّعت مراتبنا

---

(1) تشواكا: Chwaka مدينة في جزيرة أنغوجا وتُسمى أيضًا زنجبار، أكبر الجزر التابعة لزنجبار. تقع تشواكا على الساحل الشرقي للجزيرة.

الرقيقة بالماء وغطّيناها بأكياس الخيش. ولكن، أي تخلٍّ في ذلك العَدو تحت وابل المطر من المقبرة إلى البحر! يا لها من لذّة ويا لهُ مِن سرور أن يتزامن الضجيج الأوليّ مع صيحاتنا وهتافاتنا الطفولية! عشرة أيام كاملة بِجوار البحر..

تأرجحَ القطار من جانبٍ إلى آخر، وكانَ منوِّمًا في حركته المنتظمة، صاخبًا يصمُّ الآذان. هبَّت نسمة خفيفة عبرَ النافذة المفتوحة، فَتَموّجت طيّات الستائر المثبّتة بالأشرطة. بدا الجوّ حارًّا في الخارج.

كان من المتوقع وصولنا إلى نيروبي صباح اليوم التالي. كانت أمي قد حَزَمت بعض الطّعام لي وكنتُ أعرف أن لديّ ملاءة من أجل الليل. تحقّقتُ من أن جواز سفري ما زالَ في جيبي. عاودتُ القعود، ورفعتُ قدميّ على حافة السرير المقابل لي، مُستمتعًا بِحُرّيتي الجديدة. سمعتُ قرعًا على الباب، تَبِعهُ على الفور دخول رجل مُسِنّ قصيرَ القامة ممتلئ الجسم. حدّقَ في قدميَّ، ثمَّ أشارَ إليهما بإصبعهِ الثّخين:

- أنزلهما!

سوّى قبّعته، وشدَّ سترته، وَفَردَ كتفيه، ثمّ سألني عن التذكرة. لم تكن هناك أسئلة ولا تهديدات ولا إساءة. فتّشَ في جيبه وأخرج منها إضمامة ورق. سألني: أغطية سرير؟ هززتُ رأسي بالنفي. كتبَ شيئًا ما، وأعاد إضمامة الورق إلى مكانها. سألني: هل هذه أول مرة تسافر فيها إلى نيروبي؟ أومأتُ أي نعم. بدا منزعجًا بعض الشيء. ربما كانَ عليَّ أن أقول شيئًا أو أن أبتسم، لكن الكلمات لم تتجاوز فمي. جذبَ الباب بعنفٍ وهو يفتحه، وغادر. لم أقصد أن أكون وقحًا.

لم يكن المقعدُ مريحًا كما تبدّى في البداية، إذ راح يلتصقُ به ظهري الرطب. أردتُ تحريك ساقيَّ وإلقاء نظرة على المكان من حولي، لكني لم أشأ تركَ حقيبة

موسى دونَ حراسة. لم أرد التفكير بخالي، لم يَئن الأوان بعد. عندما اقتحمَ أفكاري استبعدتهُ فورًا. وعلى نحوٍ مُستغرَب، لم أكن خائفًا على الإطلاق. حالما تحرّك القطار شاعَ فيَّ شعورٌ بالأمان. فُتِحَ الباب من جديد، وببطء. أدخل موسى رأسهُ من فُرجة الباب، ثمَّ دخل.

قال: لقد ذهب. لا أملكُ تذكرة. ابتسمَ في وجهي مُستشِفًّا دهشتي، وأردفَ بالقول: لم أشترِ تذكرة قطّ! هؤلاء الجُبَاة في منتهى الغباء ولستَ بحاجة لاقتناء تذكرة. أسافرُ مرتين في كل فصل دراسي ذهابًا وإيابًا، ولم يُقبَض عليَّ مرة واحدة. أنا طالبٌ في الجامعة في نيروبي.

قالَ ذلك بعينين مُسْبَلَتين. لا بدَّ وأني بدوتُ متأثّرًا كما ينبغي، ذلك أنّه عندما رفعَ بصره إليّ ابتسم. واستطرَدَ بالقول: لنقرأ الأدب. التقطَ كتابه واحتضنهُ بيدين متشابكتين. وضعَ الكتاب جانبًا ثمّ رنا إلي مجددا. تحوّلت النظرة تدريجيًّا إلى تحديق.

سألني عابسًا: ألا تقل أي شيء؟ هل أنت على ما يُرام؟

فأجبتهُ مرتبكًا، على إثر اعتدائه المباشر: نعم، نعم.

- تقول إنها أول مرة تسافرُ فيها، هووه! لديك الكثير لرؤيته. نيروبي مكانٌ ساحر. أنا أحب نيروبي حقًّا.. والجامعة فيها جيدة. ما عدا الطعام بالطبع. الوسخ الذي يدعونه طعامًا ويعطونا إيّاه لنأكله هو سُمّ. في العام المنصرم خرجنا في إضراب. لا مزيد من المحاضرات حتى يَطردوا الطّباخ، أو نقتله. بلى، لقد خرجنا في إضراب حقًّا».

- أكانَ ناجحًا؟ سألتهُ، شاعرًا بالعبء ينزاح الآن لمَّا قلتُ شيئًا، لإظهار الاهتمام.

استأنفَ موسى القول، وقد سُرَّ مِنّي: ليس في البداية. في أول الأمر جلبوا

حراس أمن، ضِخام البنية مزوّدين بِعصيٍّ غليظة. وما زادَ ذلك الطلبة إلّا هيجانًا، وطاردوا الحراس في كل أرجاء الحرم الجامعي، واقتحموا المباني، وحطّموا السيارات. حصل هذا فعلًا. وحينذاك استدعوا الجيش. مثلما أقول لك، إنها إفريقيا. نحنُ متوحشون. قتلوا طالبًا وأرسلوا البقية إلى منازلهم. عندما عدنا كانوا قد فصلوا الطباخ من العمل. لماذا لم يفعلوا ذلك منذ البداية؟

- وهل الطعام أفضل الآن؟

فضحكَ وقال: لا، ما يزال سُمًّا.

- وماذا عن دراستك؟ هل تسري على ما يُرام؟

تجاهلَ سؤالي، وَلَوى قَسمات وجهه.

- المدينة، هذا ما يهمُّ في نيروبي. يا لها من مدينة!

- أفضل من دار السّلام؟

- إيه. وضحكَ ضحكةً مكتومة. - أنا أعيش في دار السلام فقط، أهلي متحدرون من كينيا. نيروبي هي الأفضل في إفريقيا، سترى بنفسك. يلزمكَ فقط أن تكون مليونيرًا حتى تستمتع بها. وهناك يوجد كثيرٌ من الهنود.

- هل عليك أن تقرأ كثيرًا من أجل المنهاج؟ سألتهُ غير راغبٍ بسماع كلام هجومي آخر بحقِّ الهنود هذه المرة.

- ألا تصغي إلى الكلام أم ماذا، ها؟ أنا أقول لك إن الحياة الليلية هي الحياة الحقيقية في نيروبي. يمكنكُ الانطلاق في المساء وما زلتَ تأكلُ العسل عندما يأتي الصباح. لديهم أجسام في نيروبي لن تجدَ لها مثيلًا في أي

مكانٍ في شرق إفريقيا... أسود، أبيض، عربي، صوماليّ، هندي... الأشياء التي يفعلونها...

ضحكَ منتظرًا إيّاي كي أطرحَ مزيدًا من الأسئلة. لا بدّ وأنني بدوتُ مستنكرًا. إلا أنه اتخذَّ فجأة سيماء الجدّية والتحفّظ، وتناولَ كتابه من جديد. قال مُحذِّرًا: ولكن لا تعتقد أن الأمر كلّه متعة وتسلية. عليكَ أن تدرس بجدّ ومثابرة في الجامعة. نحنُ محظوظون جدًّا لوجودنا هناك. مستقبل بلادنا بين أيدينا.

تباطأ القطار في سيره. أخرجَ موسى رأسه من النافذة رغمَ التحذيرات بعدم القيام بذلك. وعندما استدار صرّح بالقول: نحنُ وسطَ المجهول. ربّما يحتاج السائق للتوجه إلى الأدغال. اللعنة. الجوّ حارّ.

قعدَ، ثمّ بِرويّة واحتراس لملمَ أطرافَ قميصه برؤوس أصابعه ورفرفَ بها، ليهويّ نفسه. ثمّ أخذ كتابه وراح يهوّي به.

سألته: هل يعجبك بيتر أبراهامز؟

قال: حسنًا. هو ليس كاتبًا سيئًا. إنهُ خجول للغاية، تلك هي المشكلة. إنه لا يكتب مثل الأفارقة. هل تعرف بمَ يُذكّرني هذا الكتاب؟ آلان باتون[1]. لديه نفس النمط من الوعظ الليبراليّ، سريع التأثّر ومشوّش. لا يوجد إحساس بالتّماهي مع جماهير الأفارقة المضطهدين.

ذهبتُ للبحث عن دورة مياه حالما تحرّكَ القطار مرة أخرى. كانَ ذلكَ في ساعاتٍ متأخرة من الصباح، وكانت الشمس صارخة بما يكفي لتشويه

---

(1) آلان ستيوارت باتون (1903-1988): كاتب وسياسي ومصلح اجتماعي ومناهض سِلمي للفصل العنصري. مؤسس حزب جنوب إفريقيا الليبرالي. من أشهر رواياته «إبكِ، البلد الحبيب».

المسافات والأشكال. رأيتُ في المدى البعيد ظلال التلال. كانت الأرض جافة وخاوية. وكانت الريحُ تشتدُّ، وتُدوِّمُ في نفثات غاضبة من الغُبار المُحمّر عِبر السّهول. على الجانب الآخر من القطار، كانَ بإمكاني رؤية منحدرات الهضبة الوسطى، أرجوانية اللون ومُضبّبة.

ضغطتُ نفسي على جانب العربة لإفساح المجال لفتاتين بالمرور. قهقهتا أثناء عبورهما بجواري، فتاتان هنديّتان جميلتان، مَسّ ردفاهما ساقي مسًّا خفيفًا. كان أبوهما من خلفهما مباشرة، لذا تظاهرتُ بِعدم ملاحظة ذلك.

لاحقًا توقّفَ القطار في محطة صغيرة مُتربة. لم يترجّل أحدٌ من القطار، وكانَ الجوّ ما يزال حارًّا للغاية بحيث لا أحد سَيفكر بالنزول للتريّض. جلستَ سيّدة عجوز بمفردها على رصيف القطار، متكئة على مبنى المحطة المقبب المطليّ باللون الأبيض. بدا المبنى مُنمّقًا دون الحاجة إلى ذلك بالنسبة إلى محطة صغيرة عديمة الفائدة في الطريق إلى نيروبي. لربما كانت هذه المحطة جزءا من مخطط فخم لِشخص ما ولم ينجح. حولَ قدمي المرأة العجوز كانت هناك دجاجات حية مربوطة ومتدلية رأسًا على عقب، وكانت رؤوسها تتحرك تحركات مفاجئة تأملية كما لو أنها كانت تعرف ما كانت تتأمل رؤيته لكنها لم تَرهُ بعد.

أردتُ أن أتناولَ طعامي وتساءلتُ إن كانَ موسى لديه ما يأكله. بدا مسرورًا بالعرض عندما قلتُ له بأن يشاطرني طعامي. فردتُ الخبز والدجاج الذي حزمتهُ لي أمي.

توقفنا في المحطة حوالي ربع ساعة تقريبًا. وبينما كانَ القطار يستجمع البخار، استعدادًا للتحرّك، جمعت السيّدة العجوز متاعها، ممسكة الدجاج بالمقلوب من أرجلها المربوطة.

لم يَظهر أيّ مسؤول في السكك الحديدية طوال الوقت الذي كنا فيه هناك. ولم يظهر أحدٌ أثناء مغادرتنا. لم ينزل أحد، ولم أرَ أحدًا يصعد. كانت وقفة غامضة، وسط المجهول، في محطّة مُتقنة البناء بصورة غامضة، وبلا لوحة تدلُّ على اسمها. تبدّت الحيرة على موسى عندما ذكرتُ له الأمر، ثمّ اقترحَ أنّ القطار ربّما توقف لأخذ استراحة.

ذهبَ موسى وعادَ بعد بضع دقائق ومعه كيس من الخوخ. لم يقل من أين حصل عليه. شككتُ بأنه سرقه. وضعَ الكيس فيما بيننا، فوقَ بقايا الدجاج. كانَ يتكلم ويضحك على كل شيء، مُستمتعًا بوقته. شربنا الماء من النافورة المصغّرة، وذلك بأن انحنينا لامتصاص الماء من الفوّهة.

قال: هذا الشيء يذكرني بِتبوّل أخي الصغير؛ قطرة، قطرة.

بَلَغنا الهضبة الجرداء أوّل المساء. لم يكن هناك الكثير لرؤيته. كنتُ سعيدًا لأنني مررتُ للتوّ عبر هذه الأراضي القاسية، وليس جزءًا منها فقط. أغلقنا الستائر مبكرًا، وتمدّدنا على الأَسرّة. اتضّح بأن موسى لم يكن يملك أغطية سرير من أي نوع، لذا أقرضتهُ الكيكوي[1].

قالَ وهو يلفُّ الكيكيوي حولَ جِسمه: أحبُّ السّفر خفيفًا. كما أنني أمنحُ الفرصة لرفيق سفرٍ طيّب للقيامِ بعملٍ صالح. أنا جائعٌ مرّة أخرى.

نِمنا بلا عَشاء. أصررتُ بأنه يتوجب علينا الاحتفاظ بما تبقى من خبز للفطور. لم أحسِب أنني كنتُ سأقتسمُ طعامي مع أحد، على الرغم من أنه لا مانع لديّ. كنتُ مسرورًا بِصحبة موسى.

- فإذن، ما الذي تفعلهُ مع نفسك حينما لا تلعب دور المستكشف؟ سألني

---

(1) كيكوي: kikoi. قطعة مستطيلة من القماش القطني المنسوج مصدره شرق إفريقيا، تُلفّ حول الخصر.. ويعتبر الكيكيوي جزءا من الثقافة السواحيلية.

موسى ذلك بينما كنا راقدين في التأرجح اللطيف للقطار السريع.

- لا شيء، انتهيت للتوّ من المدرسة.

نَخَر هازئًا في العتمة: أعرفُ الوقت الملائم. ابحث عن آفاق، على أمل أن يبتسم لك شخص ما بِعطف وطيبة. كنتُ محظوظًا. كنتُ أفضل طالب في مدرستي لذا كانَ الأمر سهلًا بالنسبة لي. ذهبتُ مباشرة إلى الجامعة. أتدري أنا كنتُ العرّيف الرئيسي في مدرستي. ثانوية آزانيا. أعني، أن هذا أمر مهم.

ثمَّ نهضَ، وارتكزَ على مرفق واحد، وسكتَ حينًا من الوقت، متفكّرًا في عظمته.

- إذن، كانَ الموضوع هيّنًا عليّ. أنا أدرس الأدب. يمكنني دراسته أو عدم دراسته، كما تعلم، هذا الأدب. لقد أبليتُ به بلاء حسنًا في المدرسة، وعرفتُ بأن معلمي أرادني أن أدرسه. ومدير المدرسة أيضًا اعتقدَ أنها فكرة جيدة. دأب على القول إنَّ الأدب هو الحياة. ذلك العجوز السّفيه اللعين. وما أدراهُ ما الحياة؟

- لماذا درستَ الأدب إذن؟ لماذا لم تدرس ما رغبت به؟

- كل ما أردته هو الشهادة. أردتُ سيارة، ومنزلًا جميلًا، وَدجاجًا على العشاء وبعض النساء الفاتنات. اعتقدتُ أنَّ الأدب سيكون سهلًا. حدّقَ في وجهي منتظرًا. وأمأوتُ له ليواصل. - وهو سهلٌ بالفعل. إنه هراء. كلّ هذه المواد الإنسانية هراء. كلّ ما لدينا هو الفنّ الإفريقي، والأدب الإفريقي، والتاريخ الإفريقي، والحضارة الإفريقية وكلّ ذلك الهراء. ولا يمكننا حتى أن نصنع لأنفسنا مفكّ بَرَاغ أو علبة بودرة صغيرة. إنها تقنية نحتاجها. الآن كل شيء نستخدمه يجب أن نحصل عليها من أوروبا أو أمريكا. حتى إنهم يعطوننا المال لشراء هذه الأشياء. علينا أن نتعلم كيفَ

نبني مصانعنا الخاصة، ونصنع سياراتنا الخاصة، وأن ننسج قطننا... هذا هو السرّ. وحتى ذلك الحين، كل هذه الأشياء هراء.

كانَ يميل إلى الأمام، باذلًا جهده للتوكيد على كلماته، واستطردَ بالقول: اسمع، ربما لكي نكبر علينا نسيان الفنّ الإفريقي لبعض الوقت. ثمَّ ابتسم، وبدّل وضعيّته. - أنا على استعداد حتى لنسيان الشعوب الإفريقية مُدّة من الزمن. ما الهدف من إنفاق الملايين لبناء مستشفيات لبعض هذه القبائل البدائية؟ وعندما يتعافون عليكَ إنفاق مزيدًا من الملايين لإطعامهم. إنهم لا ينتجونَ أيّ شيء أو يفعلونَ أيّ شيء. كنتُ لأطلق النار عليهم. إذا تطلّب الأمر قتل بضعة آلاف من الهمجيين لنجعل أنفسنا أقوياء، فليكن ذلك. سيكون الأمر مستحقًّا للعناء من أجل أطفالنا.

وتوقف كيما يرى إن كنتُ سأعترض. وإذْ لم أعترض، انثنى أكثر إلى الأمام، حريصًا على إقناعي أكثر. خمّنتُ أنّ هذه كانت أطروحته المفضلة.

- هذا الحديث عن التقليد والتراث، وهذا الإفريقي وذاك الإفريقي هو مزيد من الفنّ الإفريقي. هؤلاء الناس يعتبروننا حمقى. وهم لا يقصدون ذلك، أبطال التراث هؤلاء. التقليد الوحيد الذي يهتمّون به هو تسمين مؤخراتهم. ما نحتاجه هو رجلٌ قويٌّ برؤية ستالين. وعوضًا عن ذلك، لدينا هؤلاء الزعماء المُدهِنين الذين لا همَّ لهم إلا الأموال المشبوهة ونساء الرجال الآخرين. يتشدّقون بالحديث عن كرامة الرجل الأسود من ثمَّ يركلونه على أسنانه. إنهم يعتبروننا حمقى.

ثمّ جلسَ وقدماه تلامسان الأرضية.

- إنهم ينتهزون جشعنا، أتفهمني؟

سألته: من أين تبدأ قرابينك؟

- لا، لا تمزح. هؤلاء الناس لا عقل لديهم. انظر إلى الطريقة التي يعاملونَ بها الهنود. إنها حمقاء. فما المشكلة إذا أتى الهنود إلى هنا وكسبوا المال؟ وما المشكلة إذا رفضوا أن يصيروا مواطنين؟ فهم يتمتعون بالخبرة ويملكونَ المال، فلنستفِد منهم أوّلًا، ثم بإمكاننا فيما بعد التخلّص من الأوغاد. نحنُ لا نتخلّص من الرجل الأبيض. نحنُ خائفون منه للغاية. نريدهُ أن يُحبّنا. الفنّ الإفريقي، التاريخ الإفريقي.. نحن نناشدهم بأن يفكّروا فينا كَبشر. لكننا نضطّهدُ الهندي ونطردهُ. إننا نتصرف كما الأطفال. إنه لأمرٌ مُحبِط.

- سألتكُ من أين ستبدأ قرابينك؟ ما القبائل التي ستبدأ بها؟ متى سيحين دور الهنود؟ متى تنتقل إلى العرب أو الصوماليين؟ ومن سيكون كبش الفداء لديك بعدئذٍ؟

صرخَ قائلًا: أكباش الفداء! تلكَ هي المشكلة! لهذا السبب نحنُ لا نفعل أي شيء. كلّنا نرى أنفسنا ضحايا، بانتظار دورنا. ننتظرُ أحدًا ما ليأتي ويمدّ لنا يد العون. لا نفعل أي شيء لإعانة أنفسنا. من سيكون التالي؟ نحنُ سنكونُ التالي.. عاجلًا أم آجلًا. مالم نفعل شيئًا حيال ذلك.

- نفعل ماذا؟ مزيدًا من القرابين... من أناس آخرين؟

جعلني متوتّرًا. كنتُ قد سمعت من قبل أشخاصًا يقولون نفس الكلام. وربما قلتهُ أنا أيضًا، ولكن ليس بنفس هذا الانفعال والاقتناع. قلنا كثيرًا من الحماقات التي كانت جزءًا من إحباطنا لأننا شَهِدنا نَهْبَ أمّتنا. تحدّثَ موسى بما يوحي بأنه كانَ مؤمنًا بما يقول. لكني أشكُّ أنه كانَ مؤمنًا بهذا الكلام أكثر مما كنا نؤمن.

قلتُ: نحنُ ضحايا. وقد تكون مُحِقًّا، بأننا نجلسُ ونتنظر ولا نفعل شيئًا. ماذا تريد من الناس أن يفعلوا في مواجهة مثل هذا العنف؟ في كلّ يوم تُقدَّم

القرابين والتضحيات، يُجتثُّ شخصٌ أو آخر ويُضحّى بهِ من أجل النهوض بأمّتنا. وذلك يُعطينا جميعًا تلميحًا قويًّا عن عظمةِ دولتنا وجبروتها. ويمكننا أن نركض جميعًا مثل الفئران الخائفة، ونتهامس حول المؤامرات والمذابح. إنها رياضة يوفّرها لنا أسيادنا.

هتفَ غاضبًا: رياضة! ماذا تحسبنا؟ رعاع؟ أنت تجعلنا نبدو مثل السكان المحلّيين المتعطشين للدماء في فيلم طرزان.

- أنت يا من لا يُمانع قتل القبائل والهنود.

صاحَ قائلًا: إن لزمَ الأمر. إذا كانَ علينا قتل أولئك الذين يعيقوننا أو يستغلوننا، حينها سأقول دعونا نفعل ذلك.

رأيتهُ ينثني إلى الأمام وهو ينفخُ من شدّة انفعاله في الدفاع، وأدركتُ أنني كنتُ مستمتعًا باستفزازه. فسألته: هل سنفعل ما أشرتَ إليه قبل حصولكَ على شهادتك ومنزلك وسيارتك، أَم بعدَ ذلك؟

استندَ إلى الخلف: هذا ليس عدلًا.

- هذه محض كراهية مفرطة يا موسى. إنك تتحدث عن القتل وكأنه لعبة. ما نوع الثمن الذي يتعين علينا دفعه من أجل التقدم؟

قال ملوّحًا إصبعه في وجهي: ما من ثمن باهظ. إلى أن نصنع أشياء لأنفسنا، ولا نضطّر إلى التسوّل من هؤلاء الأشخاص البيض في كل يومٍ من أيّام الأسبوع، يمكنك نسيان التقدم أو العدالة أو أيٍّ من تلك المسائل. وإذا كان ستالين فقط من يمكنه فعل ذلك، فعندئذٍ سأقول لِنستفد منه.

لم نصل إلى أي مكان، إلا أنه راحَ يراقبني بابتسامة، آمِنًا في حُجّته المنيعة. قلتُ له: آمل أن يأذن لكَ ستالين بالاستمرار في ممارسة الدعارة في النوادي الليلية.

ضحكَ، وباتَ على استعداد لأن يكونَ كريمًا إذ سلّمتُ له بالأمر. استلقيتُ على سريري. أطفأ الضوء، وما زال يقهقهُ في الظلام وهو يتموضعُ في سريره. تساءلتُ عمّا سيفعلهُ في غضونِ سنوات قلائل. ما إذا كانَ سيتعلّم السخرية التي تجعل ذكرى هذا الحماس تبدو وهمًا سخيفًا. سمعتهُ يجر قدميه، وتناولَ حقيبته، ثمّ شغّلَ الماء.

سألتهُ: ماذا تفعل؟ أنت تتبول في الحوض؟

ضحكَ وقال: لا، سأقوم فقط بإخراج بعض العُصارات. هل تريد الصابونة؟

وما بين إعجاب وتسلية، قلتُ: أنت تستمني!

قالَ وهو يتنهدُ وينفخُ، بينما كانت يدهُ تُرغّي الصابونة: نعم، نعم. أنت تُشتّتني يا رجل. هل تريد الصابونة أم لا؟

قلتُ: كلّا، لا أريدُ الصابونة.

سحبتُ الغطاء إلى ما فوق رأسي، وأغلقتُ ذهني عن الضوضاء. أعتقدُ أني نمتُ من فوري. استيقظتُ شاعرًا بالبرد، وتذكرتُ في الحال بسرور أين كنتُ. كانت أشعة الشمس مُنسكِبةً من خلال الستائر الرقيقة، لكنها لم تكن دافئة بما يكفي لتبديدِ لَسعةِ البرد. كانَ موسى ما يزال نائمًا، مُستلقيًا على ظهره. بدا ضعيفًا بِفمهِ المنفرج بعض الشيء وذراعه مشدودة إلى جانبه. ارتديتُ ملابسي بهدوء لئلّا أزعجه. كنتُ أعلمُ أننا سنصلُ إلى وجهتنا في غضون بضع ساعات، وأردتُ أن أكون جاهزًا. كانَ قد رأى كل ذلك من قبل، ولكن بالنسبة لي كانَ كلّ شيء جديدًا، ولم أرغب في تفويت أيّ شيء. كانَ الممرُّ ما يزالُ مُقفِرًا، وراودني خاطرٌ بأنّي أنا وموسى الراكبان الوحيدان في القطار.

كانت دورة المياه مشغولة. وقفتُ بجوار الباب مُنتظِرًا، إلا أن انفجارات تفريغ الأمعاء على الطرف الآخر من الباب دَفَعتني بعيدًا. وتساءلتُ أكانَ عليّ الذهاب والعودة لاحقًا. إلا أنّ الضغطَ على مثانتي تطلّبَ مزيدًا من الاهتمام العاجل. وهل فِعل الرجل المسكين الذي يفرغ أمعاءه في بيت الخلاء أشدّ سوءا من القذارة القديمة في فتحات المراحيض في الموطن؟

تراءت الأرضُ التي كنا مسافرينَ عبرها داكنة وخصبة، على وشك أن تكون معشوشبة. والتلالُ متماوجةً إلى ما لانهاية نحو الأفق الأرجوانيّ. ترنّحَ القطارُ في غفلةٍ ولامبالاة، تكاد تكونُ لامبالاته مَرِحة وخالية من الهموم، مثلَ عدّاء مُنهمكٍ يلوّحُ للمارة لكنه مُنصرفٌ إلى السّعادة التي تنتظره. وتحدّبت سفوح التلال المخضوضرة ملؤها الرضا، مزدانة بخصوبتها، رابيةً بالبِشرِ والانشراح. كانت من جميع النواحي مختلفة عن الظُلم الجائر المتمثّل في شوارع بلدتنا الضيقة، بروائحها المحمّلة بقسوة الماضي ومشاعر الحسد والغيرة المعقدة. ولا عجب أَن تَعلَّمَ الناس القتال من أجل هذه الأرض، وبأن يقترفوا الجريمة والتشويه في سبيلها. من يفكّر بالمخاطرة كثيرًا من أجل زقاقٍ قذرٍ زَلِق؟

قريبًا في متناول اليد، كانت حوافّ خطوط السكة الحديدية غاصّة بالعشب الطويل الذي حتى في النور الضئيل للصباح البارد بدا حادًّا وَسَامًّا.

فُتِحَ باب دورة المياه، وخرجَ منه مترنّحًا شخصٌ طويل القامة. بدا أنه يعاني صعوبة في تثبيت نَفْسه. بعد المحاولات التي بذلها، كان من المدهش أنه يستطيع المشي على الإطلاق. انتظرتُ حتى مضى مبتعدًا متمايلًا في مشيته، ثمَّ اقتربتُ من دورة المياه بتردّد. جذبتُ نفسًا عميقًا، وفتحتُ الباب وألقيتُ بنفسي داخله قبل أن تخور عزيمتي.

كانَ هناك رجل ممدد على الأرض، بين قاعدة المغسلة والحائط الفاصل،

وكانت ركبتاه مرفوعتين ومنفرجتين. تراجعتُ إلى الوراء وأغلقتُ الباب. لا شأنَ لي بالأمر. ثمّ دخلتُ مرة أخرى. بدا أنه كانَ نائمًا. كانَ تنفّسهُ مُجهدًا وثقيلًا. وكانَ قميصهُ مُلطّخًا بالدماء، ولكن لم يكن هناك ما يشيرُ إلى جرح. كانت ذراعاه محشورتين بجانبه، كأنما أُكِره على إنزالهما إلى الحيّز الضيّق. وكانَ وجههُ متورّمًا، ومنتفخًا من الكدمات. ركلتُ قدمه برفق. تأوّهَ مرة، ثمّ فتحَ فمه وأطبقهُ دونَ أن يُصدِر صوتًا آخر. لا علاقة لي بهذا. تراجعتُ وأوصدتُ الباب من ورائي.

سمعتُ أصواتًا آتية من آخر الممر. كان الرجل الطويل عائدًا، ومن خلفه مُحصِّل التذاكر. راح الموظف يصرخ ويدفع الرجل الطويل النحيف من أمامه. عندما وصلا إلى الباب، دفعني الرجل الطويل بعنف إلى الجانب، ورأيتُ أن جانبًا من وجهه كانَ لامعًا بالدماء. وأشارَ إلى الباب بانتظار أن يتقدّم الموظف المسؤول من أمامه. لم يكن لدى مُحصِّل التذاكر الوقت الكافي لِزرِّ سترته، واختار أن يفعل ذلك الآن. لاقى صعوبة في تزرير الزرّ العلوي، لكنه أفلحَ أخيرًا في شَبْكهِ حول طيّات رقبتهِ الثخينة.

ثمّ التفتَ إليّ، ومارسَ عَظَمة صلاحيّاته: أنت! هل لكَ يدٌ في هذا؟ سأرمي بكَ وبالآخرين في المحطّة التالية. أين تظنّون أنفسكم؟

قلتُ محتجًّا، وقد سمعتُ وكرهتُ الأنين الخائف في صوتي: كنتُ أنتظرُ فقط الدخول إلى دورة المياه، لا علاقة لي بالأمر!

قال الرجل الطويل: فإذن، اخرج من هنا.

فأشارَ لهُ الموظف بإصبعه مُحذِّرًا: اصمت أنت! ما زالت الخمرة تلعبُ في رأسك، أليس كذلك؟ لم يطلب منك أحد إعطاء أيّة أوامر. من الأفضل لك أن تهتمّ بنفسك، وإلا سأزجُّ بك في السّجن بالمحطّة التالية!

وانتظرَ حتى أخفضَ الرجل الطويل بصرهُ مهزومًا، قبل أن يلتفتَ إليّ: وأنت! أمَا يكفينا وجود رجال كبار يسكرونَ حتى الإعياء دونَ وجود أشخاص يتسكعون، ويحدّقون وكأنّ لا شغل لديهم ليفعلونه؟ هيّا، اخرج من هنا!

كانَ الضجيج قد أيقظ بعض الناس، ولمّا بانت الوجوه والشّعور الشعثاء من خلف الأبواب، استدارَ الموظف المسؤول ناحيتهم لإظهار التعاطف. حشرتُ نفسي للعبور من أمامه، ومن ثمَّ تجاوزتُ الرّجلَ الطويل. أدارَ الجانب المُصاب من وجهه بعيدًا عنّي.مكتبة سُر مَن قرأ

وفي طريق العودة سألني رجلٌ: ما الذي يحدثُ هناك؟

قلتُ: أعتقدُ أن شخصًا قد تعرّضَ لإصابة.

نظرَ سريعًا إلى آخر الممر، كما لو كانَ يتأكد من أنني لم أمزح معه مزحة سَمِجة. وَعَجّلَ ليتحقق من الأمر بنفسه. وجدتُ موسى ما يزال نائمًا. نومهُ الهانئ مرتاح البال أغاظني. فقد بدا قاسيًا وعديم الإحساس في ظلّ تلك الظروف. كنتُ ميّالًا إلى هزّه وإيقاظه، إلا أن التفكير في المطالب التي ستطرحها محادثته جعلني أعدِل عن الأمر. فلربّما كنتُ سأخرجُ فقط بملخص قويٍّ وعارف بسذاجتي. حوّلتُ عينيَّ عنه وحاولتُ التفكير فيما ينتظرنا.

كانَ لديَّ ما يكفي من الخبز لتناول الإفطار، على الرغم من أنني ربّما سأضطّرُ إلى مشاركته. كانَ عليَّ أن أستقلّ سيارة أجرة إلى بيت خالي عندما نصل. كتبَ أبي إليه لإعلامهِ بموعد وصولي، لكني توقعتُ أنهُ سيكونُ مشغولًا للغاية أو سينسى. كنتُ أعرفُ عنهُ القليل جدًّا. لم أكن قد التقيتهُ من قبل، ولكن في الأشهر القليلة التي سبقت سفري استُعيدَت كثيرٌ من القصص التي سمعتها عنهُ في الطفولة. كنتُ أعلمُ بأنهُ جنى كثيرًا من المال

من بيع السيارات، وبأنّهُ أسّسَ لنفسهِ مكانة محترمة. قال أبي إنه جنى أموالًا طائلة من التهريب. لم أكن أعلم مدى ثرائه، وما إذا كانَ بمستطاعهِ إقراضي المال للدراسة أو منحي إيّاه. قَصَّت عليّ ما أمكنها معرفته من معلومات، هكذا قالت. شعرتُ بأنها كانت تُخفي بعض الأمور، وأن ما قالتهُ لي هو أسطورة، أكثر من كونهِ حقيقة. روت لي أمي عن طبعهِ الحادّ، وعن نوبات غضبه كما الدبّ. قلتُ لها إن لي باع طويل مع مثل هؤلاء الأشخاص، وبأنني أبذل قصارى جهدي لكيلا أستفزّهم. وفي حينٍ آخر وصفتهُ بأنّه في غاية الكرم والسّخاء. بلى، استطعتُ أن أرى ذلك في الطريقة التي لم يفعل بها شيئًا لأخته التي تعيش في فقر مدقع على بعد بضع مئات من الأميال. وظننتُ أنني في مَهمّة لا طائل منها. ومع ذلك، وجّه لي الدعوة للذهاب. ربّما... كلّا، كانَ من السُّخف بمكان الافتراض أنّ الأخ الذي لا يفعل شيئًا لأختهِ المنكوبة بالفقر - وحظًّا طيّبًا له إن كانت هذه هي الطريقة التي يريد أن يحيا بها - سوفَ يتخلّى عن الآلاف، وعن طيبِ خاطرٍ، لابنها.

ومع ذلك، لم يكن هناك شيء لنفقده سوى القليل من الكرامة. أسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن يبدو المرء أحمق. وهنا كانت الفرصة متاحة للسّفر ورؤية العالم، للتنفّس ضمن هواء مختلف، والشعور بالحرّية وكسر الطوق. اعبرْ المستنقعات وأَبحِرْ عبر نهر النيل وصولًا إلى الإسكندرية. من المحتمل أنّ وصولي سوف يُخجِل الخال الثريّ فيمدّ يدَ الجود والكرم تعويضًا عن إهمالهِ السّابق. ولن يُخفِق في التأثر بِنباهتي واستقامتي، وعلى الأقلّ سوفَ يشعرُ بالخِزي الشديد لرفضه مُساعدة شخصٍ مِثاليّ انطلقَ في رحلةٍ متفانية لا يشوبها حبّ الذات، متقصيًا حكمةً أعظم. في الوقت الراهن، كان يكفيني أني شرعتُ في التحرّك، وبأنني أعدو ولديّ فرصة بالفوز، وبأنني نجوتُ من اختناق الأزقة الضيّقة.

ذهبتُ بحثًا عن دورة مياه أخرى. كان هناك أناس في الممر آنئذ، وكانَ القطار مزدحمًا أكثر مما كان عليه عندما انطلقنا في البداية. كانت المقصورة فارغة عندما رجعتُ، وأكلتُ ما تبقى من خبزي قبل عودة موسى. عادَ حاملًا الكيكوي الذي أعرتهُ إياه، وكان ينظّفُ أسنانه بفرشاة بلاستيكية. انحنى فوقَ حوض المغسلة للحظات، وراح يبصقُ ويفركُ أسنانه ويغسل فمه. وجفّفَ نفسه بطرفِ الكيكوي. بدا منتعشًا تمامًا، وسعيدًا لكونهِ على قيد الحياة. فركَ خدّيه براحتي يديه أعلى وأسفل ثم ابتسم. وحسدتهُ. بدت ابتسامتي شاحبة وعليلة مقارنة بابتسامتهِ.

قال وهو يخلع الكيكوي دونَ أية محظورات: تعرّض أحدهم لإصابة. مخمور حتى الثمالة. ضربه أحدهم ضربًا مبرحًا وسلبهُ ماله. كان مضرّجًا بالدماء. كما أقول لك، هناك بعض اللئام الأوغاد في الجوار.. أذكرُ ذات مرّة في نيروبي...

توقف عن الكلام، وافترضتُ بأنه كانَ يستجمعُ قصّته ويرتبها. رفعَ سحاب سرواله، ووقفَ حائرًا، ثمّ ابتسمَ وهزّ رأسه. قال: ما زال الوقت مبكرًا جدًّا لسردِ مثل هذه القصص. علينا الحصول على شيء للأكل أوّلًا.

أجبتهُ شاعرًا بالخجل: لقد أكلتُ.

لا أعتقد أنه صدقني. لا بدَّ أنهُ افترضَ بأني كنتُ مفلسًا لدرجة أنني لا أستطيع تحمّل نفقات الإفطار. قال لي: أتدري، يجب أن نرتب للقاء في نيروبي. يجب أن تأتي لرؤيتي في الجامعة. فقط اسأل عن موسى موينى. سنذهب معًا إلى بعض الأماكن، ونمارس الجنس. وسأطلعكَ على بعض قصائدي. أوه نعم، هل يُشعرك ذلك بالدهشة؟

وقفَ عند الباب بانتظارِ ردٍّ مني.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قلتُ: لا، أنا حقًّا لا أريد أيّ شيء.

رفعَ كتفيه غير عابئ، وأوصدَ الباب من خلفه، وتركني لألتقط الكيكوي من على الأرض. تفحصتهُ بحثًا عن آثارٍ على فِعلتهِ في الليلة الفائتة، لكنهُ بدا نظيفًا. لم يكن هناك الكثير للقيام به سوى الجلوس بجوار النافذة، ومشاهدة التلال. كانَت الأعشاب البنية الطويلة تنوسُ في الريح بِرفق، موجات صغيرة من الحركة على التلال السّاكنة، ساكنة آنئذٍ بصبرٍ أزليّ.

على مسافة بعيدة تناثرت شُجيرات من الشوك. كان القطار قد فقدَ خطوهُ المرح، إذ كانَ يتحرّك ببطء، مُدمدِمًا على مسارهِ الأخير.

لدى اقترابنا من نيروبي، تجلّت تلال نونغ في الغرب. دلّني موسى إليها، وَضحكنا بِابتهاجٍ لرؤيتها. مرّت طائرة من فوق رؤوسنا في طريقها إلى الهبوط، فأوقعتنا في موجةٍ من التدافع لمشاهدتها من نافذة إلى أخرى.

قالَ موسى وهو يثِبُ مرة أخرى إلى المقصورة: سعيدٌ لأني عُدتُ. يجب عليك حقًّا أن تأتي لمقابلتي.

التقطَ حقيبته، وشرحَ لي بأنه يتعيّن عليه أن يعجّل المسير إذا ما أراد تجنّب الإمساكَ به من قِبل موظّفي السكة الحديدية، ثمّ صافحني. حزنتُ لرؤيته وهو يذهب. ذكّرني مجدّدًا بوجوب زيارته في الجامعة، وابتسمّ باستعطاف، ثمَ لوّح بالوداع.

***

الفصل الرابع

كانت المحطّة كبيرة. أكانَ يجب أن تكون بهذا الحجم؟ خلاف ما توقعت، لم أفزع. أبرزتُ تذكرتي وسُمِح لي بالمرور دونَ سؤال واحد. كانَ الجوّ حارًّا، شعرتُ بأني عَفن ودهنيٌّ من العَرق. تشبّثتُ بعبوة المِسك السّفرية التي كانت بحوزتي للشعور بالراحة. أتذكرُ ازدحام الناس، الصِّياح، التشكيلة المتنوعة من الثياب. كانَ هذا ما وصفه المسافرون الأكثر رومانسية على أنه متعة الحياة والتلذّذ بِسحرها، والذي كانَ إفريقيًّا بصورة جليّة، الرقصة التي كانت جزءًا من الإيقاع الطبيعي للحياة. وجدتُ الحشدَ مُربكًا ومخيفًا. أبقيتُ عينيَّ على الأرض، مُزاحِمًا الحشد لكني غير قادر على مجابهة حيّويته وقوة دفعه. أبقيتُ قبضة يدي مشدودة على حقيبتي، متوقعًا أن تمسكها يد ما وتنتزعها مني.

أفضى بي الحشدُ إلى الخارج. كنتُ مذهولًا للغاية لرؤية قسمٍ كبير من المدينة بينما كانت سيارة الأجرة تسير عِبرها. أتذكرُ سروري لأنّ الطرقات الواسعة والمباني الحجرية الشاهقة كانت مثيرة للإعجاب مثلما كنتُ أتمنى. وقد أوحت بالوفرة وَسَعة العيش والتنظيم. كانت الأرصفة غاصّة بالناس. حاولتُ أن أكونَ هادئًا، وحاولتُ جاهدًا ألّا أعطي انطباعًا بأنني فتىً ريفي قد وصلَ لتوّهِ إلى المدينة. وذكّرتُ نفسي بأن بلدتنا السّاحلية كانت موجودة قبل تأسيس نيروبي بثلاثةِ قرون. كنّا نتاجر مع الصين حتى قبل السكك الحديدية التي أدّت إلى إنشاء مستودع الأعمال المتغطرس هذا. ما الذي كانَ يدعو إلى الخوف هناك؟ كانَ سائق سيارة الأجرة صامتًا ومُتجهّمًا، وما كانَ آبهًا بالزحام ولا بالراكب الذي معه. قادَ السيارة بِحزمٍ وعبوس، مرة واحدة

فقط تمتم بغضبٍ عندما قفزَ صبيٌّ هندي من على الرصيف وركضَ عبر الشارع أمامنا.

بدا أننا سِرنا لمدّة طويلة قبل أن نصل إلى الحيّ السّكني الثريّ الذي يقطنُ فيه خالي. شاهدتُ الفخامة المتنامية للمنازل بِبطة وارتياح. الشائعات تُبدِّلُ الحظّ السعيد لرجلٍ فقير إلى الحدّ الذي يتحوّل فيه بيته المتواضع المكون من طبقة واحدةٍ والمُشيَّد من الطّوب إلى قَصر. تحدثُ مثل هذه الأمور. كانَ من المريح أني اكتشفتُ أن الأسطورة التي تدور حولَ خالي كانت صحيحة حتى الآن. ورحتُ أتمرّن على الكلام: السّلام عليكم، خالي أحمد. أهلًا وسهلًا، يا نور الله[1]. صباح الخير، سيّدي.

لم يكن للمنزل الذي توقفنا عنده سياجٌ من الشُّجيرات، كَحَالِ بقية المنازل التي مررنا بها. بدلًا من ذلك، كانت هناك سلسلة من الحديد المشغول تفصل حديقة البيت الأمامية عن الطريق. كانَ المرج يُشكّل السّواد الأعظم من الحديقة الأمامية. كانت هناك شجيرات قريبة من المنزل، وشجرة كركديه كبيرة مُزهرة بِجوار الباب. إلى جانب المنزل كانت هناك شجرة لهبٍ[2] ناضجة، ومن خلفها بعض أشجار نخيل الزينة القزمية. هَتفَ سائق سيارة الأجرة، ولوّحَ لي، وساقَ سيارته مبتعدًا. فوجئتُ قليلًا بِهذه الوداعة المفاجئة، وكنتُ بطيئًا للغاية في التلويح له، وكانت السيارة قد اختفت خلف الحاجز النباتي للبيت المجاور قبل أن أرفع ذراعي للردّ.

---

(1) وردت هذه العبارات في النص الأصلي بالعربية مكتوبة بحروف إنكليزية.

(2) شجرة اللهب: flame-tree أو الشعلة الملتهبة أو البونسيانا. تُصنَّف من بين الأشجار الأكثر جمالية في العالم، وتمتازُ بأوراقها الريشية الناعمة وزهورها الشديدة الحمرة. موطنها الأصلي مدغشقر، وتُزرَع في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية كشجرة زينة من الطراز الأول.

كنتُ آمل آنئذٍ أنني لوحِظتُ من سكّان المنزل. في مواجهة مثل هذه الفخامة والنِّعمة بدت مَهمتي غبية وفظّة. وضعتُ حقيبتي على الأرض وعدّلتُ وقفتي استعدادًا لأول مرة أقرع فيها جرس باب. توقعتُ أنّه سوف يرنّ رنينًا رقيقًا، ويتردّد صداهُ في الممرات، لذا فاجأتني الجلجلة الحادة على الجانب الآخر من الباب وكادت أن تقضي على رصانتي واتّزاني. ظننتُ أني فعلتُ ذلك خطأ. انتظرتُ، وأنا قلقٌ فيما إن كانَ عليّ أن أقرعه مرة أخرى.

فتحت فتاةٌ الباب. استندت عليه وهي تستفسرُ مني عن حاجتي، بحاجبين مرفوعين وبِصبرٍ نافد: نعم؟

أذكرُ إحساسي بالظلم والأذى جراء تلك المعاملة. لستُ متسوّلًا، فكّرتُ وأنا أنظرُ إليها بعبوس. ابتَعَدَت عن الباب، ورجعت إلى الوراء قليلا، كما لو أرادت إلقاء نظرة أفضل عليّ. وكانت في أي لحظة سوف تطلب المساعدة للنظر في أمري. تفرَّسَت بي، وأجالت نظرها سريعًا على ملابسي وحقيبتي.

شرعتُ في الكلام الذي حضّرتهُ من أجل هذه المناسبة: اسمي حسّان عُمر. طَرَفت بعينيها. لاحظتُ بأنني تحدّثتُ بالإنكليزية. طوت ذراعيها العاريتين على صدرها، وبدّلت ارتكازها في وقفتها على السّاق الأخرى، وتنهّدت.

ردّدتْ: نعم؟ كانت تستعدّ حينذاك للاستمتاع بهذا الحدث الصغير. لم أستطع منع نفسي من الابتسام. وابتسمت هي أيضًا، كانت مجرّد ارتعاشة في الشفتين، هازئة وغير مسرورة. دفعت بذقنها للأمام مرة أخرى على نحوٍ عدوانيّ وحاسم. ابتسمتُ ثانية، غير متأهبٍ لهذه الشراسة.

قلتُ بِمزيدٍ من التأنّي والوضوح: أتيتُ في طلب بوانا[1] أحمد بن خليفة.

---

(1) بوانا: Bwana تعني السيّد في السّواحيلية.

قالت: إنهُ غير موجود. ثمّ فردت ذراعيها واقتربت من الباب، وقد جهزت ساقيها لِتصفق الباب بقوّة.

قلتُ على عجل: أتيتُ لمقابلته.

أجابت بنبرة أقلّ فظاظة: حسنًا، إنهُ ليس هنا.

قلتُ وأنا أنحني لحملِ حقيبتي: هو يعلم بأني آتٍ. وراودني خاطرٌ بأن أستدير على عقبي وأمشي بعيدًا، بخطىً واسعة غاضبة. هذا من شأنه إبانة كرامتي المجروحة، ويجعلها آسفة على تصرّفها معي.

قالت: نعم؟ وانتظرتْ توضيحًا مني. شعرتُ بالراحة من نبرة صوتها، ومن الطريقة المنتبهة والمتقصيّة التي نظرت بها إليّ.

قلتُ: إنهُ يتوقّعُ قدومي. وكان بي شعور متنامٍ وغامض من النّدم لأني لم أستدر وأمضي مبتعدًا بعد كلّ شيء. تحرّكتُ خطوة نحو الباب، وتردّدتْ قليلًا قبل أن تُفسح لي المجال بالدخول. مسحتُ قدميَّ بعناية ومطوّلًا على ممسحة الباب. كنتُ قد سمعتُ قصصا عن أصدقاء يسيرونَ على القذارة والوحول في الشوارع ويدخلونَ إلى مثل هذه المنازل. انحنيتُ كي أخلع حذائي القماشي الخفيف، وشعرتُ باضطرابها من خلفي.

مسّت يدها كتفي، مجرد رفرفة، دونما ضغط.

قالت: ليسَ عليك أن تخلع حذاءك.

استويتُ واقفًا، شاعرًا بحماقتي. ابتسمتْ على نحو يدعو إلى الطمأنينة. كانت الآن تشعرُ بالأسى من أجلي. لذا هززتُ كتفيّ بلا مبالاة لأظهر لها أني لم أكن منزعجًا من مثل هذه الأشياء. جميعنا نرتكبُ الأخطاء. لم أفكر بالاعتراض حينها بأنّ المكان الذي أتيتُ منه يعتبر ارتداء الحذاء ضمن البيت فعلًا غير مهذّب. لا بدّ وأنها اعتقدت بأني مجرد خانع مُحرَج.

قالت لي: تفضّل. وهي تشيرُ إلى آخر الرواق وتتقدمني في المسير. غطّت الألوان الهادئة الجدرانَ والأرضية. اللون الليلكي الغامق بدا ليّنًا وسميكًا مثل البساط. كانت السجادة ناعمة حريرية ذات لون بنيّ محمر. في ركن من أركان الردهة كان ثمّة صندوق نحاسيّ، أسفل نافذة شبكية، ومن فوقه وضِعت مزهرية طويلة محزّزة احتوت على زهرة الجهنّمية[1]. شعرتُ بكتفيّ تتهدلان إلى الأمام تبجيلًا في حضرة هذا الثراء.

قادتني إلى غرفة كبيرة، مُشبعة بالضوء. أحد الجدران كان زجاجيًّا تقريبًا، واستطعتُ رؤية الحديقة من خلاله. ألا يقذف أولاد الحيّ في نيروبي الحجارة؟ وفكرتُ، هذا هو طراز المنزل الذي أرادَ موسى قتلَ كل تلك القبائل من أجله. امتدّت الحديقة بعيدًا على منحدرٍ، مائلة برفق نحو السياج في الأسفل. كانَ بإمكاني رؤية الأشجار وشجيرات الباشن فروت في آخر الحديقة. أشارت إلى كرسيٍّ بجوار المدفأة، كرسي كبير منجد بذات اللون البني المحمر كما السجادة. وضعتُ حقيبتي بجانبه، واستدرتُ لأشكرها. كانت قد مضت. استرقتُ النّظرَ إلى المدفأة التي كانت نظيفة ومكنوسة، وبدت كما لو أنها لم تُستَعمَل قطّ. حاولتُ أن أتخيل طفلًا صغيرا يصعدُ خلال الحفرة الضيقة ليكنس المدخنة، وأخفقَ الخيال. غرقتُ في الكرسيّ الوثير، إلى حدٍّ شهقتُ به: فتى ريفي أتى إلى المدينة!

كانَ الراديو مُشغّلًا بصوتٍ خفيض للغاية، لدرجة أنه تطلب البحث حتى رأيتهُ مدسوسًا في الجانب الآخر من المدفأة. ارتفعت صيحة مفاجئة من الحديقة، فهرعتُ إلى الباب الزجاجي المفتوح لأتحقّق من الأمر. طائرٌ رمادي كبير شرعَ في الطيران، وخبطَ جناحيه بتكاسل قبل أن يهوي أخيرًا

---

(1) الجهنمية أو المجنونة أو البوغنفيليا: Bougainvillea نبات متسلق أو معرش، وله عدة ألوان مُختلفة منها الأبيض والوردي والبرتقالي والأحمر.

خلفَ منحدر التلّة. وتساءلتُ عما إذا كانوا يربّون طواويس أيضًا. أحدهم ضحك ضحكة عالية، ورفعتُ رقبتي لمحاولة تتبع مصدر الصوت. عدتُ إلى الكرسي، ولكني أبقيتُ عينًا على باب الحديقة.

عادت من مدخلٍ مُقنطَر على اليمين، من الواضح أنها اختفت من هناك في المقام الأول. كانت تحمل صينية صغيرة فضّية وضِعَ عليها إبريق كبير وكأسان. وضعت الصينية على الطاولة الأقرب إليّ، ومن ثمّ جثت على ركبتيها بجانبها. وراودني شعور بعدم الارتياح بسبب هذه الألفة. ابتسمت وهي تناولني كأسي.

قالت: أهلًا وسهلًا بك. أعرفُ من أنت الآن. تذكرتك عندما كنتُ في المطبخ. أنت ابن عمّتي، أليسَ كذلك؟ كانَ عليك أن تخبرني بذلك. أخبرني «دادي[1]» بأنك ستأتي، لكنني لم أتذكر التاريخ. كيف كانت الرحلة؟

«دادي!» استخدَمَت الكلمة الإنكليزية. مثلما توقعت. وكنتُ واثقًا من أنهم يأكلون بالسكاكين والشوك، ويشربون شاي ما بعد الظهيرة.

- حظيتُ برحلة ممتعة للغاية، أشكرك. وهذا العصير لذيذٌ جدًّا. عصير ماذا؟

أجابت: عصير باشن فروت. كانت على وجهها بقعٌ متناثرة بالغة الصغر، وكانت متورمة على شكلِ بثورٍ فوقَ جبهتها. لم تبدُ لي منفّرة على الإطلاق. ابتسمَت مرة أخرى، ومن ثمّ نهضت وكأسها في يدها.

قالت: لا بدَّ أنك متعب للغاية، سأرى إن كانت هناك غرفة جاهزة، وربما قد ترغب في الاستحمام والراحة.. هل تريد شيئًا لتأكله؟

---

(1) دادي: أبي بالإنكليزية.

استأذنت وانصرفت عبر الممرّ المقنطَر. رأيتها بعد دقائق تخطو خطوات واسعة عبر الحديقة. فُتِنتُ بها.. كما لو أنّ نيروبي لم تكن كافية، حتى يجد المرء نفسه تحت سقف واحد مع مثل هذه الفتاة الجميلة... وكنتُ سَأُحبّها وأُبجلّها من مسافة بعيدة بالطبع، أتغذّى على رائحتها عندما تقتربُ كثيرًا، وأطمحُ إلى زرع ابتسامة على وجهها من حينٍ إلى آخر.

دخلَ رجلٌ الغرفة من المدخل المُقنطَر، ونهضتُ لتحيّته. كان شابًّا صغير ومن غير الممكن أن يكون خالي، ربما كان في الثلاثينات من عمره أو نحو ذلك. كانَ نحيلًا جدًّا، وعيناه جاحظتين، وذراعاه مُتهدّلتين على جانبيه. ظننتُ للوهلة الأولى أنه من أقاربي.

قلتُ مُرحبًّا به: أهلًا.

فأجابني بالإنكليزية: صباح الخير، سيّدي.

أخفضَ رأسه، وحدّبَ كتفيه وشبكَ يديه معًا. ثمّ تقدّمَ إلى الأمام ورأسهُ ما يزال منخفضًا ومائلًا بعض الشيء إلى جانب واحد. انحنى والتقطَ حقيبتي. مددتُ يدي لاستعادتها، فتحرّكَ خطوة إلى الخلف، ورفعَ كفّه إلى الأعلى. وظننتُ أن هذا الأداء كان مثيرًا للسُّخرية.

قال لي: سيّد حسّان، اسمح لي بأن أدلّكَ على غرفتك سيدي.

بدا مُستاء بعض الشيء، وصارمًا، ولكن في عينيه، ظننتُ أني لمحتُ ضحكة مكبوتة. وتبًّا لكَ أيضًا! أشارَ إلى بابٍ آخر عبر الغرفة من خلال الممر المقنطر. مشى من أمامي، ولم يكلّف نفسه عناء الاستدارة لرؤية ما إذا كنتُ أتبعه. جميعهم كانوا أقوياء للغاية مع فتى ريفي فقير. تساءلتُ عمّا قيل عني قبل وصولي. كانَ من الصعب التصديق أن هذا الرجل النحيف والمتهندم ما هو إلا خادم. الخدم يرتدون ملابس بالية أثناء العمل. قادني عبر

دهليز قصير، يُفضي إلى غرفٍ على الجانبين. توقفَ عند الباب الأخير على اليسار، فتحه وأشار لي بالدخول إلى الغرفة من أمامه.

كانت الغرفة كبيرة وجيّدة التهوية. كانت أشعة الشمس متدفقة عبر الشبّاك. الجدران البيضاء، والأثاث الأبيض جعلوا الغرفة تبدو أكثر إشراقًا ونظافة. كنتُ منبهرًا بفكرة مثل هذه الراحة، مثل هذه الخصوصية. ما رأيتهُ في بقية المنزل كان من شأنه تهيئتي، بيد أني لم أحلم أبدًا بالنوم في مثل هذه الغرفة. كانَ السرير موضوعًا في زاوية الغرفة، وخزانة ملابس كبيرة واقفة أسفله. مقابل السرير كانَ مكتبٌ وكرسيّ. وكان هناك مصباح قراءة على حامل منحن فوقَ الكرسي المريح تحت النافذة.

قلتُ: شكرًا.

قال: هذه أفضل غرفة ضيوف. آمل أن تعجبك. إن كنت ترغب بالاستحمام، سوفَ أفرغ أمتعتك بالنيابة عنك.

كانَ ما يزال حاملًا حقيبتي، وَلَدى قولهِ هذه الكلمات رفعها قليلًا ونظرَ إليها. اعترضتُ بالقول: لا، لا!

بدا وكأنه جفل. عللتُّ بالقول: ليس لدي كثير من الأمتعة لإفراغها. انتظرَ مني المزيد، ولم يكن هدأ بعد، ولم يشعر بعد بأنهُ أصرّ بما فيه الكفاية.

قلتُ: إنها حقيبة صغيرة فقط.

قال وهو يضع الحقيبة على الأرض: حسنًا، سيدي.

قلتُ مشيرًا إلى الغرفة: شكرًا جزيلا لك.

وانحنى. «انحنى!» فكرتُ

قال بهدوء بينما كان واقفًا عند الباب: الحمّام في الباب المجاور. اسمي

عليّ. - وأنا أيضًا جنكيز خان، كيف حالك؟ - خمّنتُ أنَّ «عليّ» كان لقبه الذليل، لقبه المهني. - إن احتجتَ أي شيء فقط اطلبه مني. أتمنى أن تستمتع بإقامتك معنا، يا سيد حسان.

أوصدَ الباب برِفق من خلفه، وما من شكٍّ أن ابتسامة متعجرفة غَزَت وجهه عندما حالَ الباب بيننا. انحنيتُ قبالة الباب الموصد وحاولتُ التفكير بإشارة بذيئة، لكني عَزفتُ عن الفكرة وفقدتُ حماسي لها. ربما كنتُ سأتصرّف مثله. أخرجتُ قميصًا نظيفًا، ووضعتُ حقيبتي في خزانة الملابس. لم يكن هناك داع لإفراغ الأمتعة لمجرّد إضحاك الأعين الغافلة عنها. فردتُ القميص على السرير، وخرجتُ بحثًا عن الحمام.

وافقَ الحمّام كلّ توقعاتي. خلعتُ حذائي الرياضي الخفيف، وسِرتُ حافي القدمين على البلاط الأزرق. تنشّقتُ عطر مطهر دورة المياه، وتفحصتُ مروحة الشفّاط الصغيرة فوق النافذة. وبينما كنتُ أملأ حوض الاستحمام، فتّشتُ محتويات الخزائن ذات المرايا. وشعرتُ يقينًا بأنني كنتُ أسمع صوتَ موسيقى خافتة في الأثير.

عادَ بوانا أحمد بن خليفة إلى المنزل لتناول طعام الغداء.

كنتُ مستلقيًا على السرير مُتنعِّمًا بخلوتي المدلّلة، وأشعرُ بتأنيب الضمير لأني جرّدتُ عليًّا من اسمه، عندما أعلَمَتني دقة على الباب بوصول السيّد. ارتديتُ قميصي النظيف، وجرّبتُ ابتسامات عدّة في المرآة، واخترتُ أكثرها تواضعًا، وخرجتُ تَقصيًّا عن الآتي.

قادني عليٌّ إلى غرفة المعيشة، ثمَّ أرشدني إلى الحديقة، ووقفَ جانبًا كي يسمح لي بالمرور. خرجتُ من الباب الزجاجيّ إلى الشّرفة البيضاوية الشكل. وبينما كنتُ أهبطُ الدرجات إلى المرج، هبَّ نسيمٌ منعشٌ باتجاهي، مسّ

وجهي ومضى بسرعة. ارتعشت الأشجار والشُّجيرات للحظة، ثمّ سَكَنت من جديد. رأيتُ رجلًا قصير القامة متينَ البنية يقف تحت إحدى الأشجار، ويتحدثُ إلى الفتاة. كانَ العرق ينثال من ظهري، وذراعي ترتجفان قليلًا. شعرتُ بأني على وشك أن أجعل من نفسي أضحوكة، ولكن مَا مِن مفرّ الآن. كانا مُنغمسين في حديثهما لدرجة أنهما لم يلحظا اقترابي. توقفتُ على بُعد بضع خطوات، وبعدَ دقيقة، التفتُ لأُعجب بالحديقة. كانَ من الواضح أني تُرِكتُ للانتظار. كانت قد رُسِمت خطوط من الطبشور على العُشب، بَهتت من الشمس والمطر ولكنها ما تزال ظاهرة. كانت شجرة الجهنّمية الشائكة مزهرة على نحوٍ مبهرج، فالأحمر الفاقع مع الأرجواني ممتزجًا مع الأصفر الداكن والورديّ الباهت. تحت سطح الشرفة كانت هناك شجيرات الكركديه الكبيرة، وأزهارها الشمعية تميلُ نحو الأرض بإغواء. وقد ملأت شُجيرات الياسمين والورد الحوافّ حتى السّياج. امتدّت شجرة الجهنّمية على طول جانبٍ واحدٍ من الحديقة، وقد التوت على نفسها بضراوة مُشكِّلة حاجزًا لا يمكن اختراقه. واصطّفت شجيرات «الباشن فروت» أسفل الحديقة على طول أسلاك السياج. وتدلّت من الأغصان ثمار صفراء ثقيلة، وكانَ بعضها مبقّعًا بآثار مناقير الطيور التي طَعِمَتْ منها. شعرتُ بأني بدوتُ سخيفًا وأنا أقفُ هناك في الشّمس بينما كان العرقُ يتصبّبُ مني.

شعرتُ بهما يلتفِتان إلى الخلف للنظر إليّ، وسمعتُ شهقة حادّة. ماذا! هل هذا أنت؟ لم أرك واقفًا هناك، يا عزيزي.. افترضتُ أن هذا هو ما كانَ سَيُقَال. مشيتُ نحوهما، مادًّا يدي اليمنى، وعلى وجهي ابتسامة سعيدة وفي عينيّ. لا نظرات متجهّمة مني! كنتُ في طريقي إلى نيل حظوتي. تقدّمَ بوانا أحمد بن خليفة لمقابلتي، خطا خطواتٍ مُتَئِدة، وقد أخذ وقتهُ متعمّدًا. كانت على وجهه ابتسامة مُتوددة. افترضتُ أنها الابتسامة التي احتفظ بها لأبناء

الأشقاء المساكين. كانَ شعرهُ مرقّطًا بالشيب، وشاربه المشذّب مليئًا بخطوط فولاذية من المعدن الأبيض. أقبلتُ عليه بيد واسعة مفتوحة، وربتُّ على يده باحترام شديد، بينما كنتُ أجاهدُ لالتقاط النَّفس من فرط حماستي، ثمّ أفلتُ يدهُ المرتخية. وما أفزعني، أنني كنتُ مستمرئًا هذا التذلّل. لم أشعر بأنَّ وجهي كانَ مبتسمًا. ربّما عادت العضلات إلى اتّساقها المكفهّر المعتاد. أمعنتُ في فغرِ شفتيّ، وضحكتُ ضحكة خفيضة مؤثّرة، علاوة على ذلك. ضحكَ كلاهما بحرارة، مفترضين أني أهرّج.

- هكذا إذن. قال خالي أحمد بن خليفة. كانت أختهُ لتزهو بما آلَ إليه، وكانت لتنظر إليه بعين الرهبة إزاء جاذبيته العابقة بالمسك والنفوذ. تذكرتُ موسى ودعاءه من أجل ستالين.

- وصلتَ إذن بالسّلامة. هل استمتعتَ برحلتك؟

هل لمستُ خيبة أملٍ في صوته؟ أكانَ يأمل أن تنقضّ عليّ أسود فوي[1]؟ أكانَ يحسب أن تجّار الرقيق الأبيض سيأخذونني ويرمونني في دكاكين الدعارة في أمستردام؟ كانَ حاملًا اليد التي صافحتها يدي بعيدًا عن جسدهِ، كما لو كانَ حريصًا على عدم تلويث ملابسه. رآني أنظرُ إليها، فَدسّ اليد في جيب سرواله. حلّ أزرار سترته، ومسّدَ برفق ثنيات بنطاله. وَملّسَ للحظات شاربه الرفيع المُعتَنى به جيّدًا. كانت عيناه ما تزالان متودّدتين مع أثرٍ من الانزعاج فيهما. وكان وجهه ما يزال مبتسمًا - أرى تلك الابتسامة الآن مطمئنة وصبورة. التفتَ إلى الفتاة وأومأ إليها بحركة سريعة من حاجبيه. فابتسمت هي ابتسامة واسعة، وهي تنظرُ إلينا بفضول. هل ظنّا أنني أعمى؟

---

(1) فوي: Voi أكبر بلدة في مقاطعة تايتا تافيتا في جنوب كينيا. تقع على الحافة الغربية لصحراء تارو(نيري) جنوب وغرب حديقة تسافو الوطنية الشرقية. تلال ساغالا إلى الجنوب.

قال متسائلًا: حسنًا، من الأفضل لنا الابتعاد من الشمس هنا. هل نذهب ونرى ماذا أعدَّ لنا الطاهي للغداء؟ كيف حال أمّك؟ هل هي بخير؟

ومشى من أمامنا، وهو يتحدّث بنبرةٍ مترويّة ولائقةٍ، موليًا ظهرهُ لنا. ما كانَ هذا رجلًا بالإمكان خداعه بابتسامات مُداهِنة. لم يبدُ من هذا النوع من الرجال على الإطلاق. كانَ رجلًا منيعًا، وتخيّلتُ بأنّ لديه قائمة كاملة بالأشياء التي لم يكن مسموحًا بها في وجوده، ومجموعة كاملة من السلوكيات والمجاملات والتي كانت وظيفتها الأساسية الإعلاء من مكانته وهيبته. كنتُ قد دخلتُ إلى عرين الأسد، إلى كهف العملاق (السيكلوب[1]). أين كانَ طبعه العنيف؟ كنتُ سأبذل قصارى جهدي لئلا أكتشفه. من يمكنه أن يتخيل هذه الأكياس المالية الهادئة الواثقة من نفسها، وهي تنفجرُ بالشتائم والألفاظ البذيئة مثل والدي العزيز. وما كانَ شخصًا بالإمكان إضعافه بحكايات الحب المثالي للمعرفة. كأن أقول: ما من شيء يمنحني المتعة أكثر من التكوّر تحت وهج اللمبة ذات الاستطاعة 15 واط، في دهليز بيت أبي، منهمكًا في اكتشاف جواهر تخيّلات الإنسان. لقد كنتُ مباركًا يا سيدي بفضول لا يمكن إشباعه... مُذ كنتُ قارئًا نَهِمًا.

تلكأت الفتاة مِن خلفنا. توقفتُ للسّماح لها باللحاق بنا. وقفتْ، ووقفَ هو أيضًا. ثمّ نظرا إليّ مُترقبين.

سألتُ: ما الشجرة التي كنتِ واقفة تحتها؟

رفعت كتفيها غير عارفة، وهزّ هو رأسه. شعرتُ بشعورٍ أفضل لذلك. قالت: «عندما تُثمِر تكون محمّلة بحبّات توت سوداء صغيرة طعمها لاذع مثل الحليب الفاسد. كنتُ أنوي معرفة حقيقتها. أنا متأكدة بأن البستاني

(1) السيكلوب: Cyclops عملاق في الأساطير اليونانية له عين واحدة.

سيعرف». لون عينيها رماديّ، لم ألاحظ ذلك من قبل.

«تعالا»، قالَ بوانا أحمد وهو يستدير صوب المنزل. نَقَفَ حشرة، وهمهم بشيء غير مفهوم. ثمَّ راح يفتش في جيوب سترته. خلعَ سترته، وظل ممسكًا بمحفظته بيده. وبينما كنتُ أتبعهُ على الدرج، ظللتُ أنظرُ حولي بعينين واسعتين وباهتمام السّاعي وراء المعرفة.

من عتمة المنزل سألني: هل قلتَ إن أمّكَ بخير؟ مرّت الفتاة من جانبي كي تقف بجوار أبيها، وما زالت ساكتة، كما لو كانَ ذلك بحكم العادة. ولاحظتُ بأنّها بدّلت بلوزتها التي بلا أكمام.

قلتُ: نعم، كلاهما بخير، أمي وأبي، وطلبا مني أن أبلغكَ أطيب التحيّات.

بدا داخل المنزل أقصر، ومن دون سترته بدا ممتلئ الجسم أكثر. ظهرَ عليٌّ من المدخل المقنطَر ظهورًا خاطفًا، حتى يتأكد بأننا صرنا هناك، ثمّ اختفى مجدّدًا. أشارَ إليَّ خالي كي أتبعه. دخلنا من خلال المدخل المقنطَر إلى غرفة صغيرة ومُشرِقة. كانَ الباب مُفضيًا إلى المطبخ. اعتمدتُ على حاسّة الشم في استخلاص هذه الملاحظة. كانت هناك طاولة كبيرة بيضاوية الشكل فُرِشَت عليها قطعة قماش بنّية اللون، ووضعِت فوقها الملاعق والشوك اللامعة. أرهبني هذا. نظرة واحدة على المنزل وعرفتُ بأنهم أناس يستخدمون الشوكة. ثمّ كانت هناك تلك الـ دادي.

قلتُ: لديكم منزل جميل.

ابتسمَ بوانا أحمد، وقال ملوِّحًا بيدٍ متراخية على صفّ القطع المعدنية: لا يتعيّن عليكَ استخدام كلّ هذه الأدوات إن كنتَ لا تريد ذلك. إنّ عليًّا يستمتع بتوضيب المائدة كما لو كنّا في مأدبة، حتى وإن كانَ يُقدِّم لنا بعض

الحساء فقط.

اتّخذَ مكانه على رأس المائدة البيضاوية، وتنهد بعمق وهو يجلس. ألقت عليه الفتاة نظرة خاطفة وابتسمَ لها مُطَمْئِنًا. كنتُ مستعدًّا لأي شيء، لكنني لم أتوقع نعومة الكراسي، ولا صلابة مَسند الظهر.

ذهبا إلى وسط المدينة معًا وتركاني لأخذ قسط من الراحة. استلقيتُ على السرير في غرفتي، وحاولتُ التفكير فيما كنتُ سأفعله لو كنتُ في منزلي. كانت محاولة لتشجيع نفسي فقط، إلا أنها هيّجت حنيني إلى منزلي. فكرتُ في والديّ، وبحماستهما عند رحيلي. وتساءلتُ عمّا إذا كانا يفكران بي في تلك اللحظة أيضًا، مُتسائلين كيف كانت تسري الأمور معي حيثُ أنا، ومُتخيّلين الانتصارات التي سأحوزها. شعرتُ بأني أصبحتُ ساخرًا بعض الشيء إزاء المعاملة التي تلقيتها من خالي وابنته. تمدّدتُ على السرير واستذكرتُ لقائي الأول بهما، عازمًا على تحديد السخرية في تصرفاتي، وأخذها بعين الاعتبار ثم شطبها من معاملاتي المستقبلية معهما.

غفوتُ، الأمر الذي لم أفعله قط بعد الظهر. كانَ قد بدأ الظلام يحلّ عندما أتى عليّ لإيقاظي. استمرّ في القرع على الباب حتى بعد أن ناديتُ عليه بأني صحوتُ.

صحتُ قائلًا: ادخل. فتحَ الباب، أشعلَ الضوء وضحك. لم يكن هناك سؤال حول ذلك. وقفَ بجانب الباب، مبتسمًا ومومئا مثل مُتآمر. فتحَ فمهُ وأغلقهُ وهو يمضغُ ببطء. واصل التمثيل الإيمائي بفركِ يديه معًا وبرمي الهواء على وجهه. أومأتُ لأُريهِ أني فهمتُ. كانَ الطعام جاهزًا وبإمكاني الذهاب لأغتسل. هل كانَ ثَمِلًا؟ لوّح مودِّعًا، وعبّر بمعصمه مثلما يفعل الطفل الصغير. أمطرني بمجموعة من الابتسامات الكبيرة ثمّ انصرف، وأغلق الباب برفق. عجّلتُ إلى الحمّام. بعد أن نمتُ طويلًا في فترة ما بعد

الظهيرة، أدركتُ أنني سأجد صعوبة في النوم ليلًا. لا بدّ وأنني كنتُ متعبًا أكثر مما توقعت.

غيرتُ ملابسي وارتديتُ قميصًا نظيفًا للمرة الثالثة في يوم واحد. كانَ عليّ غسيل بعض الأشياء قبل النوم. اختفى حذائي الخفيف. ثمّ عثرتُ عليه خارج الباب، مغسولًا ومعتنى به، الطرف الجانبي أُصلِح، وكان القماش لامعًا ومتصلّبًا، والفتحة عند غطاء إصبع القدم سوداء ومشرشرة مثلَ جرحٍ دميم.

كانا بانتظاري في غرفة المعيشة، غارقين في الكراسي القرمزية العميقة. كان الراديو دائرًا بصوتٍ واطئ. نهضَ خالي لتحيّتي، ابتسمَ وأرشدني إلى كرسيّ. كانَ قد بدّلَ ملابسه وارتدى قميصًا أبيض فضفاضا قصير الكُمّين، وجيوبه منتفخة بكيس التبغ والغليون؛ الصورة الحيّة للتاجر الموسِر بِتجلّيها اللطيف. كان الراديو بجوار رأسه، انثنى إلى الأمام وأطفأه. اضطربت الفتاة لدى ذلك وأشاحت بنظرها بعيدًا قبل أن يظهر الانزعاج عليها. ومع ذلك، لاحظ ردة فعلها، وابتسمَ لمرأى وجهها المتهرِّب. كانت قد بدّلت ملابسها من جديد، وارتدت بلوزة فضفاضة كريمية اللون. كانت مُطفَأة اللَّمعة ومظهرهُا يدلُّ على أنها باهظة الثمن، وتساءلتُ إن كانت من الحرير. بَدَت جميلة، رصينة وضابطة لمشاعرها. كانَ هناك فخرٌ لا تخطؤه العين في الطريقة التي ينظرُ بها والدها إليها. نظرتْ إلى حذائي وابتسمت.

«صِينيّ»، قلت، وأنا أفكّرُ في تبرير خراب الحذاء بهذا التعليل.

قالت: آاه. ورقبتها مشدودة إذ بذلت جهدًا وهي تتمطى إلى الأمام لإلقاء نظرة متفحصة على حذائي. لمحتُ بروز نهديها، وسرعان ما أخفضتُ بصري. قالت ساخرة من توتّري: تحفة فنية.

والأبُ أيضًا، مالَ إلى الأمام بنظرة اهتمام جادّة: هل الفجوة أتت مع الحذاء أم أنكَّ صنعتها عن عمد؟

شاركتهما ابتساماتهما، معتبرًا هذه الإغاظة المازحة نوعًا من الترحيب. جرّبتُ التفكير في قولٍ شيء ذكيّ مُنتقِد للذات، لكن كل ما شعرتُ به هو الاستياء لأني اضطررتُ للحديث عن الأحذية. «إن حالته مزرية أليس كذلك؟ ومع ذلك كانت نوعيته جيدة».

سألني: هل تملكُ كثيرًا من المنتجات الصينية في البيت الآن؟ المنتجات الصينية الوحيدة التي رأيتها هنا ذات نوعية رديئة للغاية.

أجبتُ: إنها زهيدة الثمن.

قال خالي مُبتسِمًا لِنباهتِهِ: اشترِ الرخيص، ادفع لاحقًا!

قالت الفتاة: مهما كانَ ما دفعته لقاء حذاء كهذا، فهو لا يستحق. من الأفضل لك أن تعطيه لأحد ما.

لم تبتسم حين قالت هذا، لكنها نظرت في اتّجاه آخر للحظة وعلى وجهها الذي أشاحت بهِ شيء من الخجل. أتى عليٌّ ليدعونا إلى العشاء، وليسمح لحذائي المسكين بالخروج من هذا المَطْهَر[1]. كانَ الطعام موضوعًا على المائدة. حامَ عليّ عندَ باب المطبخ، وعلى وجهه ابتسامة بلهاء. غمزني خالي أحمد ليبيّن لي بأنه يعلم بأن الخادم يتصرّف بطريقة غريبة.

ثمّ سأل: ما الذي لدينا للعشاء اليوم، يا عليّ؟ آمل أنك تذكرت بأن لدينا ضيفًا. ماذا أعددتَ لنا؟

كان بإمكاني أن أخبره ما الطعام. كنتُ أشمُّ رائحته منذ اللحظة الأولى

---

(1) المَطْهَر: حسب العقيدة الكاثوليكية، مكان تُطهرُ فيه النفس بعد الموت بعذابٍ موقوت.

التي فتحتُ بها عيني، والتقطَ أنفي رائحة البرياني التي لا لبس فيها. لم يُجِب عليّ، لكنّهُ صفَّ الأطباق أمام الوعاء الخزفيّ الكبير. عندما أخذنا جميعًا أماكننا، رفعَ الغطاء وابتسمَ ابتسامة الفوز في وجوهنا جميعًا.

هَتَفت الفتاة وصَفَّقت مُبتهجة: إنهُ برياني!

كانت الطبق مُشهيًّا لدرجة أني شعرتُ بأن أنهارًا من اللعاب تفيضُ في فمي. لمن كانت هذه المسرحية الإيمائية؟ لا بدّ وأنهم عرفوا بأنّه برياني. من عساهُ يُخطئُ بِشَذا ذلك الطبق النبيل؟ سكبَ عليّ في الصحون ملعقة ممتلئة تلو الأخرى. تلألأت حبات الأرز الصفراء في الصحون مثل الكوارتز. قطعٌ كبيرة من اللحم رابضة ضمن الأرز، تقطرُ دهنًا وعصارات. كنتُ آخر من سَكبَ له، بناءً على إصراري، وسمحتُ لهُ بتكديس الطبق حتى شعرتُ بأنَّ طلبَ المزيد سيكون بمثابة الانتقال من المهرّج الطفولي إلى الفقير الجَشِع. وببهجة الطبّاخ أبانَ لي لتّيه. غاصت يدي وانزلقت بين اللحم والأرز. أخذتُ لقمةً ملء فمي ومضغتها ببطء، مُستسلمًا لحلاوة اللحم الطريّ. كانَ علي يراقبني مسرورًا بفمٍ فاغرٍ. تنهدّتُ من الرضا وضحكوا جميعهم. أعطاني عليّ قطعة أخرى من اللحم مكافأة. أثنيتُ على نفسي، وهو المطلوب!

القريب المُعدَم الأشبه بالمهرّج لدرجة أنّه لم يدرك أيّ شيء تافه صنعَ من نفسه. الفتى الريفي جاء إلى المدينة، ويسيلُ لعابه مثل جامِع الخِرَق المعاد تأهيله، لدى كل لقمةٍ من الطعام اللذيذ.

«هل أحببته؟» سألني عليّ بِفرحٍ لا يخلو من الاستعلاء. وقد أمضى الوجبة بجواري وهو يطرح عليّ أسئلة حول تناولي للطعام، مُضيفًا القليل من المعلومات التاريخية حولَ تطور هذه الوجبة، من الكُتَل المكوّنة لها، إلى الإبداع الذي كانَ يقوّضُ نسيج هويتي الريفية. حذّرتُ نفسي من عدم المبالغة، وإلا سيظنون أنني كنتُ أضحك منهم. ما بين الحين والآخر كانَ

عليّ يكتشف قطعة لحم مدفونة تحت حبّات الأرز المتداعية، وبصرخة فرح كانَ يسحبها ويضعها في طبقي. أكانَ يجري تَسْميني....؟ في كل مرة كنتُ أتوقفُ عن الطعام كان يضطرب ويقلق، وينتظرني كيف أستأنف. استحوذَ على المحادثة بِأقاصيص عن الطعام. كنتُ مُستغرِبًا لأن خالي سمحَ له بالاستمرار في ذلك، وبدأت أتساءل عمّا إذا كان طرفًا من نكتة خاصة معقدة لم أفهمها. كانَ عليّ رجلًا مختلفًا عن الخادم المتكبر الذي قدّمَ لنا الغداء. ربما كانت هذه هي حقيقته. ربما الرجل المتغطرس الذي كنتُ قد رأيته سابقًا كان ضحية أفكار قاتمة وتنبؤات مأساوية أكثر من كونه رجلًا في أفضل حالاته. كانَ هناك شيء خارج عن السيطرة في الطريقة التي راح يتقافز بها بجانبي. لم يَظهَر على بوانا أحمد أيّ تبرّم أو نفاد صبر، لا بل ابتسمَ بِحقّ، وكان مهتمًا بأداءِ عليّ ومُستمتعًا به.

سمعتهُ يُخاطب ابنته باسم سلمى. سلمى ذات العينين الرماديتين الجميلتين! كان من المهم بطبيعة الحال عدم إعطاء اسمها لي. وما كنتُ أراها على أنها شخص يمكنني مناداته باسمهِ كما يحلو لي. باحت بالقليل، وكانت قانعة بمتابعة المحادثة بعينيها. كانت مهتمة بتهريجي ومُتسلّية، لكنها كانت بعيدة ومنشغلة الفكر، كما لو أنها تنأى بنفسها. تراءت على مُحيّاها ابتسامة شاردة من حينٍ إلى آخر، بالطريقة التي تحدث عندما يشاهدُ المرء طفلًا ضَجِرًا يلعب. لمّا فرغتُ من إشباع شراهتي تراخيتُ في مقعدي، خَجِلًا من عملي المسائي ذاك.

قلتُ مُبتسِمًا ابتسامة عريضة في وجه مُضيفي: «الآن عرفتُ معنى أن تكون ثريًّا».

كانت تلك العبارة أسوأ ما يُقال، وقحة وتحملُ تلميحًا بالعَتب. ابتسمَ بوانا أحمد باستياء، مُتقبّلًا الانتباه الذي وجّهتهُ إلى فقري. رَنَت سلمى إليّ

وكأنها لاحظتني للتوّ. جعلَك ذلك تنتصب في جلستكَ، أليس كذلك أيها الدمية؟ رائحة تمرّد في الهواء. ابتعد عليٌّ عني أخيرًا، وأدركتُ كم كانَ وجوده بجوار كتفي مُوتِّرًا. طَرَفتُ إلى سلمى لأكتشف، ولدهشتي، أنها كانت تنظرُ إليّ. فنظرتُ شاعرًا بالذنب إلى بوانا أحمد. كانَ محدّقًا بها. مَسحَت الابتسامة عن وجهها في اللحظة التي التقت فيها عيناها بعينيه. بادلتهُ النظرة، ورأيتها تدفع ذقنها إلى الأمام بنفس الطريقة التي فَعَلَتها معي سابقًا. شاهدتُ هذه الدراما الصغيرة بقلق. لم أُرِد أن يبدأ خالي في الشكّ بي. حتمًا لم يكن هناك سبب! من المؤكد أنَّ سِحري ونظراتي الخلّابة لم تجرح قلبها بعد! أردتهُ أن يعتقد بأني شابٌّ سخيف وغير مؤذٍ، أحمق يستحقّ سخاءه. بالتأكيد لا داعي للقلق! التفتت الفتاة إلي مجدّدًا، وهي جالسة جلسة مستقيمة في كرسيّها. كانت عيناها تقدحان غضبًا. ضحكَ ملاطفًا وأومأ إيماءة صغيرة تعبيرًا عن الهزيمة. كانَ قد أقرَّ بِخطئهِ، ونظرت هي إليه نظرة مظلومة. وتساءلتُ كيف اعتقدا أني فهمتُ هذا التصرف. حاولتُ تخيّل أبي وهو يومئُ تعبيرًا عن الهزيمة، وكانت الصورة بعيدة الاحتمال لدرجة أني عجزتُ عن كبت ضحكتي. فَنظرا إليّ، ورأيتُ في أعينهما بأنهما حَسِبا بأني كنتُ أضحكُ على درَامَاهما الصغيرة.

سألتني سلمى بعد فترة صمتٍ وجيزة: هل ستمكثُ معنا طويلًا؟

نظرتُ نحو بوانا أحمد، آملًا أن يقدّم لمحة عن احتمالاتي. فنظرَ بعيدًا، باتجاه باب المطبخ، وقال: لماذا لا نذهب إلى غرفة الجلوس؟ سُيحضِر عليّ القهوة إلى هناك عندما يتذكر. هيّا بنا.

وبينما كانَ ينهض من على الطاولة، لمحَ يدي المكسوّة بالدُّهن والزعفران. كانا قد استخدما الملاعق. نظرة اشمئزاز خاطفة عبرت وجهه. قلتُ: المعذرة. وأسرعتُ إلى الحمام لأغسل يدي. نظرتُ في المرآة وفكرتُ إلى متى

سأحتمل أن أظلّ ضيفًا في منزل بوانا أحمد بن خليفة ومدينته. عندما عدتُ كانا يتحدثان عن عليّ.

قالت سلمى: إنه يُحبّك. لقد كنتَ المفضل، أظنُّ...

قال بوانا أحمد بِضيقٍ وتململ: لقد كان يدخن الحشيش مرة أخرى.. إنهُ يدخنُّ كل مساء..

جاء عليّ ومعه القهوة. بَدا مُستعجلًا، وضعَ الصينية على الطاولة وانصرفَ دونما كلمة واحدة. تبادلَ الأبُ وابنتهُ نظرةً، وهزَّ بوانا أحمد رأسه: سوفَ يذهب الآن وَيضرب زوجته. عندما يحدثُ شيء ما... وصولكَ اليوم... إنه يُدخّنُ كثيرًا ويتصرف كالأحمق. ثمَّ يضرب زوجته، المرأة المسكينة. هذا كلّ ما يعرفونه... الحشيش والنّساء والعُنف. ثم يعتقدون أنّهم قادرون على حُكم البلاد.

قامت سلمى، وصبّت القهوة. سألت بالإنكليزية: سوداء أم بيضاء؟

لا بدّ وأني بدوتُ مُتحيّرًا. ابتسمت، وهي تتذكر الطريقة التي قدمتُ بها نفسي في الصباح. سألتني: هل تريدُ الحليب في قهوتك؟

أجبتها بتردّد، وقد حرصتُ على عدم الفشل في اختبار آخر: لا، شكرًا لك.

أصرَّ خالي أحمد: جرّبها. الحليب والسُّكر يجعلان مذاق القهوة لذيذًا للغاية. ليس مثل تلك الأشياء المُرّة التي تشربونها في السّاحل. جرّب القليل.. أعطه شيئًا من القهوة يا سلمى.

أعطتني كوبًا يحتوي على سائلٍ عَكِرٍ ذي مذاق مقزز، تلمّظتُ وهمهمتُ بسرور وأنا أرتشفه. ابتسمتْ بينما رفعَ والدها عينيه إلى السماء بسبب جهلي.

نهضَت لتختارَ كتابًا من على الرفّ من خلفي، وَوقفت خلف مقعدي، وراحت تُقلّب الصفحات ببطء. وغمرني إحساس عارم بالسعادة من تلك الألفة التي بدرت منها إذ قامت بذلك التصرف العادي دونَ تكلّف. عادت إلى كرسيّها، وتحركت قليلًا للحصول على إضاءة أفضل، وانشغلَت باسترخائها. من حيثُ كنتُ جالسًا، بدا العنوان وكأنهُ «سهولٌ مختارة». بَسَطت الكتاب على حجرها، ووضعت قبضتها تحت ذقنها وَانهمكت في قراءتها. أسكتني بوانا أحمد بصوتٍ خافتٍ بِشَفتين شِبه مُغلقتين، وهو ينظرُ أمامه. ثمّ على حين غِرَّة، مثلَ رجلٍ دبَّ فيه الإلهام، وقفَ وأشعلَ الراديو. فتّشَ بين كومة من الكتب وأخرج ألبوم صور. أعطاني إيّاه دونَ أن يتلفّظَ بكلمة، ولكن مع ابتسامة عريضة. أمضينا ما تبقى من الأمسية في الفرجة على الصور الفوتوغرافية. لم تكن هناك صور لوالدة سلمى، ولم يأتِ بوانا أحمد على ذِكرها.

كانَ الوقتُ ما يزال مبكرًا عندما قررت سلمى الذهاب إلى النوم. خرجت من الغرفة مُتمنية لنا ليلة سعيدة هادئة. حزنتُ لرؤيتها تذهب. حتى جلوسها على كرسيّها بِسُكون كانَ مريحًا. وجدتُ صعوبة أكبر في كبح التثاؤب بعد انصرافها. في خاتمة المطاف، اعتذر بوانا أحمد عن إبقائي مستيقظًا لوقتٍ متأخر بعد رحلة طويلة، وأصرَّ عليّ بأن أذهب إلى الفراش. تركتهُ محتضنًا ألبوم صوره، ومنهمكًا في البحث عن غليونه.

استيقظتُ من النَّوم والشّمسُ في عينيّ. كانت النافذة مفتوحة، وشممتُ رائحة الرطوبة في الجوّ. أيًّا كانت الطريقة التي استلقيتُ بها، كانَ السريرُ مُريحًا وَليّنًا مطواعًا. كانت الملاءات ما تزال متخشّبة بعض الشيء لأنها جديدة، وبها أثرٌ خفيفٌ من العِطر. تخلل الشبكة على النافذة تغريد طيرٍ خافت. كانَ الهواء مفعمًا بأريج النّسغ الأخضر في النباتات النامية في الخارج.

كنتُ مُتردّدًا بالتحرّك، سَابحًا في ذكرى الحُلُم الذي صحوتُ منه.

الشبكة الناعمة الموضوعة على النافذة كَسَرت حِدّة الشمس، ناثرة الضوء في جميع أرجاء الغرفة، مما زاد من عدم واقعية الغرفة. تقلّبتُ وأغمضتُ عينيّ. اقتربت سيارة، وارتفعَ صرير عجلاتها عند واجهة المنزل، ثمَّ أسرَعَت مُبتعدة. شعرتُ أنّ بوسعي الاستلقاء هناك إلى الأبد، مُختبِئًا من المهمّة التي أوصلتني إلى هذا الملاذ الآمن.

لم أستطع أن أتخيل نفسي وأنا أطلب المال من بوانا أحمد. لقد رأيتُ ما يكفي لأخمّن بأنه لن يُعطيني شيئًا. كنتُ أعلم بأنه يحتقرني نوعًا ما، ليسَ بسبب شيء فعلته أو قلته، ولكن بسبب ما كنتُ هناك من أجله، ولِما كنتُ عليه. ولم أكن التخيّل أن تهريجي على مائدة الطعام قد أحدثَ أيّ فرق بطريقة أو بأخرى، باستثناء أنهُ جعلهُ مرتابًا مني. وغضبه من اهتمام سلمى الوجيز بما قلتهُ، لم يكن بسبب خوفهِ على عفّتها، أو لأنهُ افترضَ أني جئتُ سرًّا لمغازلة ابنة خالي الثرية. لو أنه خشيَ مثل هذه الأمور لكانَ طلبَ مني المغادرة على الفور. أعتقدُ أنهُ أراد الحفاظ على جوٍّ من العِداء والرفض، وبأن يكونَ مضيافًا ومُصِيبًا، ولكن كل ذلك لإغلاق الطرق التي ستتيح لي طلب الخدمة التي أتيت من أجلها. لهذا السبب تظاهرت سلمى بِجهلها لوصولي. لا أصدق أنهُ خُطِّطَ لكل شيء، ولكن بوسعي أن أتخيل بوانا أحمد يقول لسلمى: لقد أتى إلى هنا لطلب المال. لذا لا تُشجعيه. وبوسعي أن أتخيّل سلمى بطريقتها الرزينة الواثقة من نفسها وهي تستمتع بفرصة تحجيم الفتى الريفي بِلطف. لماذا لم يقل لا منذ البداية فقط؟

كنتُ قد فكرتُ أنه إذا ثبتَ أنه من الصعب التفاهم مع خالي، فسوف يتعين عليّ أن أذكر - وإن كانَ يحزُّ في نفسي يا خالي إثارة الموضوع على الإطلاق - ميراث أمّي. أما وأني رأيتُ الرجل، ولمستُ جانبًا من تعاليهِ

المتعجرف، فلم أعتقد أنّ بوسعي فعل ذلك آنئذ. ومن المحتمل أنه دعاني من أجل الميراث، ليرى إن كان ما يزال قضية قائمة بالنسبة لنا، ليرى إن كنتُ سأثير الموضوع. بإمكاني تصوّر الازدراء الذي يطردُ به مثل هذا الاحتمال. القريب الفقير لم يأت لطلب معروف، بعد كلّ شيء، بل للمطالبة ببعض الحقّ المتخيل من الميراث.

ثمّ بدأت أفكر في أنني ربما كنتُ غير لطيف معهم. ماذا كان بوسعه أن يفعل أيضًا برسالة والدي؟ ربما حَسِبَ بأنّي سأستمتعُ بالإجازة. بدأتُ أشعرُ بالذنب بسبب المتاعب التي كنتُ أتسبب بها لهم. كنتُ مُحرَجًا، وكلُّ ما فعلتهُ من تهريج هو لجعلهم يشفقونَ عليّ ويزدرونني. كانَ من الممكن أن يعاملونني معاملة أسوأ. لم يكن لديّ أية أوهام حولَ ذلك. أعتقدُ أنني كنتُ سأغادرُ بكلّ سرور لو استهديتُ إلى طريقة لقيام بذلك دونَ أن أبدو أحمق في نظر والديّ.

لم يكن في المطبخ أحد عندما ذهبتُ إليه. كانَ المكان مَطليًّا بطلاء زاهٍ عبارة عن تدرّجات من اللون الأزرق. كانت الخزائن على امتداد الجدار، وثمّة حوض لامع من الألمنيوم تحت النافذة. ومن وراء الباب الخلفيّ وقفت ثلّاجتان طويلتان بجانب بعضهما البعض. تعجّبتُ من النظافة والتنظيم في كلّ شيء، وابتسمتُ بيني وبين نفسي عندما عَرَضَتْ صورةُ الحُفرة المسودّة من الدُّخان في الفناء الخلفي في بيتنا نفسها للمُقارنة بهذا المطبخ. لم أتفاجأ أنني لم أرَ ما يدلّ على وجود صراصير في المنزل. ماذا سيأكلون؟ لم أستطع رؤية أيّة طعام.

برطمانات زجاجية لها سدادات مصفوفة على الرفّ بجوار النافذة ذكرتني بصفوف قوارير العيّنات على مقاعد المُختَبر في المدرسة، محتوية على ما يشبه كتل الجثث المخلّلة في محلول ملحيّ عَكِر. تساءلتُ إن كنتُ سأخرجُ ببعض

الخبز إن بحثتُ في الخزائن. وجدتُ علبة قهوة من القصدير. كنتُ قاعدًا إلى طاولة مُربّعة من الفورميكا، ذات تدرّجات باللون الأزرق أيضًا، في انتظار الماء حتى يغلي، عندما دخلَ عليّ من الباب الخلفيّ. نظرَ إلي ببرود للحظات، وكان منذهلًا للغاية بشأن اتخاذ قرار بالوجه الذي سيقابلني به. رأيتهُ يُفكّر فيما إذا كانَ سيمتعضُ من وجودي، ثمَّ ابتسمَ ابتسامة عريضة.

سألني: هل تريد مزيدًا من البرياني؟

قدّمَ لي البيض على الإفطار. كانَ مرتديًا شورت برمودا ممزّقا وقميص تينس عتيقًا. كانت ربلة ساقه اليسرى من الخلف مشوّهة بندبة كبيرة، ولاحظتُ أنهُ يتجنّب وضع كل وزنه على الساق اليسرى. انهمكَ بالعمل من حولي، أفرغَ الوعاء الذي وضعتهُ على الموقد وملأ الغلّاية. أخرجَ كرتونة بيض من الخزانة وسألني إن كنتُ أريد البيض عينَ بقرة (بيض عيون) أم مخفوقًا. وأوضحَ أنَّ عين البقرة هي بيضة مقلية مع صفار غير مكسور. كانَت متعة نادرة أن أتناول البيض، وفاضَ الرّضابُ في فمي من الترقُّب.

التفتَ ليبتسمَ لي وقال: لقد ذهبا إلى وسط المدينة. انتظرا.. لكنك كنتَ نائمًا. أنتَ تُحبُّ النوم، أليس كذلك؟ الوقت متأخر. تذهبُ الآنسة سلمى إلى العمل يومين في الأسبوع، ولا يحبُّ السيد أن يتأخر.

ابتسمَ مرة أخرى، مُتفهمًا، لكنه لم يَعفني من اللوم لأنني مكثتُ في الفراش لوقتٍ مُتأخر. قال: «لا بدّ أن الرحلة كانت مُتعِبة. قدّرتُ أنهُ يجب أن يكونَ في الأربعينَ تقريبًا، نحيفًا ومُتلَفًا، إلا أنّ جسده احتفظَ بما يُبقي لهُ على بعض المهابة. لم أكن أتخيّله يضرب زوجته. بدا ذلك الصباح رجلًا مهزومًا ميؤوسًا منه، يتكلّف الاهتمام بِضيفٍ كانَ مسموحًا لهُ بأن يكرهه. كانَ يقلي البيض بِمزاجٍ مَرِح. ما من شيء يعجبني أكثر من قلي بعض البيض لضيفٍ شابٍّ يظلُّ في فراشه إلى ما بعد الحادية عشرة صباحًا. كانَ يلتفتُ إليّ ما بين حينٍ

وآخر فأرى نصف وجهه، وعينهُ كما الصّقر على المقلاة الدُّهنية المتصاعد منها البخار.

قال: لم أذهب أبدًا إلى السّاحل من قبل. لقد سمعتُ عنه الكثير... يستلزمُ السّفر إليه يومًا واحدًا فقط، لكني لا أجد الوقت أبدًا. هل تريد البيضَ مقلوبًا؟ سأحضِرُ لك فطورك إلى غرفة الطعام إن شئت.

تحدّثَ بمزيجٍ من الإنكليزية والسواحيلية ولكن اللغة السواحيلية طَغَت بالتدريج على الإنكليزية في كلامه.

أجبتهُ: سوفَ أتناول طعامي هنا، إن لم يكن هناك مانع طبعًا. هل بإمكاني الحصول على بعض الخبز؟

قالَ وهو يتحرّك بِخفّة لإيقاف الغلّاية: أوه، حسنًا حسنًا. صَبَّ لي القهوة ووضعها أمامي. قطّعَ رغيفًا كاملًا إلى شرائح ووضعهُ أمامي قبل أن يُقدِّم لي البيض. قال وهو يرمقني من تحت حاجبين كَثّين: لقد سمعتُ كثيرًا من الأشياء. وأردفَ بنبرة رفيقة مُطَمْئِنة، وهو يتحرّك نحو حوض المجلى: مثيرة للاهتمام جدًّا.

كانَ البيضُ شهيًّا. كانَ عليّ قد سكبَ الحليب في القهوة. ارتشفتُ القهوة باستسلام. قالَ وهو يبتسمُ ابتسامة مُتزلِّفة: سمعتُ بأن الناس في الساحل مُتحضّرون.

فضحكتُ. وارتعشَ وجهه، كما لو أنّ موجة ألمٍ داخلية عبرته.

أجبتهُ ظانًّا أنّي جرحتهُ: نعم، الناس يقولون أشياء من هذا القبيل.

- ولكن هل هذا صحيح، أم لا؟

قلتُ: هذا البيض لذيذ.

قالَ من فوره دونما تفكير: لا بأس. صديقي أخبرني بذلك. قال إن الناس هناك متحضّرون للغاية. وقال بأنهم ليسوا قُساة أو فظّين ولا وقحين.

وتساءلتُ إن كانَ يُخادعني بالكلام. كانَ ثمة الكثير مما لم يُقَل. لا بدَّ وأنه التقى بأشخاص من السّاحل، ولا بدّ أنه كانَ يعلم بأنّ صديقه كان سمحًا طيب النفس. من المحتمل أنهُ عنى ببساطة أن الناس في الساحل كانوا من الأجانب، وبأنه كانَ يمثّلُ اللطف في إخباري كيف أن الاغتراب أفضل بكثير ليطمأنني.

سألتهُ: هل صديقكَ أصله من السّاحل؟

أجاب: لا! وكأنهُ أوقعني في شرك المجادلة. واستطردَ قائلًا: لا، لا، إنه من تورورو[1]، لكنه عاش في الساحل سنوات عديدة. أخبرني بأنه يوجد هناك بعض المحتالين والأوغاد - بينما كانَ ينظّف بالفرشاة بعض الشوائب الصغيرة - ولكنهُ قال إن سكان الساحل الحقيقيين مختلفون.. أخيارٌ ومتمدنون.

قلتُ: أظنُّ أن صديقك كان يكذب.

لاحَ على جبينه تقطيبٌ طفيف بسبب الانزعاج. أحسستُ به مُنسحِبًا، وهو يرمقني مرّة أخرى. ثمّ تجلّت في عينيه نظرة خبيثة. «أنت تقول إنه يكذب. لقد قال بعض الأشياء السيئة». تردد ليس بدافع عدم اليقين المؤلم الذي كانَ يحاول الإيحاء بأنه يشعرُ به، ولكن بحذر، بِجَسِّ النبض قبل الاقتراب من ضحيّته. ابتسمتُ مُشجّعًا، داعيًا المزيد من خبثِهِ، مُتلهفًا إلى الإذلال. نظّفَ الصحون المتّسخة، في حين كانَ يُذكي أذيّته. عندما استدار

---

(1) تورورو: Tororo مدينة في المنطقة الشرقية من أوغندا. تُعتبر المركز المحلي والإداري والتجاري الرئيسي لمقاطعة تورورو.

إليّ، ابتسمَ ابتسامة متصنّعة يشوبها التوتر، وكأنه بتصرفه هذا كان يعتذر عن الأشياء المؤذية التي أُجبِرَ على قولها.

- قال إنهم أناس أذكياء. إنهم يحتالونَ عليكَ طوال الوقت ولكن لا يمكنكَ أن تُسمّيها سرقة. ابتسمَ من جديد، وأنا انتظرتُ. أفترضُ أني كنتُ أعلم ما سيقوله. تردّدَ مجدّدًا، وَعَلا وَجهَهُ اشمئزازٌ: يوجد كثير من العرب هناك. يقول إنّ الرجال والرجال يمارسونَ الجنس معًا. أتعلم، إنهم يَلِجونَ بعضهم البعض من الخلف، مثلَ الكلاب.

كانَ قاعدًا الآن، إلى الطاولة قبالتي. هزَّ رأسهُ ببطء، وأدار وجهه بعيدًا عني: إنها قذارة.. مثل الحيوانات! وتغضّنَ جبينهُ كما لو أنه كانَ ممتلئًا بالرهبة والذهول، ولكنّ عينيه كانتا تبرقان من السرور. تطلّعَ في وجهي ملتمسًا الإيضاح والتفسير. وعندما لم أقدّم أي شيء، هزّ رأسه وكانَ فمه فاغرًا بعض الشيء. قال: الرجال ليسوا كذلك. ماذا يفعلونَ بأولئك الرجال عندكم؟ هل يضعونهم في السجن؟

للحظةٍ رهيبة، تساءلتُ عمّا إذا كانَ عَليًّا قد تلقى تعليمات للكلام بتلك الطريقة. وفكرتُ في والدي وعاره، وتمنّيتُ لو أستطيع مغادرة ذلك المنزل والعودة إليهم، وأقول لهم إننا لا نستحق أفضل مما نحنُ عليه. العالمُ بأسره يزدرينا. رجعَ عليّ إلى حوض المجلى ليغسل الصحون، بابتسامة على وجهه. أعددتُ لنفسي كوبًا آخر من القهوة، بِلا حليب هذه المرّة. قال، بصوت منخفض: سمعتُ، إن المرأة البيضاء تمارس الجنس مع كلبها. سمعتُ بأنهن يسمحنَ للكلاب بِلعقِ أجسادهن. أخبرني بذلك صديقٌ يعمل لدى أوروبية. هل القصة حقيقية برأيك؟ قال إنه كانَ هناك علامات على كل جسدها.

رفعتُ كتفيّ غير عارف، وابتسمتُ له. حَمْلَقت عيناهُ الكبيرتان في وجهي

بِجمُود. انجابت الآن فترة إطلاق العنان للنوايا الخبيثة، وتوارت خلف هذه الحيادية التي لا لوم عليها. ثم قال: ستمطر اليوم.

الذكرى تخترقُ العظم. كانت قد قالت: «ستمطرُ الليلة»، بينما كنا جالسين في الحوش تلك الليلة، ونختلقُ هذا الحُلمَ الخيالي. خرجتُ إلى الحديقة. تدحرجت التلال أمام ناظري وامتدَّت، عَظُمَت ثمَّ تَضاءلت في المدى البعيد. كانَ الضوء أخفّ وطأة من الضوء الصارخ في المنزل، وباهتًا أكثر. تمشّيتُ نحو الأشجار، مُتتبّعًا الخطوط البيضاء لملعب الريشة الطائرة. على الجانب الآخر من السياج الخلفيّ تَرامت حقول واسعة مغطّاة بالعشب البني الطويل. ومن البعيد بَدَت التلال وكأنها تتلاشى في الضباب، كما لو أنها أصبحت جزءًا من السّماء. بالقرب من السياج، غير مُكترثين لِحضوري، كان هناك طَيْرا كُركي أحمران. توقفتُ لمدة طويلة وأنا أراقبهما. في النهاية، تبدّى الارتياب في أعينهما. وعندما تحرّك عُنقاهما باهتياج، انزلقَ الضوء عن ريشهما الرمادي اللامع وتطاير في شراراتٍ صُفرٍ وخُضْر.

مشيتُ عائدًا إلى الأشجار وتمددتُ تحت ظلال شجرة صوفيّة[1]. صحوتُ مذعورًا، مندهشًا أنني قد نِمتُ مرة أخرى. تبدّلت السّماء من فوقي. ولم تعُد الشمس تشرق من خلال الأشجار، واختفت بقع السُّحُب المتناثرة المرحة، ابتلعتها كتلة ضخمة عَكِرة، تحمل في مظهرها التهديد والوعيد. وكانَ الهواءُ ثقيلًا مثلَ أنفاس بيتٍ بلاستيكي خانق. كانت الغيوم في حركة دائبة، مثل الإكتوبلازم[2]. كانَ هناك صمتٌ متوقع في الهواء. صرخة حادّة شَقّت الأثير

---

(1) شجرة الصوف: من فصيلة شجر القابوق أو الكابوك Bombax. ثمارها بيضاوية الشكل تتخذ قشرتها الخارجية اللون الأخضر، ثم سرعان ما تتفتح عند نضجها فتنبثق منها مادة وبرية كأنها ألياف قطنية أو صوفية تستعمل في صنع حشوة الوسائد و الحبال وعجينة الورق.

(2) إكتوبلازم: Ectoplasm هُيُولىَ ظَاهِرة. مادة يُعتقد أنها تحيط بالأشباح والمخلوقات =

في المدى البعيد. بَدَت وكأنها مُنبعثة مِن التلال.

انتظرتُ المطر. شعرتُ بخمولٍ طاغٍ، وبعزيمة مثبطة. عندما هطلَ المطر، كانَ مباغتًا وشديدًا على نحوٍ مؤذ. تركتهُ يَسفعني بضع دقائق، مُتشرِّبًا الصَّلابة والقوة من طاقتهِ. ثمَّ نهضتُ وركضتُ إلى المنزل، واجتزتُ درجات الشُّرفة بوثبتين اثنتين.

كنتُ في غرفتي عندما رجعا إلى البيت في وقت متأخر بعد الظهر. رأيتُ سلمى تمشي حولَ زاوية السور الشجري وتنعطف إلى أسفل الطريق نحو المنزل. كانت قد حلّت عقدة شعرها المشدودة، ومشّطتهُ إلى الوراء. مما جعل وجهها يبدو أنحف وأكثر صرامة. أظنُ أنها اختلست النظر إلى نافذتي من زاوية عينها، وربما رأتني هناك. أتى بوانا أحمد بِسيّارته بعد ذلك بقليل. خرجتُ إلى غرفة المعيشة لكيلا يعتقدان بأني منعزل وَسَمِج. كانَ بوانا أحمد متعكّر المزاج. سمعتُ صوته آتيًا من المطبخ. كانت سلمى على الشرفة، ترشفُ مشروبًا غازيًّا وترنّقُ النظر إلى الخارج عبر الحقول المخضلّة بالمطر.

سألتني وقد بدت مرهقة وبائسة: هل حصلت على قسطٍ جيّد من الراحة؟

قلتُ وأنا أقعدُ إلى جوارها على الشرفة: بل ممتاز! خرجتُ إلى هناك هذا الصباح، ونمتُ تحت تلك الشجرة الصوفية. انظري، ما زال بإمكانك رؤية كوب قهوتي هناك.

أومأت برأسها لي وابتسمت. قالت: لا بدّ أنك أُصِبتَ بمرض أو شيء من هذا القبيل.

- بسبب تبدّل الجوّ هنا.

=الأخرى المرتبطة بالأنشطة الروحية.

قالت: يجب أن أذهب وأغتسل. وضعت كأسها على حائط الشرفة وسارت مبتعدة. مرّ بوانا أحمد بالجوار، ونادى بالتحيّة: حسّان، لقد استيقظتَ أخيرًا.

ناديتُ مُجيبًا: أنا في عطلة، أليس كذلك؟

قال بوانا أحمد إنه لن يتناول سوى عشاء خفيف، وتعيّن على عليّ العودة إلى المطبخ والتفكير في وجبة ملائمة. كانَ الوقتُ مُبكِرًا جدًّا عندما دعانا إلى المائدة، وكان ضياء النهار ما يزال متدفّقًا عبر نافذة غرفة الطعام.

- أين هو؟ استعجلنا بالقدوم إلى هنا، وتركنا ننتظر. هذا الرجل أحمق. عليّ! استندَ بوانا أحمد في كرسيّه، في انتظار أن يُلبّي عليّ نداءه.

أراحت سلمى وجهها على يدها، مُعتمِدة بمرفقها على الطاولة. انعكسَ الضوء الداخل من النافذة على شفتها العليا فأزاحَ لونها الباهت وأضفى عليها شيئًا من الارتياح. أحسستُ بأن عينا بوانا أحمد استقرّتا عليّ.

قلتُ لها: يبدو أن المطر قد توقف. كانَ بوانا أحمد ينقر بأصابعه على الطاولة باهتياجٍ شديد. ثمّ طقطقَ بلسانهِ بغضب، وأوشكَ أن يشتدّ غضبا. رنوتُ إلى سلمى. كانت تنهض، وعلى وشك التحرك من مكانها. وفي لمح البصر، عند طقطقة باللسان متأججة بالغضب، وَقَفَت وهَرَعت حول الطاولة. دخلَ عليٌّ من الباب، حاملًا سلطانية قرّبها جدًّا من صدره.

سألهُ السيد الغاضب: ماذا كنتَ تفعل؟

نظرَ في ساعته وأجالَ النظر حول الطاولة التماسًا للتعاطف. جلسنا صامتين بينما كانَ عليّ يكيل الحساء، ووضع زبدية أمام كل واحد فينا. تهيّبتُ الابتلاع في الصمت المحيط بي، فأخذتُ أحسو رشفات صغيرة من الحساء، محاولًا إحكام السيطرة على حركة جوزة حلقي. انصرفَ بوانا أحمد حالما أنهى ملعقتهُ الأخيرة من الحساء، متمتمًا بكلمة «اعذروني» بطريقة روتينية.

تنهدت سلمى: لا أعتقد أنه كان يومًا جيّدًا.

- كيفَ كانَ يومك؟ سمعتُ أنكِ خرجت إلى العمل. نظرتُ إليها بينما كنتُ أتحدّث، ورأيتُ أن العضلات حول فمها قد استرخت بعض الشيء. ولكن كانت ما تزال تبدو بائسة. وأردفتُ بالقول: ما نوع العمل الذي تشغلينه؟

قالت وهي تدسُّ يديها تحت الطاولة: أعمل بدوام جزئي في متجر الكتب. أردتُ إجازة لعامٍ واحد قبل أن أبدأ في الجامعة. يعتقدُ أبي بأني غبية، ولكنني لم أرغب بالمواصلة من المدرسة إلى الجامعة... مثلَ المرور عبر آلة. أردتُ صنع شيء مختلف.

- مثل العمل في متجر للكتب.

- نعم، أعرفُ أنه مملّ للغاية، أليس كذلك؟ وابتسمت قائلة: لو كنتُ رجلًا لوجدتُ لنفسي عملًا في مزرعة على المرتفعات، أو كنتُ سأعمل بحّارًا..

واقترحتُ عليها: ما رأيك بصياد الطرائد الكبيرة؟

قالت: ممتع للغاية. أنت لا تعرف كم كان صعبًا إقناع والدي بفكرة العمل. قال إنّ الناس سيتكلمون عنا. في نهاية الأمر حصلَ لي على وظيفة في متجر الكتب، فقط ليُسكتني. ليس في هذا العمل روح المغامرة كثيرًا.. ولكنه أفضل من لا شيء. على أية حال، أتساءل ما الذي لدى عليّ أيضًا لنأكله؟

- آملُ أنه ليس برياني مرة أخرى!

لوَت قَسَمات وجهها عندما قلتُ ذلك. أدركتُ بأني قلتُ ما قلتهُ على سبيل الاعتذار عمّا بَدَر مني عندما تناولتُ البرياني أول مرة، وكان الامتعاض الذي أبدَته طريقة لِصرفِ النظر عن الموضوع لأنه ليسَ بذي أهمية.

- هل ستلتحقين بجامعة نيروبي العام المقبل؟

وأومأت بِنَعم.

قلتُ: التقيتُ بشخص يدرسُ هناك. اجتمعنا بالقطار.

فكرتْ للحظات وقالت: لا بدّ وأنهُ طالب خرّيج. فالطلاب ذهبوا في عطلة الأسبوع الماضي.

ها قد تعرفتُ إلى معلومة جديدة تخصّ موسى موينى وبِت أراهُ من منظورٍ آخر. لم يكن ليتجاهل إخباري ما إذا كانَ متخرّجًا من الجامعة. صرتُ متطلّعًا أكثر للقائه مرة أخرى.

سألتني: هل أنهيتَ المدرسة هذا العام؟

أجبتها: نعم، في نفس الوقت مثلك.

- وهل كانت نتائجك على ما يرام؟

شرحتُ لها بأن النتائج لم تُعلِنها الحكومة. وبمجردُ أن شرعتُ في الكلام وجدتني غير قادر على التوقف. أصغت إلي دون أن تتفوّه بكلمة واحدة. ابتسمت عندما قلتُ إني واثقٌ من أنني أبليتُ بلاءً حسنًا، لكنها لم تبدُ ابتسامة متهكمة. قاطَعَنا عليّ بطبقٍ من الفاصولياء بالمرق مع طبق من خبز «البراتا». ونظرَ إلى سلمى بوجهٍ ساخرٍ، فابتَسَمَت ابتسامة واسعة، وما عادت متوترة، وَأومَأت برأسها لإيقافه عن قول أيّ شي عن بوانا أحمد.

سألتني بعد انصرافه: إذن باتت الأمور صعبة للغاية الآن؟

قلتُ غير راغبٍ بالانخراط في المحادثة: نعم.

سَألَت: التمييز؟

بَدَت الكلمة بريئة، نَطَقها شخصٌ لم يختبر بعد قذارتها الكاملة. أحسستُ بشيء من التشكّك في نبرة صوتها، وببعض التردّد في تصديق الجواب الذي تَوقعتْ مني تقديمه.

قلتُ: نعم، شيء من هذا القبيل.

سألت مُقطّبة حاجبيها: مثلَ ماذا؟

- مثلَ... نعم، هناك تمييز في المعاملة. يقع الناس ضحيّة لعدم امتلاكهم بشرة سوداء. إنه انتقام. إنهم يُسدّدون ما أدانوا به من قبل. الناس خائفون. تحدثُ أمور قاسية. تجري ممارسات عنيفة ووحشية. أظنُّ أن هذا سيعودُ وَبالهُ على الجميع. سيعمُّ الضرر على كل الناس. سينتهي بنا المطاف جميعًا ونحنُ أقلّ إنسانية.

شعرتُ بِمقاومتها. عُدتُ إلى خبز البراتا والفاصولياء. ظللنا صامتين لبعض الوقت، ثمّ بدأت بالحديث عن الحرب في نيجيريا. مثل هذا البلد المستقر... إلى أي حال ستؤول إفريقيا... سينتهي بنا المطاف مثل أمريكا اللاتينية.. سعلَ بوانا أحمد في غرفة الجلوس. فَتوقفت سلمى عن الكلام مِن فورها، وقد فوجئت مثلي بأنَّ والدها كانَ جالسًا هناك طوال الوقت. قالت: من الأفضل أن ندخل إلى غرفة الجلوس.

قلتُ بعد أن فرغنا من طعامنا: أظنُّ أني سأخرجُ للتمشّي.

نظرَ بوانا أحمد من فوقِ رزمة أوراقه بينما كنتُ أمشي، لكنهُ لم يقل شيئًا. تردّدتُ، كنتُ راغبًا في الوقوف والشرح. شعرتُ أنهما أرادا إبعادي جانبًا، بأنَّ هناك أشياء بحاجة إلى أن يقولها أحدهما للآخر.

كانَ الجوّ رطبًا في الخارج. مشيتُ في قلب العتمة، مُندهشًا من ضجيج الليل. لقد نشأتُ في بلدة، حيثُ الأزقة على اليمين واليسار، والصّراصير

والزيزان تتوارى في زوايا الأمكنة، وتصرصرُ صرصرةً مترددة. أمّا في ريفِ نيروبي كانت الحشرات تَصدح بِملء صوتها، وتخدشُ هواء الليل بِاسترسال. مشيتُ لوقتٍ طويل، وكانَ جزءٌ من الطريق مُضاءً بأنوار حدائق المنازل المُنيفَة التي مررتُ بها. الكلاب هي من أعادتني إلى الوراء؛ قطيعٌ يغتذي من القمامة والجيف انقطعَ عن شؤونه، واعتبرني أكثر من محضِ فائدة عابرة. ولمّا قفلتُ عائدًا وجدتُ أنَّ باب الشُّرفة قد تُرِكَ مفتوحًا. لا سلمى ولا أبوها كانَ في الجوار، ولكن كانَ في الجوِّ توتر، واضطراب، وخمّنتُ أنهما تشاجرا في غيابي. وتمنّيتُ لو أنَّ الشجار كانَ مُتعلِّقًا بي.

سمعتُ صُراخ امرأة وخرجتُ إلى المطبخ لأرى ما يجري. وقدّرتُ أنَّ عَليًّا كانَ يمارسُ رجولته. وقفتُ في الظلمة، ورحتُ أنظرُ عبرَ الباب الزجاجيّ، مُتسائلًا عمّا إذا كان بالإمكانِ تَبيّن شكلَ عليّ وقوّة قبضتهُ وهي تحطُّ على وجهِ زوجته.

في السّرير، لم أفكّر إلا في سلمى. ومهما كانَ سيحدثُ لي في السنين القادمة، عرفتُ بأنّي لن أنساها أبدًا. استلقيتُ على الفراش وتساءلتُ عمّا يجب الشعور بهِ إن كانت فتاة مثلها تُريدني. تخيّلتها تستديرُ ناحيتي في الصباح ثمّ تطلبُ مني أن نهربَ معًا إلى جبال الرونزوري... وحتى إلى بحرِ الغزال... أو وصولًا إلى الإسكندرية. أردتُ أن أسألها عن أمّها، وعن الصّمتَ المحيط بها.

انتويتُ الاستيقاظ مبكرًا، لأُظهِر أنني على أُهبة الاستعداد، ولكني اكتشفتُ أن بوانا أحمد كانَ قد غادر. فكرتُ أن أطلب منه أن يقلّني إلى المدينة، وأن يَصِف لي الاتّجاه إلى الجامعة. الحديث مع سلمى عن موسى ذكّرني كم استمتعتُ برفقته، وكم بدا مُفعمًا بالحياة وغير معقّد. كنتُ راغبًا بمعرفة ما إذا كانَ قد كذبَ عليَّ حقًّا بشأنِ كونه طالبًا. لم يكن الأمر مهمًّا كثيرًا

بشأن الكذب، بل إنه بدا خليقًا بهِ. كانَ من الممكن أن يزلّ لسانه مع سهولة الممارسة، بما يفي ومقتضيات اللحظة الراهنة. الذهاب لرؤيته كانَ أيضًا طريقة لإبداء استقلاليتي، ولكي أُظهِرَ بأنَ لديّ حياتي الخاصة المُتشَابِكة، خارجَ مهمّة التسول التي كنتُ مضطلِّعًا بها آنذاك.

وجدتُ عَليًّا جالسًا إلى طاولة المطبخ، غارقًا في النوم. حاولتُ الاستدارة والخروجَ على رؤوس أصابعي، لكنّهُ تحرّكَ وَشَفطَ خيطَ اللعاب الذي كانَ مُنثالًا من فَمهِ. ودونَ الحاجة إلى وقتٍ لِطردِ النومِ من رأسه، بأن يفركَ مثلًا عينيه بقبضتين مضمومتين، أو أن يحكّ بطنهُ بِكسل، ابتسمَ كاشفًا عن أسنانه. نهضَ دونما كلمة واحدة، مبتسِمًا ابتسامة واسعة، وشرعَ في قلي البيض من أجلي.

قالَ وهو يكظمُ تثاؤبه: سمعتُ أن هناكَ كثيرًا من المتاجر على السّاحل.

فَهربتُ إلى غرفة المعيشة. سمعتُ من ورائي عليّ يُصفّرُ من الدهشة. كانت السّماء تُمطرُ مرة أخرى، ووقفتُ بجانب الباب الزجاجيّ المفتوح، أشاهدُ الخطوط الدقيقة المائلة وهي تُسطِّرُ الهواء، وشعرتُ كما لو كنتُ في السّجن.

سألتني سلمى: أليسَ جميلًا؟

كانت مُلتفعةً بوشاح حول رقبتها، مخطّطا باللون الأصفر والبني والأحمر، وكانَ معقودًا على الجانب، مع نهايتين مُتدلّيتين مثل أُذنين مَرِنتين على جانبي كتفيها. وكانَ شعرها مشدودًا، ومرفوعًا عن وجهها مثلما كانَ في المرة الأولى التي رأيتها فيها. وَقَفتْ بجانبي عند الباب المُشرَع، مُستندة إلى إطار الباب مثلَ فتاة بائسةٍ في فيلم قديم. - انظر إلى الحقول. أليست جميلة؟ ألا تبدو رومانسية؟ ثمّ رَنَت من فوق كتفها إلى جنكيز خان، الذي كانَ واقفًا

في المدخل المُقنطَر ويبدو مُصَابًا.

- عليّ، هل يوجد ناس على التلال؟ هل هناك أناسٌ يعيشونَ على التلال؟ أنت لا تعلم؟ دادي يقول لا أحد يعيش هناك، ولكني متأكدة إنه مُخطئ.

قال متذمّرًا، متقصّدًا إبداء الإساءة لها: لا أعلم يا آنسة. إفطارك جاهز يا سيّد حسّان.

نظرت إليّ سلمى نظرة خاطفة، مُحاوِلةً فَهم نبرة الأذى في صوت عَليّ. كانت تلك النظرة هي التي أكّدت أنّ ذلك الذكيّ كانَ يُمثّلُ لعبةً لم أفهم مَغزاها بعد. سَأَلَت بصوتها الجديد اللاهث: هل سبقَ وأن ذهبتَ إلى التلال يا عليّ؟ بدت وكأنها في قبضة اكتشافٍ مذهل، وتوقفتْ لالتقاط أنفاسها، وجذبت نَفَسًا عميقًا من هواء التلال. نظرَ عليّ إليّ، وكانَ ميّالًا إلى الابتسام، لكنه قاومَ الإغراء. أَسبَلَ عينيه دونَ جواب. قالت وهي تلتفتُ إليّ: ربما بوسعنا الذهاب إلى التلال أثناء تواجدكَ هنا. هل تودُّ ذلك؟ يمكننا القيام بنزهة.

إلى آخر الأرض! لاكتشافِ العواصف من جهات هبوبها.. على طول الطريق إلى الإسكندرية! لا نارٌ ولا صحراء ستقفُ في طريقنا... إلى أيّ مكان، باستثناء المسارات الموحلة لرؤية منازلَ صغيرة لمزارعين مُريبين يكسبونَ لقمة العيش بِشقِّ الأنفس من سُفوح التلال القاحلة. المطرُ، الذي يَسوطُ الحقولَ الخاوية والسَّماء، بدا جميلًا بما فيه الكفاية من حيثُ كنتُ واقفًا.

أجبتُ: لا، لا أعتقدُ أني أريد الذهاب.

ضحكت قائلة وهي تسبقني إلى غرفة الطعام: لا، ولا أنا. سنكتشفُ فقط أنه يوجد أناس يعيشون هناك. سوفَ يُحدّقونَ بنا، ويُجيبون عن أسئلتنا بتذمّرات غاضبة، وسوف يحاولونَ بيعنا أشياء لا نحتاجها. على أيّة حال،

لم أكن جادّة في كلامي. اسمع، سأذهبُ إلى المدينة لاحقًا، لرؤية صديقة في الجامعة، وأظنُّ أنكَ قد ترغب في المجيء، للبحث عن صديقك. ابتَسَمتْ أثناء قولها هذا الكلام، لكنني أحسستُ بتخوّفها، كما لو أنها كانت تخشى أن أرفضَ دعوتها أو أن أُسيء فهمها. كنتُ مُمتنًّا لأنها كانت تحاول أن تكون في غاية الابتهاج والبشاشة، تحاول أن تُشعِرني بأنه مُرحَّب بي.

قلتُ: أُحبُّ أن أذهب.. هذا بالضبط ما كنتُ أُفكّرُ في فعله.

جلسنا إلى المائدة، ودفعَ عليّ برفقٍ، ولكن مُشيحًا بوجهه، بيضة على طبقٍ نحوي. وأحضرَ لها ثمرة كريفون (كريب فروت) مقطّعة إلى نِصفين، ومنزوعًا منها اللُبّ الأبيض.

عندما لاحظتْ نظرتي المندهشة إلى الفاكهة المُزدَراة قالت: لا أريدُ أن أبدو بدينة في سنّ الثلاثين. فهي وراثة في العائلة. انظر إلى دادي. كلّنا هكذا. ثمّ ابتسَمَتْ بِتحفّظٍ وبرود، وكأنّ شيئًا مُختلفًا تمامًا كانَ يدورُ في رأسها.

قلتُ: عمّتكِ.. أمي ليست بدينة..

هزّت رأسها، ونظرت إلى البعيد مجدّدًا، غير مُشجِّعة إياي على طرح السّؤال الواضح عن أمها. وقالت: علينا الانتظار حتى يتوقف المطر قبل أن نتمكن من الذهاب.

في النهاية غادرنا بينما كان الجوّ ما يزالُ ماطرًا. رأت الحافلة تتوقف عند المحطّة بالقرب من المنزل، فركضتْ إلى الخارج وهي تلوّح لي وتنادي عليّ لكي أُسرِع. أظنُّ أنها كانت حريصة على المغادرة قبل عودة بوانا أحمد من أجل الغداء.

عندما صِرنا في الحافلة قالت: ليس لدينا وقتٌ كثير. أريدُ شراء شيئين فقط... هدية لصديقتي مريم.. وأنت بحاجة إلى حذاء جديد، على ما أعتقد.

ثم سنذهب إلى سَكن مريم.

قلتُ: ومريم ألن يُعجبها حذائي؟

- سيعجبها. هي رومانسية بتلك الطريقة، بحيثُ إنها لا تلقي بالًا للمسائل العملية. لا تحبّ أي شيء مألوف أو عاديّ. تقطنُ عائلتها في نيروبي، لكنها أصرّت على استئجار غرفة في الجامعة. سترى بنفسك، هي تعتقدُ أنها متمرّدة كبيرة... وتريدُ دومًا أن تفعل ما لا يريدهُ الآخرون.. إنها تدفع الجميع إلى الجنون.

قلتُ: تبدو ظريفة.

ذهبنا إلى شارع كينياتا، انخرطنا في الحشود، وجادلنا البائعين على الأرصفة. كانت الأرصفة مُوحلة، ومكتظّة بالناس الذين راحوا يتعثّرون ويركلُ بعضهم بعضًا. وقعت عين بائع جائل مِلحاح عليّ، وحاولَ بإصرار أن يبيعني ساعة يد «سيكو» مَطليّة بالذهب. شجّعتهُ سلمى، وقالت لهُ إنني ابنُ أحد أغنى الرجال في لامو[1]. في النهاية هربنا منهُ إلى شارع ريفر رود، ودخلنا إلى جميع محلّات الملابس الرجالية في ذلك الشارع. كنتُ واعيًا لوجودي معها أكثر من أيّ شيء آخر، وأحتكّ بِها بين الحين والآخر، مُلتذًّا بالنداءات التي وجهتها لي لإبداء رأيي في شيء ما. واستمتعتُ بكوني موضع ثقة عندها بما يخصّ ملمس قطعةٍ من القماش، أو الابتذال في تصميمها. وراحت تحثّني، وأحرَجَت البائعين وأجبَرَتهم على تخفيضِ أسعارهم، التماسًا لتعاطفهم فقط عندما كنتُ ما أزال رافضًا الاقتناع. بين حينٍ وآخر كنتُ ألمح أثر نظرة مُتبرّمة ضَجِرة، وتساءلتُ إن كنتُ أبالغُ في أدائي. أصرّت على أن

---

(1) لامو: Lamu أو بلدة لامو، بلدة صغيرة في جزيرة لامو التي تُعتبر جزءا من أرخبيل لامو في كينيا. وهي أحد أقدم البلدات المأهولة في كينيا. تأسست عام 1370 ميلادية.

أقيس عدّة أحذية والتي عرفتُ أنها تفوق إمكانياتي المادية. أخيرًا اشتريتُ حذاءً رياضيًّا خفيفا صُنِعَ في هونع كونغ.

دخلنا إلى متجرٍ (بوتيك) - تدلّت من سقفهِ أضواء زينة ملوّنة وبرّاقة - حيثُ كانت كل الملابس تحمل علامة تجارية أجنبية، وكانت الأسعار غير واقعية على نحوٍ مثير للضحك. اشترت سلمى وشاحًا لمريم. «على الأقل أنت متأكّد من جودته»، قالت لي وهي تُريني ماركة ماركس وسبِنسر. كانَ في المتجر مقهى، وتوقفنا عندهُ لِشراء المثلّجات. أُحضِرَت المثلجات في طبقين كبيرين على شكل زورق، وكانا مُلطّخين بصلصات الفاكهة ومرشوشين بالمكسرات. وفي منتصف هذا الخليط وضِعَ لوحٌ من شيكولاتة «فليك»، فبدت في ذلك المحيط مثل كتلة متصلّبة من البراز. حاولتُ ألّا أضحك، إذ أن سلمى بدت وكأنها تتمعّن في زورقها الملوّن باهتمامٍ جادّ. انهارت عزيمتي الفولاذية عندما نقلتُ أول ملعقة إلى فمي، فرشقتُ المثلجات والمكسرات على جميع أرجاء الطاولة بينما كنتُ مُستسلمًا لنوبة هيستيرية من الضحك.

جرّبتُ كل وسيلة. أغلقتُ عينيّ، طلبتُ قشّة... رأيتُ سلمى تأكلُ مثلجاتها بتلذّذ، لكنني لم أستطع أكلَ مثلجاتي. غادرنا المتجر وعتاب سلمى يرنُّ في أُذنيّ: هذا أغلى «آيس كريم» في نيروبي! ألم ترَ كل أولئك الأشخاص البيض الذين كانوا يأكلونه هناك؟ وأنتَ بصقتهُ على كل مكان في الطاولة!

كانَ اسم تلك المثلجات «هاوايان صن تان»، وكلّما هدأتُ وتمالكتُ نفسي، كانت سلمى تذكر اسم المثلجات فأستهلُّ موجة جديدة من الضحك.

قالت بينما كنا نسير عائدين إلى شارع كينياتا: باتَ الوقتُ مُتأخرًا جدًّا على الذهاب إلى بيت مريم الآن.. لو لم تستغرق كل ذلك الوقت في تناول الـ «هاوايان صن تان» خاصتك!

كانَ بوانا أحمد في البيت عندما وصلنا في وقتٍ متأخر بعد الظهيرة. كان من الواضح أنه غير راضٍ، رغمَ أنه ابتسمَ، وسألنا كيف كانت جولتنا. كانت ابتسامتهُ مشوبة بالغضب نوعًا ما، وفي أسئلتهِ سُخرية مُضمَرة. لاحقًا في المساء، وبدافعٍ من إيماءات سلمى التشجيعية وابتساماتها، تحدثتُ عن موطني، عن السّاحل، وعن والديّ. فاهَ بأقلّ القليل، لكنهُ تهكّمَ علانيةً، وفي بعض المرات نظرَ إلى سلمى بغضب. لا أظنُّ أنه أدركَ كيف كشفَ وجهه عن مشاعره بكلِّ ما في الكلمة من معنى. كنتُ على يقين من أنّ الخلاف في الليلة الفائتة كانَ عني، وبأنَّ سلمى دافعت عنّي. لم أستطع أن أفهم على ماذا كان بوانا أحمد معترضًا. كانَ قد دعاني فأتيتُ. فيمَ كانَ كل هذا التذمّر؟ كنتُ عازمًا آنئذٍ على ألّا تُنفّرني جَلافتهِ. قد لا يعطيني أية نقود، لكنني سأحظى بإجازتي.

وحتّى عندما فكرتُ هكذا آنئذٍ، خامرني شكٌّ في أني لم أكن مُدركًا حقيقة ما يجري، وبأني كنتُ سبب التوتر الحاصل بصورة عرضية فقط، وبأن هناك أمورًا أخرى تدور لم أفهمها بعد. في النهاية، تنهّد بوانا أحمد وأخفضَ عينيه. رَنَت سلمى إليه، وكان من المستحيل عدم الانتباه إلى وميضِ القلق في مُقلتيها. أنهيتُ حديثي بأسرع ما يمكن، وهربتُ.

وجدتُ سلمى في المطبخ صباح اليوم التالي، وكانت تتحدّث إلى عليّ. كانَ يخبط العجينة، ويعجنها بِقلّة الانتباه المتأتية من الممارسة الطويلة، وكانَ يميل نحوها قليلًا وهي تتكلّم.

حالما رآني قالَ لي على نحوٍ مُقتضب، داعيًا إيّاي إلى الخروج من المطبخ: سأجلب لك فطورك.

ضحكت سلمى، مُشجّعةً ذلك السّافل الغبي في عبوسه الطفوليّ، على ما أعتقد. كيف يمكنها أن تضحكَ على رجلٍ يستطيع أن يقلي بيضة أثناء نومه،

ويضربُ زوجته ضربًا مبرحًا في الليل؟ عدتُ إلى غرفة المعيشة لأتفكّرَ في هذه الخيانة. تهجّمَ عليّ خلال الإفطار، مُفسِّرًا لسلمى بأنه كان مشغولًا جدًّا.

قالت لي معلّلة: إنه يخبز.

- ماذا يخبز؟

قالت: خبز، مجرّد خبز عاديّ.

- نُسمّيه في السّاحل «بوفلو».

«بوفلو». أعادت إليّ الكلمة فجأة ذكرى الموطن. الصيّادون يُنظّفون قورابهم الخشبية، ويَسقون شباكهم، فتُعمِلُ ثقوبًا في الماء تتلألأُ مثل شَذراتٍ من الضّوء. ذُرى الموج تنبثقُ من البحرِ الأخضر. تنجرفُ الأعشاب إلى الشاطئ مثلَ أحلامٍ سَفَعتها الشّمس، تقتربُ وتنسحبُ، وتغرقُ في الرّملِ الرّطبِ المَسَاميّ. وفي البعيد، زورقٌ صغير يتمايل ويهتزُّ بعنفٍ على السطح وينطُّ، هائجًا سائرًا حيثما اتّفق. وعلى الشّاطئ ثمّة جذع شجرة مملّحٌ من ماء البحر متعفّنٌ، مجوّف، ومفتوح على وسعهِ مثل بطن دولفين مَبقور.

سألتني: هل كنتَ غاضبًا منّا ليلة البارحة؟

قلتُ مستفسرًا: أكانَ غاضبًا بسببي؟

قالت، وقد بدت متألّمة: لا، ليس تمامًا. من الصعب الشّرح.. ولكن.. أحيانًا يجعل الأمور أسوأ مما هي عليه.

- هل هذا لأنني هنا؟

قالت بعد وقتٍ غير يسير: لا، لا أعتقدُ ذلك.

أرادت أن تُعرِّفني بأنها كانت تكذبُ. كانت تحاولُ إخباري بأنني أخفقتُ. لم يحزنني ذلك حتى. ما أحزنني أكثر فكرة فقدان صداقتها، وصُحبتها، وإن

كنتُ أعي أن اهتمامها كانَ نابعًا من معاملتهِ لي.

سألتها: لماذا طلبَ مني المجيء؟

أشاحت بوجهها، واعتقدتُ حينها أنه خطأ مني اختبار ولائها بتلك الطريقة. لم أتراجع عن السؤال، وبقينا صامتين حتى تبدّد السؤال بنفسه. طارت نحلةٌ إلى الغرفة، ووقفت لتراقبها. قذفت بنفسها باتّجاه الراديو ثمّ سقطت على الأرض، وجناحاها يَطنّان بِضيق. ركضت إلى المطبخ وعادت بالمكنسة، ودفعتها نحوي بابتسامة. تناولتُ المكنسة وضربتُ النحلة بها. تَقصّمَ بطنها، ونزَّ منهُ قيح أبيض، وتمدّدت ببطء على نحوٍ نافر. تحرّكت إبرتها إلى داخل تجويفها وخارجه مثل حيوانٍ هائج. وكانت عيناها تُحدّقان نوعًا ما من جسدها المتصلّب.

قالت: فقط أردتُ منكَ أن تكنسها.

مَشَت إلى المذياع وَأدَارته. كانَ هناك صوت إنكليزي يتحدث عن الإرساليات التبشيرية المُبكرة إلى أوغندا: إداريو المستعمرات تلاعبوا بالاختلافات المحلّية والإقليميّة والعرقيّة... ثمّ أطفأت الراديو.

قالت: دعنا نذهب. لنرَ إن كان بإمكاننا اللحاق بمريم اليوم.

فوجئتُ بِخواءِ المكان. كانت قد أخبرتني أن الطلّاب في عطلة، لكني لم أتوقع صمتَ المباني الأشبه بصمت المقابر، أو وحشة الأراضي المهجورة. كانت مريم خرّيجة مساعدة للدراسات العليا في الجامعة، وتمكثُ هناك خلال العطل لإتمام أطروحتها. أخبرتني سلمى أن موضوع الأطروحة متعلّق بتاريخ الفنّ.

ارتقينا سلالم مُتّسخة، ومشينا عبرَ ممرّات طويلة من الأبواب الموصدة، جميعها مَطليّة باللون الأخضر. فاحَت من المكان رائحة الغُبار والرطوبة،

ممتزجة برائحة تعرّق قديمة. كانت فتاة قصيرة رَبيلة، تتحدّث بسرعة كبيرة، وكانت سريعة الابتسام. كانّ من الجليّ أنها مبتهجة برؤية سلمى، وهي تمسكُ بيدها بينما كانتا تتبادلان التحيّة والأخبار. في غرفتها تبعثرت المخطّطات واللوحات الزيتية، بعضها كانَ مُعلّقًا على الجدران، وبعضها الآخر مُثبّتًا على رفّ الكتب، والبعض مُلقى على الأرض بإهمال. بدت مثلما تخيلتُ ما يجب عليه أن تكون غرفة الطالب، وملأتني غبطة لمرأى تلك الغرفة.

عندما عرّفت سلمى أحدنا بالآخر، رازتني مريم بنظراتها من أعلى إلى أسفل، وَحيّتني بهزّة من رأسها. وتبادلنا الابتسامة ونحن نتصافح.

قالت وهي ترمقُ سلمى: فإذن أنت القريب من السّاحل، فائق الذكاء ولكن لا مال لديك. لقد سمعتُ عنك، آمل أنها أرتكَ بعض المعالم السياحية.

حكيتُ لها عن «هاوايان صن تان»، وبدت مُستنكرة ومستاءة. يا للكِ من مادّية وجاهلة يا سلمى! وعرضت عليّ، رافعة حاجبيها كما قوسين، أن تُريني بعض الأماكن السياحية في المدينة. سألتها عن اللوحات، مُستفسرًا عما إذا كانت رسمتها كلّها.

هبّت مسرعة، وتَحدّثت بحماس حولَ ما كانت تحاول القيام به عندما اصطحبتني في جولة في معرضها الفني الصغير. تحدّثت عن الخطوط واليأس والوحدة، وحاولتُ أن أتصرّفَ بالطريقة التي تخيّلتُ فيها شخصية مثقفة ومحنّكة في رواية من الروايات. طرحتُ أسئلة حولَ المؤثرات ومهمّة الفن. وأنشأت تحكي بسرعة بالغة لدرجة أن انقطعَ نَفَسها في بعض المرات. لم أفهم كلّ ما قالته، ولكن كلامها بدا جيّدا ورائعًا للغاية، وأومأتُ لها برأسي كما لو أني كنتُ أشاطرها وجهات نظرها. قادتني إلى لوحةٍ كبيرة لتوضّح ما كانت تقوله. كانت اللوحة محتويةً على كرسيّ مكسور مُلقىً على جانبه. وإلى جواره قبّعة وقلم حبر يرشحُ منه حِبره. وكانت الخلفية عبارة عن قامات أشخاص

ممدودة على نحوٍ غريب، مُنزلقة عبرَ ظلال ضبابيّة. كانَ اسم اللوحة: خيانة.

سألتُها: هل هذا فنّ حديث[1]؟

أجابت: لستُ متأكدة مما إذا كانَ فنًّا على الإطلاق. إنّهُ فقط ما أقوم به. الأمرُ متروكٌ لِمن ينظرُ إليه ليقرّر ما إذا كانَ فنًّا أم لا.

رمتني سلمى بنظرة توبيخية حادّة، وقالت: بالطبع هذا فنّ. كم عرضَ أحدهم ثمنًا لها يا مريم؟

أجابت مريم ضاحكة: هذا لا يهمّ. أنتِ بالفعل ذات نزعة مادية يا سلمى. هذه «الكَمّ» لن تجعله فنّا.

- فإذن ما الذي يجعله فنًّا؟

صفّرت مريم بدهشة مُبَالغ بها. ونظرت إليّ التماسًا للتعاطف ثمّ رفعت كتفيها غير عابئة. أخذتني إلى عملٍ آخر، أخبرتني أنه مُستوحىً من لوحة شهيرة لِبيكاسو، والذي عَدّتهُ مُعلّمها الأول. وتساءلتْ، ألا أوافقها الرأي؟ بالرغم من أنها كانت تجد أعمال تولكين[2] مُلهمة حقًّا للأفكار... واعترفتُ بأنّي لم أسمع بأيٍّ منهما. كانتا مدهوشتين، وهتفتا زاعمتين بأنهما لم تظنّا بأن ذلك ممكن! نظرتُ إلى مريم وكانت ملامحها تقول إن الغشاوة زالت عن عينيها وهي ترمقني، ثمّ رأيتها تنظرُ إليّ مُجدّدًا وكأنها تراني للمرة الأولى.

---

(1) الفنّ الحديث: (وهو غير الفنّ المعاصر) إشارة إلى الأعمال الفنية المبتكرة ما بين آواخر القرن الثامن عشر إلى أواسط القرن التاسع عشر. من أشهر أعلامه فنسنت فان غوخ، بابلو بيكاسو، بول سيزان، وهنري ماتيس.

(2) جون رونالد رويل تولكين (1892-1973): كاتب وشاعر ورسّام وفقيه لغوي وأكاديمي إنكليزي. اشتهر باعتباره مؤلف الأعمال الكلاسيكية الفانتازية العالمية الهوبيت، وسيد الخواتم والسيلماريليون.

خفّفتا عني عِبء فكرة جهلي أثناء تناولنا الغداء في مقهى هنديٍّ بالجوار. قاومتُ، وتذرعتُ في نقاشي بكل الصعوبات الممكنة، رافضًا عدم التأثر برأيهما. في خاتمة المطاف كانت سلمى مُستفزَّة وفي أوج الغضب، لدرجة أنها صفقتني على فخذي. وقالت: ما الذي تعرفونه أنتم يا أهل الساحل؟ أنتم مجرّد بحارّة وصيادين.

ثمّنتُ تلك الصفقة عاليًا وكنتُ مُعتزًّا بها، في حين كانتا ترغيان وتزبدان غضبًا من جهلي.

جاءتا معي إلى مكاتب الإدارة للسؤال عن موسى، لكن لم يعرف أحد اسمه هناك.

وقفَ بوانا أحمد في صفّي عندما روت لهُ سلمى قصة جهلي بِابتهاج: لماذا يتعين عليه معرفة أناس مجانين؟ أي شيء في غاية الأهمية فعلوه؟ دافعت سلمى عن فكرتها بقوّة، إلا أن بوانا أحمد كرّرَ سؤاله الأخير بإصرار: ما الشيء الهام للغاية الذي فعلوه؟ قولي لي. لا تستطيعين، هل تستطيعين؟ ما الشيء الهام جدًّا الذي فعلوه؟ استسلمتْ في آخر الأمر، ورفعت عينيها إلى السماء، داعية الله أن يُلهمها الصبر.

التفتَ إليّ وقال: لا تدعهما يُشعرانك بالجهل. الأمر بالنسبة لهما مجرد موضة! بيكاسو! ومن يكون بيكاسو؟ استمتع بوقتكَ ولا تفسح لهما المجال بإقلاقك. غدًا سوفَ تقولان عن شخص آخر إنهُ عبقري.

قالت وهي تنظرُ إليه نظرة إشفاق: دادي، إنك تُظهِر نفسكَ بِمظهر الجّاهل.

لوى قسمات وجهه، رافضًا انتقادها، من ثمّ توجّه لي بابتسامة عريضة متواطئة.

قال: أنتظركَ اليوم. بدا من نبرتهِ مجروحًا من كلامها، لكنه كان راضيًا عن نفسه في ظاهره.

- فكرتُ بأنك قد تكون راغبًا بالذهاب إلى مسجد «جُمعة» لأداء صلاة الجمعة. واصطحبني مساء ذلك اليوم. قال لي إن هذه كانت نزهة يوم الجمعة المعتادة.

بينما كانَ يقودُ سيارته إلى المدينة قال: أقصدُ ذلك المكان منذ سنوات. نجتمعُ في بيت ثابت عدنان، فقط للتحية وتبادل الأحاديث سوية. ينحدرُ ثابت من السّاحل. لا أعلم إن كنتَ تعرفُ عائلته. إنهُ ثريٌّ جدًا الآن، جنى معظم أمواله من التهريب، وصفقات صرف العملات الأجنبية. ولكنه رجلٌ طيب، رجلٌ دمثٌ للغاية وَحَسن المعشر.

كانَ منزلًا فاخرًا من عدّة طوابق، يظهرُ للرائي فجأة من طريق ضيّق، تحيطُ بهِ بيوت أصغر متقاربة، تنضحُ بالهدوء والألفة. كانَ الجمعُ كلّهُ من الذكور، وسادتهُ أحاديث عن المال والسياسة. أطعَمَنا ثابت عدنان كما الملوك، وأجّج نيران مواضع الخِلاف كلّما أمسى الحِوار مُمِلًّا. حكى لهُ بوانا أحمد عنّي.

- ابنُ بلدك.. جاء لزيارتنا من السّاحل.

قال الرجل الكريم: على الرّحب والسّعة. هل عائلتكَ بخير؟ والدكَ ووالدتك؟ والجميع عندكم؟ الحمدلله! لا يوجد شيءٌ هناك الآن. عليكَ أن تطلب من خالك إيجاد عمل لك هنا في نيروبي. ما يزال يوجد فرص هنا.

ألقيتُ نظرة سريعة على بوانا أحمد لأرى كيف تلقى هذا الاقتراح. رفعَ كتفيه مُستخِفًّا: يوجد عمل إن أراد. ولكنّ هؤلاء الشباب لا يريدون القيام بأعمال وضيعة. إنهم لا يُريدونَ حتى القيام بأعمال مكتبية. جميعهم يريدون

أن يكونوا أساتذة جامعيين، وعباقرة وأطباء. اليوم قالت لي ابنتي إن بيكاسو عبقري. ومن يكون بيكاسو هذا؟ سألتُها. ماذا أنجز؟

كانَ بوانا أحمد مُنشرِحًا منبسطَ الأسارير في السيارة لمّا قُدنا السيارة عائدين إلى البيت ذلك المساء. بدأتُ أشعرُ بأنهُ صار مهتمًّا بفكرة منحي فرصة عمل. لم يَزِد شيئًا على ما قالهُ آنفًا، ولكن راودني شعور بأنه كان يفكر في المسألة. الطريقة التي تجنّب بها الموضوع هي ما جعلني متأكدًا. لولا ذلك كان ليُصاب بالحَرَج، إلا أنه كانَ يتصرّف مثلَ شخصٍ لديه سرّ مبهج ليبوحَ به، وكانَ يأخذُ وقتهُ بشأنه.

عندما وصلنا إلى البيت وجدنا صبيًّا صغيرًا يقفُ في مكانٍ معتمٍ من الطريق. نزلَ بوانا أحمد من السيارة ومشى نحوه ليتحدث معه. حينما عاد قال: «عليّ آذى نفسه». خرجت سلمى من البيت، وتبادلا معًا كلمات هامسة. انسلّا في العتمة حولَ زاوية السياج النباتي الشّائك، وبعد دقائق سمعتُ أصواتًا. رجعت سلمى مسرعة. قالت: ساعدنا!

كانَ عليّ مسنودًا على حائط الشّرفة في الكوخ المكوّن من غرفتين، والذي كانَ منزله. في الضوء الشحيح رأيتُ امرأة قصيرة ذات وجهٍ مستدير تقفُ على بعد بضعة أقدامٍ منه، تراقب جسده المطروح دونما مبالاة. أتى الصبيّ الصغير للوقوف بجانب المرأة. جررنا عليًّا إلى الضوء بينما كانت المرأة تتفرّج علينا. كانَ قد جرحَ نفسه أسفلَ ذراعه، وكشفَ الجرح عن بياض العظم بالقرب من المِرفَق. وبدا فاقدًا للوعي.

سألتُ وقد غَثيت نفسي مِن منظر الدّماء الكثيرة: مَن فعلَ بهِ هذا؟

أجاب بوانا أحمد بصوتٍ خفيض ومتألّم على نحو غير معتاد: هو من فعل ذلك.

- فعلَ ذلك بنفسه! في حياتي كلها لم أرَ مثل كل هذه الدّماء.

تطلّعت سلمى إلى المرأة على نحوٍ خاطف، وقالت: إنهُ يدخنُّ كثيرًا. وحينها يقوم بهذه التصرفات. يجب أن نعجّل يا دادي. انظر إلى «مالي». وتطلَّعتْ ثانية إلى المرأة: تنتابها هذه الحالة من الذهول كلما آذى نفسه. إنها زوجته، مالي.

ساعدتها في وضع عليّ في السيارة. تَبِعتنا المرأة محافظة على مسافة بيننا وبينها. قعدت معه سلمى في الخلف، بينما وقفت مالي على الطريق وراحت تشاهدهم وهم يبتعدون بالسيارة. أدركتُ أنني كنتُ بمفردي معها. وشعرتُ أنني يجب أن أواسيها بكلمة ما، لكنني كنتُ منذهلًا من كيانها البائس المُهمَل، لدرجة أنَّ كل ما أمكنني فعله هو العودة سريعًا إلى الداخل، مُترَعًا بالخِزي والخوف. جعلتني أفكر بأمّي وزكية.

انتظرتهم حينًا من الوقت، لكنَّي لم أستطع البقاء مستيقظًا. وجدوني نائمًا في الكرسي عندما رجعوا. استيقظتُ لأجد بوانا أحمد منحنيًا فوقي، ويهزني بِرفق. قال: إنها الثالثة صباحًا، اذهب إلى فراشك. كانت سلمى مُبتسمة، وذراعيها مَطويّتين على صدرها.

قلتُ: غلبني النوم. سَاعدني بوانا أحمد على النهوض وهو يضحك. سألته: كيف حاله؟

قالت سلمى: حالته مزرية عند المِرفق. ما عدا ذلك وضعهُ ليس سيئًا للغاية.

قال بوانا أحمد: سينجو، ذلك الأهبل الملعون.

قالت سلمى: سوف يُخرِجونه من المشفى غدًا. عندئذ سوف تعتني به مالي. هذا دأبها دومًا، إنها تدخل في حالة من الذهول. إنه مريع... الأشياء

التي يفعلها. يضربها ثم يفعل هذا.. يشوّه نفسه.

قال بوانا أحمد بمرارة: سيقتلُ نفسه أو يقتلها في يوم من الأيام.. هيّا، النّوم. الجميع إلى النوم.

لعبنا تنس الريشة في اليوم التالي. كان أداء بوانا أحمد الأفضل بيننا، وأقلّنا تحفّظًا في إظهار مُتعته. عندما خرجَ ليقترح علينا اللعبة كانَ قد بدّل ملابسه مُسبقًا وارتدى سروالًا رياضيًّا قصيرًا وقميص «تي شيرت». عَدَا حولَ الملعب العشبيّ متعقّبًا كلّ رمية بكلّ وقارٍ وهيبة جسمهِ القصير والسمين، ولم يبدُ عليه الإجهاد أبدًا. سَخِرَ من رمياتنا الضعيفة، إلى أن هرعت سلمى حولَ الملعب وصولًا إلى ميدانهِ وصفقتهُ بالمضرب. وإذ تُرِكَ لوحده معي، فقدَ شهيّته في هزيمة الخصم. جلسنا على الشرفة وارتشفنا مشروبات باردة، وتحوّلنا من صمتنا إلى كلّ الأشياء التي لم نتحدّث عنها.

بعد صمتٍ يائس سألَ: هل ستذهبين إلى العمل يوم الإثنين يا سلمى؟

فأومأت بالإيجاب.

- أعتقدُ أن بإمكان حسّان يوم الإثنين... إلى صالة العرض ليشاهد ماذا نفعل هناك. في حال رغب بالبقاء، واستلام العمل الذي عرضتهُ عليه.

سألتْ: أيّ عمل؟

شرحَ لها وابتسمت لهُ مؤيّدة الفكرة. ولاحظتُ أنهما مسروران وراضيان عن بعضهما البعض. لقد حُفِظَ الشرف. وما كانَ ينبغي أن أُرسَل إلى أهلي صِفر اليدين. كانا يتوقعان مني أن أقول لا، كنتُ متأكدًا من ذلك. شعرتُ بأنه من المعيب قبول هذا العرض، كما لو أنني أنتهزُ بَادِرتهما اللطيفة.

أمضت سلمى فترة ما بعد الظهر في المطبخ لتحضير العشاء. وذهب بوانا أحمد لأخذ قيلولة. قعدتُ في غرفة المعيشة ورحتُ أتصفّحُ كومة

الكتب. من حينٍ لآخر كانت سلمى تأتي من المطبخ وتجلس معي لبعض الوقت. وعرضت بأن تجلب مُشغِّل الأسطوانات بها وبعض الأسطوانات، وأخبرتني بأنها تحبُّ الرقص.

سألتني: أي الرقصات يمكنك أداؤها؟

قلتُ لها بأني لم أرقص في حياتي قطّ. لم تصدّقني في البداية، ثمّ وعدتني بأن تعلمني. نظرت إليَّ نظرة متمعنة ومتعقّلة، وفكرت بقول شيء ما ثمَّ غيّرت رأيها. عرفتُ بأنها أرادت مني أن أقول شيئًا حولَ منحي فرصة عمل، لكي تعترف بأنّ ذلك قد برّأهم من البرود الذي استقبلوني به أول مرة.

عندما عادت مرة أخرى من المطبخ سألتها: لماذا لا تُذكَر أمك أبدًا؟

أرخت عينيها إلى أرضية الممر وهزّت رأسها. ولم ترجع مرة أخرى بعد ذلك.

يوم الأحد قمنا بجولة بالسيارة في البلد. اصطحباني إلى حديقة نيروبي الوطنية، ودلّني بوانا أحمد على الحيوانات كما لو أنه كان يمتلكها. عندما عدنا وجدنا عليًّا في المنزل، أخرجوه من المشفى عصر ذلك اليوم. كانَ طافحًا بالابتسامات والاعتذارات. أمضى بوانا أحمد معه ساعة في المطبخ قبل أن نخرج. كنا مدعوّين لتناول الغداء عند أحد أصدقائه. اتضّح أنه رجل أعمالٍ إثيوبي ومعه عائلته. قدّمني بوانا لهم على أنّني ابن اخته الذي أتى للعمل عنده.

أشرفت الأمّ على الخَدَم وهم يضعونَ الطعام على الطاولة الكبيرة اللامعة. فعلت ذلك دون أن تنطق بكلمة واحدة، واكتفت بمراقبتهم من على بعد بضعة قدام، طاوية ذراعيها على صدرها. كانت صامتة طيلة الوقت أثناء تواجدنا هناك، في حين حثّ الأبُ ولديه وابنته، وشجّعهم على إبداءِ

أفضلَ ما لديهم. أولى الأخ الأكبر سلمى اهتمامًا كبيرًا، ووعدها بزيارة في متجر الكتب في اليوم التالي. عند مغادرتنا، أحضرت الأم علبة صغيرة محتوية على خشب الصّندل، وأعطتها لِسلمى.

كان بوانا أحمد مسرورًا جدًّا بالأمسية، وراح يستفزّ سلمى بشأن توقعه طلب خطبة من الأخ الأكبر.

- إنها عائلة فاحشة الثراء. إنهم يشتغلون بِكلّ أنواع التجارة. ويبدو على الشاب أنه بمنتهى اللطافة. سأحصل منهم على مَهرٍ كبير. ما رأيك يا حسّان؟ ماذا أقول لهم عندما يأتون لِخطبتها؟

قلتُ لهُ، وأنا أسمعُ نفسي أتحدث بعد ساعات من الصمت: قل لهم بأن يسألوها. وَصفّقت لي سلمى ساخرة.

لم يكن بوانا أحمد يملكُ محلًّا لبيع السيارات المستعملة فحسب، بل يمتلكُ أيضًا متجرًا للبرادات والمجمّدات، ودكّان جِزارة. أمضينا اليوم في التنقل بالسيارة من محلٍ إلى آخر دون غرض واحد. كانَ لديه مُديرون يديرون الأشغال الثلاثة، ولكنه عاملهم كما لو أنهم سيَضيعون من دون استجواباته المباغتة الجافّة والتي تكاد تخلو من اللباقة. وما بين التنقلات، أجرى عدة مكالمات هاتفية لإلغاء الطلبيات، ولاستعجال المورّدين، ولِعدِّ رزم ضخمة من الأوراق النقدية.

قال لي ونحنُ نسرعُ بِحمل المال إلى المصارف قبل إغلاقها: لا أستطيع الوثوق بأيٍّ من هؤلاء المديرين. إنهم يخدعونني طوال الوقت. لهذا أودُّ منك القدوم والعمل معي هنا. يمكنكَ مراقبة الأشياء بالنيابة عني، وعندما تتشكل لديك الخبرة الكاملة، أُعيّنكَ مديرًا. لا يمكنك الوثوق بهؤلاء الأفارقة. فهم إما أن يسرقوا منك، أو يستهترون بالعمل ويُلحقونَ به الخراب. إن مررتَ بالقرب من أي من أحد هؤلاء الأفارقة الخطيرين، فإن أول ما يمكنك أن

تشمّه في الصباح رائحة الخمر في أنفاسهم. لا يمكنك الوثوق بهم.

عندما وصلنا إلى المصرف اختفى في مكتب داخلي لمدة ساعة أو نحو ذلك. انتظرتُ في السيارة، وأنا أراقب حركة مرور السيارات، والدراجات تندفعُ محدثة أصواتا صاخبة.

عندما عادَ قال: لم يعطوني عملة أجنبية كفاية. لِنُحضرَ كوكا كولا، وبعدئذ علينا الذهاب وشراء بعض الدولارات.

جرّبنا أماكنَ عِدّة. في كلّ منها عوملَ بوانا أحمد باحترام كبير، واصطُحِبَ إلى غرفٍ داخلية، بينما انتظرتهُ في الخارج. في خاتمة المطاف قال إنَّ علينا الذهاب إلى مصائد السُّيّاح، الفنادق الكبيرة. صرّفَ معظم الأموال، ولكن كان ما يزال ينقصهُ بضع مئات. سألتهُ لأيّ شأن يحتاج صرف العملات الأجنبية؟

- من أينَ تأتي هذه السيارات برأيك؟ هل تعتقد بأنَّ المورّدين سيقبلونَ بأموال الاحتكار التي نستخدمها هنا؟

قُدنا السيارة إلى موقف سيارات مؤطّر بأشجار النخيل في فندقٍ سياحيٍّ كبير. كانَ موسى موينى جالسًا على مقعد تحت إحدى أشجار النخيل. سارَ خالي باتّجاهه مباشرة، وتبعته. عرفني موسى على الفور، وقامَ لتحيّتي مثل صديقين تَاه أحدهما عن الآخر زمنًا طويلًا.

- كيفَ حالك يا صاحبي؟ ما رأيك بالمدينة العظيمة؟ هل هذا والدك؟

أمسك يدي واستبقاها في يده، وهو يتحدث ويبتسم، بينما كانَ بوانا أحمد منتظرًا. ولمّا خَبَتت فرحتهُ برؤيتي، التفتَ إلى بوانا أحمد بأسلوبٍ عمليّ وأكثر جدّية. تناقشا في الأسعار والمبالغ، وعاندا بعضهما البعض عنادًا، مُتبَادِلين بذيء الكلام، واتّفقا على تفاصيل التحصيل والتسليم.

قال موسى لدى انصرافنا: يجب أن تأتي في يوم آخر يا أخي. سأشتري لك شيئًا من الدجاج هذه المرة. وبوسعي اصطحابكَ في تلك الجولة التي وعدتكَ بها. أنا هنا دومًا، فقط اسأل عن موسى موينى.

من السيارة، رأيتُ موسى ينضمُّ إلى بعض الصّيارفة الآخرين الذين كانوا يراقبونَ صفقتنا من على مسافة بعيدة. دقوا أكفّهم بِكفّيه وضحكوا مُهنِّئينَ موسى.

- من أينَ لك معرفة هذا «الواوي» الخسيس؟ سألني بوانا أحمد حينما انطلقنا بالسيارة مُبتعدين. كانَ ضاحكًا مُتهلّل الوجه عندما أخبرته. - إنّـهُ إمّعة، نَكِرة. إنهُ يحصل على بضعة شلنات مقابل المخاطرة بأموالِ شخصٍ آخر. من المحتمل أنهُ يعمل لدى سفيرٍ أو ما شابه. إنهُ قوّاد، يجلبُ نساء للسُّياح. أنا أعرفهُ.

رجعنا في اليوم الموالي لتحصيل الدولارات. ثرثرَ موسى بسعادة عندما لحقنا بهِ إلى متجر التحف في الفندق. هناك كانت تجري عملية تبادل الأموال. لم يكن هناك نظرات مُختلَسة مُتَلَفِّتة، ولا رُزَم من المال ملفوفة في أكياس ورقية بنية اللون. بودِلَت الأوراق النقدية جِهارا نهارا، وعلى مرمى البصر من مكتب الاستقبال في الفندق، واثنين من رجال الشرطة المسلّحين، كانا يحومان على مقربة من مدخل الفندق.

عندما رآنا موسى في السيارة أصرّ بالقول: لا تنسَ. أنا هنا في أيّ وقت. تعال من أجل تلك الجولة. لقد أعطيتني وعدًا الآن، يا أخي. وداعًا يا أبي، لا تنسني في وصيتك.

- على أحدهم أن يسدّ فم ذلك الرجل. هل تعرف ماذا يعني بتلك الجولة؟ هل تفهم....

قلتُ: انتظر لحظة. وقفزتُ من السيارة، وأسرعتُ خلف موسى. وقفَ عندما سمع اقترابي منه، واستدارَ لينتظرني. وافتعلَ على وجهه الابتسامة العريضة والفارغة للمُخادِع الذي لا يرحم.

قلتُ: لقد بحثتُ عنكَ في الجامعة.

اتّسعت ابتسامته، ولكن عينيه تَصلّبتا مِن الرّيبة. تساءلتُ إن كنتُ قد أخطأتُ، وإن كانَ سيسخر مني حينها بسبب براءتي. أو ربّما سيظنُّ أنني كنتُ أستهزأ به وأوبّخهُ على أكاذيبه.

- أذهبُ إلى الجامعة أحيانا. قالَ ذلك وضحكَ ضحكة مشفوعة بالتّهكم الدّميم لقوّاد المدينة العظيمة.

- وماذا عن قتل القبائل؟ هل هذا هو المكان الذي ستنفّذُ فيه ذلك؟

وضحكتُ أيضًا، لأُفهِمهُ بأنني لم أكن مُحِقًّا فحسب، بل لأني أردتُ أن أعرف.

وإذ تلاشت الابتسامة من وجهه قال: اسمع، هذا هو عملي، والناس أمثالك هم زبائني. أنا أقولُ ما يعجبني، وأنتَ تصدّق ما يعجبك. لا أعلمَ بم تفكر... تريدُ أن تأتي وتلتقي بي، ستجدني هنا... هذا هو المكان الذي أعمل به..

قلتُ: آسف، أنا فقط لم أستطع التصديق بأنك الشخص ذاته الذي التقيتهُ من قبل.

قال: اغرُب عن وجهي! أنت لا تعرفُ شيئًا.. ارجع إلى الأب الكبير.. إنه بانتظارك.

ناداني وأنا أسيرُ عائدًا. نعتني بالمبّتز والعَلَقة، وفهمتُ مقصده. لقد قصدَ

بأني كنتُ أجعلهُ مُدانًا للقيام بما يريدهُ أشخاصٌ مثلنا القيام به. هذا ما عناه بوصفي زبونًا له. ولمّا بلغتُ السيارة تمنّيتُ لو أني لم أغادر وكفى، وإنما أن أخبرهُ بأني فهمتُ ما كان يقصده، وبأنهُ كانَ مُخطِئًا في اعتقاده ذاك. صاحَ بِكلامٍ آخر، لكني لم أسمعه. عندما التفتُ للنظر بينما كنا مبتعدين بالسيارة، رأيتهُ واضعًا يديه على وركيه، وقد ألقى رأسهُ إلى الخلف، وهو يضحك. شعرتُ بخواء تلك الضحكة وخلوّها من المعنى وإن لم أتمكن من سماعها.

سألني بوانا أحمد: ما الذي جعلكَ تعود؟ كانَ من الواضح بالنسبة لي أنه لم يكن غاضبًا. حتى إنني آنستُ في صوتهِ تعاطفًا، وكانَ حريصًا على عدم التسبّب بأيّة إساءة.

– لم أستطع التصديق بأنه نفس الرجل الذي قابلتهُ من قبل. لم أرد الانصراف هكذا...

قال بعد صمت طويل: لقد أحبَبتَهُ. تحدثُ مثل هذه الأمور أحيانًا، ثمّ بعد ذلك لا يمكنكَ أن تفهم كيفَ كنتَ بتلك الحماقة. رَنَا إليَّ ثمَّ ابتسم، وأردفَ قائلًا: يحدثُ هذا معنا جميعًا. لا تُقلِق نفسكَ بشأنه. دعنا نذهب ونقضي ما علينا من عمل. أودُّ إتمام الطلبية اليوم.

أمضيتُ بقية الأسبوع بالتطّواف حولَ نيروبي مع بوانا أحمد. في كلّ مكانٍ ذهبَ إليه، كانَ يجادل الناس، ويُقسِمُ لدى مغادرتنا بأنه لن يتعامل معهم في ذلك المكان مرة أخرى. تحدّثَ عنّي بوصفي ابن أخته الذي أتى للعمل معه. بدأتُ أشعر وكأنني أخصّه، شيءٌ يملكه. عاملني مديرو محالّه التجارية الثلاثة بِتزلّفٍ ألفيتُ صعوبة في فَهمه. كنتُ قد سمعتُ بوانا أحمد يقول لهم، وعلى مَسمعٍ مِنّي، إني كنتُ سأستلمُ وظائفهم. كانَ يُشجّعُ عادة الاستقلالية، وحثَّ الأشخاص الذين يعملونَ لصالحه بأن يكونوا مُمتّنين للإحسان الذي تكرّم عليهم به بأن منحهم العمل. علمتُ أنني لن أمكثَ للعمل معه، لكنهُ

أغراني بِلطفٍ غير متوقع بِحسبِ مزاجه أو في نوبات قصيرة مفاجئة، كما أنه حدّثني عن بدايات دِفءٍ وحميّمية نحوي.

ثمّ كانت هناك سلمى أيضًا. رأيتُ أيّ سرور كانت تستمعُ به لسردِ أبيها عن يومنا، والطريقة البسيطة التي أدخلتني بها في نوعٍ من الحميمية الأسرية. ولم تكن تلك الحميمية من النوع الذي أردته، ووجدتُ نفسي معارضًا أن أكون فردًا من أفراد العائلة. نادرًا ما كنتُ بمفردي معها، ولكني ما زلتُ أجد نفسي ألعب اللعبة الخطرة والمعقدة للتّيقن مِن أنها تفهم بأني منجذبٌ إليها. أتساءلُ الآن، من أينَ لي هذه الأعصاب لمثلِ هاتيك الجرأة!

خرجَ بوانا أحمد عصر يومٍ من أيام السبت لِعيادةِ صديقٍ في المستشفى. داهمني التوتر حالما أصبحتُ أنا وسلمى بمفردنا. تَحدَّثت بطلاقة ودون قيود، بيد أنَّ أعيننا التَقَت على ما يبدو أكثر من المعتاد. ووجدتُ نفسي مُحترًا أفيضُ خجلًا إزاء الطمأنينة التي منحني إياها أسلوبها معي.

ذهبت إلى غرفتها وأحضرت مُشغِّل الأسطوانات الخاص بها. وأمضينا فترة ما بعد الظهيرة بالاستماع إلى تسجيلات قديمة، بينما كانت سلمى تروى لي عن أوقات وأحداث مرتبطة بهم. علّمتني طريقة رقص الفالس. على الأقل، أمسكتْ بي بينما كنتُ أحاول التذكر أين يجب أن أضع قدمي. كُنّا حريصين على ألّا يتلامس جسدينا، ولكن غشيتني سعادةٌ غامرةٌ من دِفء ذراعها المثنية التي استراحت على ذراعي، وبالضغط الرقيق ليدها لمّا بَدَّلَتها على كتفي، ومن دونِ قصد مَسّت مؤخرة رقبتي. في نهاية دروس الرقص، تشاطرنا ابتسامات صغيرة متواطئة، أرفَقَتها سلمى بتحليلاتٍ صارمة لا رحمة فيها لمقدراتي في الرقص.

كانَ «عَليّ» هو من دخلَ ووضعَ نهاية للعبتنا الصغيرة. كانت ذراعه في الجبيرة، وأتت زوجته لمساعدتهِ في المطبخ، لكنه كان ما يزال مصرًّا على

القيام بالأعمال المنزلية الروتينية بِنفسه. أتى لإسدال الستائر. عندما لاحظتُ وجوده، كانَ واقفًا في المدخل يراقبنا. ابتسمَ وهزّ رأسهُ لِسخافتنا، لكني أبصرتُ في عينيه نظرة قاسية ومُرتابة.

سألنا وهو يقوم ببعض الخطوات الراقصة السّريعة والرشيقة المثيرة للدهشة: هل توجد حفلة؟ سيكون بوانا في المنزل في القريب العاجل.

سارَ إلى النافذة لإسدالِ الستارة، واختلسَ نظرة من فوق كتفهِ إلى سلمى، وأشاحَ بوجهه عنّي. بدت شاعرةً بالذّنب بعض الشيء، وخمّنتُ ما قالتهُ نظرتهُ لها. كنتُ أعلمُ أنني لم أغلبه، وأنه حتى في تقبّلي الجديد في المنزل، كانَ ما يزال يعاملني بِكُرهٍ لا تُخطِئه العين. ما زلتُ في نظره الضيف غير المرحب به، وكانَ رقصي مع سلمى جَراءة ملؤها الزهوّ بالنّفس والاختيال.

فكّرتُ فيها طوال الوقت، وَنسجتُ خيالات مُفصّلة عن اجتماعنا معًا. خشيتُ أنها ستعودُ إلى رشدها من خلال نظرة عليّ، لذا في كلّ مرة نظرت فيها إليّ، وتحدثتُ دونما حرج، دَبّت في قلبي الشجاعة، واكتسبتُ روحًا جديدة. كانت هناك أوقاتٌ بدا فيها كل شيء أحمق وخطيرا، ولكن بدا أنّه ما مِن سَبيل لإيقاف ما بدأ. حاولتُ التفكيرَ في نفسي على أنني البطل الفاتح، الذي سيأسرُ لُبّ ابنة السيّد المتكبّر، ويجعلها تقعُ في غرامهِ، من ثمّ يتخلّى عنها. كانَ خيالًا أكثر أمانًا من الخيالاتِ الأخرى التي استمتعتُ بها، لكنه أكثرها بُعدًا عن الحقيقة. إذ أنني لو ضاجعتها سأكونُ مُخطئًا، وفقَ أيّ عقل ورؤية، في الكيفية التي يجب أن يتصرّف بها الضيف. وإن كنتُ سأتركها سريعا، خشيتُ أن أفقدها إلى الأبد، ولن أعرف أبدًا كيف سيكون شكل التعرّف إليها. ممارسة الجنس معها! لم أكن لأعرف أصلًا من أين سأبدأ. لا أعتقد أنّ رغبتي بها كانت مُركزة وصعبةً على ذلك النحو. أردتُها أن تكون معي، أن تبتسمَ في وجهي، أن يتّكئ دفؤها على جَسدي. أردتُ إرضاءها

بذكائي، وأن أجعلها تُكافئني بِعاطفتها.

أوانَ الغُروب، كنا نجلسُ في الحديقة. وكانت الشمسُ المائلة إلى المغيب تُحيلُ شعرها نارًا، وتُلمّعُ بشرتها بالحُمرة. في كل يومٍ أمست الأمور أكثرُ صعوبة، وكنتُ أخشى انقضاء كلّ يوم. قلتُ لنفسي إنه من الحماقة والجُبن إنكار الرضا فيما شعرتُ به، وبأنني يجبُ ألّا أزجر نفسي بل أن أندفع إلى الطوفان اندفاعًا ملآنًا بالهناءةِ والحُبور، وأن أعيشَ العواقبَ بقدرِ ما أستطيع.

عليٌّ يراقبنا الآن. أحيانا أرفعُ بصري لأجد بوانا أحمد ينظرُ إليّ نظرة مُتأمّلة قَلِقة. في تلك الأوقات كانت تراودني رغبة بالمغادرة، بالهروب من الشكِّ، والعودة لاحقًا تحت شروط مختلفة. لم أثق بالحظّ كفاية للمخاطرة بذلك، وما كان بوسعي الرحيل وثمّة كثير لم يُقَل. وبينما كانت الأيام تمرّ صار هذا الخليط المكوّن من الإثارة والشعور بالذنب أثخن وأشدّ إجهادًا. وبدأ بوانا أحمد يجدُ صعوبة في التحدّث معي مجدّدًا. ومما زاد الأمر سوءًا أنني شعرتُ بأنه يمكنني التعاطف معه.

يوم الأربعاء، خلال الأسبوع الثالث من إقامتي عندهم، طَلَبت مني الذهاب معها إلى المدينة. كانت قد رتّبت لِلقاء مريم مرة ثانيةً، وطلبت مريم أن آتي أنا أيضًا. أعفاني بوانا أحمد من مرافقته كالعادة بتلويحةٍ غير مُباليةٍ من يدهِ. كان بودّه لو يمنع ذهابي معها، لكنني فهمتُ بما فيه الكفاية الآن لأعرف أنّ هذه ليست الطريقة التي يعيشون بها. أردتُ أن أخبره بأني لن أبقى، لأني ظننتُ أنه نادم على عرضهِ بما يخص العمل أيضًا. لم أكن قد وجدت الفرصة المناسبة بعد، ولم أشأ مغادرة نيروبي على عجلٍ قبل أن أكون مُستعدًّا. كانَ ما يزال يتحدّث وكأنني سأبقى، ولكن برضا أقلّ عن كرمهِ.

اصطحبتني إلى متجرِ الكُتب حيثُ كانت تعمل يومين في الأسبوع.

كان محلًّا صغيرًا يقع في ظلّ كنيسة، مكتظًّا بِتراجم الأعمال الدينية والكتب المدرسية. كانَ المدير شابًّا، ومنهمكًا كلّ الانهماك في عمله، ولكن ما يزال يجد الوقت ليكونَ مُرحِّبًا وودودًا. بعدئذ تجوّلنا في الشوارع، وتفرّجنا على الحوانيت والمتاجر.

قلتُ متذمِّرًا: لا يمكنني أن أفهم سبب ذهابنا إلى هذه المتاجر. أنتِ لا تشترينَ أيّ شيء. ندخلُ إلى المحلّ ونتفرج على البضائع، ثمّ تجادلين صاحب المحلّ، من ثمّ نغادر. مَا الغاية من ذلك؟

قالت دونما أدنى تأثّر: الغاية هي أنني أستمتعُ بهذا. أحبُّ أن أتفرج ماذا يوجد هناك.

اصطدمتُ اصطدامًا مؤسفًا ببائع فواكه وَعَربته. فأهانني الرجلُ مُلتَذًّا بالشتائم بِشراسةٍ وغِلّ. وَتلفّظَ بِسردٍ تاريخيّ عن سُلالتي، تركني مُرتجفًا من فرطِ الغضبِ والإذلال. أصررتُ على التوجّه إلى بيتِ مريم بعدذاك. وجدناها في غرفتها بالجامعة. بدت مُتعبة وغير سعيدة، وأوضحت بأن العمل لم يكن يَسير على ما يُرام. مهما تفكّرتُ بالأمور بصورة جذرية وفصّلتُها تفصيلا، حالما أجلسُ للكتابة، كلّ ما ينتجُ هو الهراء ذاته المؤهل والآمن. أريدُ المناظرة في الصِّلة ما بين الفنّ في إفريقيا والواقع الاجتماعيّ لِسياقهِ. وكلُّ ما يبرز هو نفس الهراء الدّيني الزائف. إنني فقط غير مؤهلة كفاية للبحث في هذا الموضوع.

أصدرنا أصواتًا مُشجّعة. تمنيتُ لو كان بوسعي فهم المصاعب، ألا وهي المصاعب التي كنتُ أواجهها، بحيثُ يكونُ بمقدوري أنا أيضًا أن أكون غير سعيد بمثل هذه الإخفاقات. أعتقد أن الأمور سرعان ما أصبحت واضحة بالنسبة لها، والابتسامة الماكرة التي واجهتني بها كانت مُطمئِنة. أخبَرتها

سلمى عن عرض العمل. فسألتني: هل ستبقى؟

انتظرتُ لِما بدا وقتًا طويلًا، غير واثق لأيّ مدىً يُمكنني التحدّث بصراحة. قلتُ: لا أعتقد.

أومأت مريم بِاستحسان. ولم أجرؤ على النّظرِ إلى سلمى.

تساءلت سلمى: ولم لا؟ لم يبدُ عليها أنها حزينة أو منزعجة، وقد آلمني هذا بعض الشيء، لأنها لم تنزعج. مجرّد أنها بَدَت مهتمة.

قالت مريم: لأنهُ يريد أن يذهب وأن يصنع أشياء من أجل نفسه أوّلًا. لمَ عليه أن يعمل في محل جِزارة أو القيام بمهامٍ لا تنتهي من أجل أبيكِ؟ لديه أشياء أفضل للقيام بها، أليسَ كذلك؟ اكتشف المزيد حولَ بيكاسو وتولكين كبداية!

اعترضت سلمى بالقول: كنتُ مهتمّة بالأمر فقط. على أيّة حال، هناك أشياء في الحياة أفضل من معرفة بيكاسو وتولكين.

هتفت مريم، مصعوقة من هذه البِدعة: مثل ماذا؟

قالت سلمى مُبتسمة لصديقها: مثل تَعلُّم رقصة الفالس، كنتُ أعلّمهُ كيف يرقص الفالس.

- هممم، أرى أني متخلفة عن ركب الزمن.. وهل أخذتيه إلى حفلة راقصة أو شيء من هذا القبيل؟ هلّ علّمتِهِ شيئا آخر؟ آمل تحت كل هذه التطورات الجديدة أن يكون ما يزال هناك الفتى الريفي اللطيف الذي قابلتهُ قبل بضعة أسابيع.

قلتُ مُحتجًّا: إنكما لتبدوان مثل ساحرتين تتناقشان في أمر لقمةٍ على وشك أن تلتهمها إحداكن!

قالت مريم مُتظاهرة بالدهشة: على وشك! أعتقدُ أن الوجبة انتهت بأكملها.

تأوّهت سلمى ممتعضة: مريم!

قالت مريم متحدّثة بصوتٍ أمومي مُناغٍ: اسمع يا حسان، إن كانوا يُسيئونَ معاملتك تعال إليّ. يوجد لك مكان هنا على الدوام.

ذهبنا من جديد إلى المقهى الهنديّ لتناول الغداء، وكانت مريم مثل شخصٍ أُطلِقَ سراحهُ من السّجن. تحدّثت دونَ توقف، أغاظت سلمى واختلقت قصصا عن الزبائن الآخرين. حكت لنا عن أخيها، الذي كان يُتوقّع قدومه من أمريكا في أي يوم. كانَ متزوّجًا بِامرأة أمريكية، وكانَ والدها مصدومين ومحزونين، ينتظران عودته دون أي فرحةٍ يأملان الشعور بها.

قالت لي: ليكن ذلك درسًا لك. لا تُعقّد حياة والديك. في تجوالك حول العالم، تذكّر فقط الاستفادة من النساء اللواتي تجدهنّ هناك. لا تكلّف نفسك عناء الزواج بِإحداهن. هذه مجرد قذارة. أفترِضُ أنك ستجوب العالم، أليس كذلك؟

سألَت سلمى وفي صوتها مسحة من الحزن: كيفَ ذاك. وشعرتُ بدفءٍ في قلبي إذ رقَّ لها.مكتبة سُر مَن قرأ

- سيعثر على طريقة، أليسَ كذلك يا بيكاسو؟

توادعنا في الشارع. رسَمَت مريم على وجهها تعابير هزليّة وهي تتحدّث عن عودتها إلى الأُطروحة. قالت لي إنه يجب عليّ الذهاب لرؤيتها بمفردها في وقتٍ ما.

اتضّحَ أننا مشينا لساعات، ورحنا نتحدث من حينٍ إلى آخر: مررنا بجوار السيارات المركونة، ومداخل الفنادق، ودكاكين تبيع أسطوانات موسيقية

لجيم ريفز[1] وإلفيس بريسلي[2]، وكلّ شيء آخر، من سيور الأحذية إلى أجهزة التلفزيونات. ومررنا أمام بَاعة الصُّحف، وأكشاك المجلّات التي تبيع صورًا لِكاسترو[3] وَعِيدي أمين[4]. رأينا رجالًا مُسنّين مخمورين ومستلقيَن في الشوارع. مشينا تحتَ أشجارٍ خَضراء، ومررنا أمام حُلِيّ معروضة على الأرصفة، ومررنا بِحذاء مُربّيات أطفال بدينات يدفعنَ عربات أطفال. رجلٌ كان يتنبّأ بنهاية العالم من على سطح حافلة. رجال شرطة وقفوا وقفة متخشّبة لإلقاء تحية على سيارة وزير عابرة. دراجة نارية هادرة اقتربت من الرصيف بصورة خطيرة. جلسنا أخيرًا على مقعدٍ في أحد المنتزهات، وعلى مرمى البصر مجموعة من المباني الحكومية. كنّا محصّنين من الطرقات بُالشّجيرات المزهرة وأشجار الزينة. أَخذَت يدي، وَرفعتها إلى فَمها وقبّلتها. تبادلنا ابتساماتٍ خَجلى. سرعان ما أفلتت يدي. كنتُ في غاية الذهول، غير قادر على فعل أي شيء.

سألتني: لماذا لا تريد البقاء؟ سألت بِرّقةٍ وعذوبة، غير مُطالِبة بشيء وإنما سألَت لكي تفهم.

- لأني لا أريدُ أن أكون مملوكًا لأحد. لا أريد الاعتماد على شعور والدك

---

(1) جيم ريفز (1923-1964): مغني ريف أميريكي وموسيقى شعبية وكاتب أغاني.

(2) إلفيس بريسلي (1935-1977): مغن وكاتب أغاني وممثل أمريكي. لُقّبَ بملك الروك آند رول.

(3) فيدل أليخاندرو كاسترو (1926-2016): ثوري ومحام وسياسي كوبي رئيس كوبا من عام 1959 وحتى عام 2008، حالَ استلامه سدة الحكم حول بلاده إلى النظام الشيوعي لتغدو كوبا أول بلد يعتنق الشيوعية في العالم الغربي. زعيم الثورة الكوبية.

(4) عيدي أمين دادا (1925-2003): رئيس أوغندا الثالث في الفترة ما بين عامي 1971 و1979، ويوصف دومًا بالديكتاتور العسكري.

نحوي. لا أريد أن أغدو مثل المديرين الذين يعملون لصالحه. لا أحاول أن أكون قاسيًا مع أبيكِ. هذه هي الطريقة التي أدارَ بها الأمور، وهكذا نجح. لا أعتقدُ أنني الشخص المناسب... هل تفهمينني؟ لم أشرح جيّدًا، لكني لا أقصد أن أكون قاسيًا. أتمنى لو كانَ بوسعي البقاء.

أرادت مني قول المزيد، لكني عجزتُ عن التفوّه بالكلام. لم أختبر من قبل مشاهد كهذه، وعندما جرّبتُ الكلمات في ذهني، بدت متكلّفة معسولة وغير صحيحة. كرّرتُ القول: أتمنى لو كانَ بوسعي البقاء.

قالت مبتسمة لإخفاقي: وأنا أيضًا أتمنى لو كان بمقدوركَ البقاء. لكن ليس عليك الذهاب بعد، أليس كذلك؟

أجبتها: لا. من الرائع مقابلتك. سوفَ أشتاقُ إليكِ.

قالت: ربّما ستعود.

- سأعود.

قالت وهي تميل بعيدًا عني: كنتَ قد سألتني عن أمرٍ منذ مدة، ولم أُجِبك.

قلتُ: عن والدتك.

تابعت القول: ماتت عندما كنتُ طفلة. سمَّمت نفسها.

- أوه، لا! أخذتها بين ذراعيّ وأحسستُ بتنهيدتها، وارتكت عليّ. بعد دقيقة سحبت نفسها عني، واعتدلت في جلستها.

قالت: لا أعلم لماذا. دعني أخبرك بالقصة. لم يتحدث أبي عنها قطّ. كنتُ أسألهُ عنها دومًا عندما كنتُ أصغر. آه، لقد أخبرني أشياء من قبيل، إنها أتت من ماليندي[1]... وبأنّ الله أخذها بعيدًا عندما كنتُ صغيرة... أشياء من

---

(1) ماليندي: Malindi مدينة تطل على خليج ماليندي الذي يشكل جزءًا من الشريط=

هذا النوع. كانَ أبي طيّبًا للغاية. أعلمُ أنه يبدو صارمًا وضيّق الخُلُق، وسريع الغضب وقاسيًا في بعض الأحيان... لكنه طيّبٌ جدًّا. إنه رجلٌ صالح. قالت ذلك، وبدأت عيناها تدمعان.

قلتُ: نعم، أعرف.

- عليٌّ وهو. عليّ معنا منذ زمن طويل. لا بدّ وأنك استغربتَ، من التصرّفات التي يقوم بها... إنه فردٌ من العائلة تقريبًا.. حسنًا، أنا متأكدة بأنه لا يرى الأمر بهذه الطريقة. إنهُ ما يزال الخادم.

سألتها: كيف عرفتِ ما حدث؟ لوالدتك؟

- مريم هي من عرفت الأمر. إننا نتعارف مُنذُ كنا طفلتين. كانت دومًا بمثابة الأخت الكبرى. أخفوا الأمر عنها أيضًا كل هذه السنين. كانت زلّة لسان. أمها أخبرتها بالقصة. أنتَ تعلم مدى تكتّم الناس حول مثل هذه الأمور. قالت إنها لم تستطع استخلاص مزيدٍ من المعلومات من والدتها. وأنا لا أعرف كيفَ أسأل والدي عن الموضوع. ربما يبدو ذلك ضعفًا في نظرك.

قلتُ: لا، أعرفُ مقصدكِ تمامًا.

- سمّمت أمي نفسها، ولا أعرف كيف أسأل عمّا حدث. أنا متخوفة جدا من التسبّب له بمزيدٍ من الأذى. حتى إنني خائفة أكثر من أنه لن يخبرني، وبأنهُ سوفَ يُعرِضُ عني. إنهُ يغضبُ كثيرًا في بعض الأحيان. تنتابهُ نوبات غضبٍ عنيفة...

قلتُ مُبتسمًا: لقد حذّرتني أمي..

مكتبة
t.me/soramnqraa

ا=لساحلي الكيني الممتد على المحيط الهندي.

سألت سلمى ضاحكة: هل حذرتكَ حقًّا؟ وانهملَ الدمعُ مدرارًا على وجهها.

- لا يعني ذلك أني أحتاجُ إلى فهمها أكثر. لا أستطيع فعل أيّ شيء حيالها. ولكن لكي أفهمه... ونحنُ... ما بيننا. إنهُ يُخفي هذا الأسى، ولن يسمح لي حتى بمعرفة أي شيء عمّا يخفيه..إنهُ على هذه الشاكلة كل هذه السنين، وفقط في السنة الفائتة بدأتُ أفهم لماذا. لن يسمح لي بأن أسأله، وأشعرُ أنه يجب عليَّ السؤال.

أمسكتُ يدها، وأبقيتها بين يديّ.

- والآن أنت هنا لتجعل الأمور أكثر تعقيدًا. قالت ذلك وهي تمدُّ يدها، وتلمسُ وجهي. ثمّ ضحكتْ: قال لي إنك ستأتي. وسَخِرنا منك. حكى لي عن أمك عندما كانا طفلين، وعن كلّ الأيام الخوالي...

- هل أخبركِ عن أبي؟

- نعم، أخبرني.

- هل قال لك إنه كانَ في السّجن؟

أجابت: نعم، لقد أخبرني بكلّ شيء.

- وهل أخبرك بأنّ أبي ضاجعَ صبيٍّ صغير؟ وبأنَّ الصبي الصغير صار مجنونًا تقريبًا؟ وبأنَّ الناس يقولونَ إنهُ اعتادَ بيع الصبيان الصغار للعرب؟ وبأنّهُ سكّير ويُبدّد أكثرَ وقتٍ ممكنٍ في بيوت الدعارة؟

قالت: نعم.

- يا إلهي، أيّ شيء توقعتماه!

شعرتُ فجأة بالأسف الشديد من أجلهم، ولكلّ البؤس الذي أضفتهُ

إلى حياتهم. لا بدّ أنها خيانة مريعة، بأن يفكرَّ بهما ابنهما الوحيد بلا إحساس.

قالت سلمى: توقعنا مهرّجًا. توقعنا شخصًا بإمكاننا الضحكَ عليه. ولكنكَ أتيت. ضحكت، ولمستني مرة أخرى. - والآن، إنه يشعرُ بالذنب. ما كانَ عليه أن يطلب منك المجيء. إنه لا يستطيع مساعدتك. أنت تعلمُ هذا، أليسَ كذلك؟ لقد مرّ بوقتٍ سيء للغاية. ماذا كنتَ تقول عن المديرين... لقد غشّوه. كل هؤلاء المديرون جدد. جميعهم يسرقون منه. ما كانَ عليه أن يطلب منكَ المجيء. إنه يعرف هذا.

قلتُ: لا يهمّ. عرفتُ بهذا الأمر حالما أتيتُ، لقد جعلتماه واضحًا بالنسبة لي.

قالت: أنا آسفة. وبدت نادمة منكسرة الفؤاد على نحو هزليّ.

- كلا، لقد كنتُ مُهرّجًا في البداية عندما أتيتُ. ليس من أجل الأسباب التي توقعتماها. وتمثيلية البرياني تلك... أعتقدُ أني كنتُ كل ذلك من أجل نفسي، وبأني ذلكَ المعتوه البغيض لدرجة أنني أستطيع التّظاهر بأنني لم أكن جادًّا، وبأنني أسمى من مهمّة التسوّل التي كنتُ أقوم بها. لكني مسرور لأنني أتيت. لقد قابلتك. وأنا سعيدٌ من نواحٍ أخرى لمجيئي. أنا آسف فقط لأني سأضطرُّ إلى المغادرة، ولن أراكِ.

- لكنكَ ستعود.

قلتُ: نعم، سأعود.

سألت: ماذا ستفعل؟

- لا أعرف، سوفَ أعودُ إلى بيتي.. وأعثرُ على طريقة ما...

كانَ قد بدأ الظلامُ يحلّ عندما قررنا التحرك. اقتَرَحت السينما، مُتردّدة

مثلي في العودة إلى المنزل. كنتُ قلقًا بشأنِ ما سوف يفعله بوانا أحمد إن تأخّرنا، إلا أنها لم تبدُ قلقة بشأن ذلك.

قالت: عندما تمضي يجب أن تُكاتِبنا.

قلتُ: سأكتبُ.

كانت الشوراعُ مُضاءة بشدّة فما كان بمقدوري احتضانها. كانت السينما تعرض «اعترافات مُلتهم أفيون إنكليزيّ[1]». واجتمعنا على الرأي بأنهُ مملّ للغاية، ولكنّا كنّا بحاجة ماسّة إلى استخدام دورة المياه. اضطررنا إلى شراء تذاكر فقط لننعم باستخدام المرحاض. كانَ يستحق المال. كانت الأرضية مفروشة بالسجاد، وكانت شفاطات الهواء تهدرُ بلطفٍ فوق رؤوسنا، وفاحت من الهواء عطورٌ خفيفة طيّبة الرائحة.

شعرتُ بالحماقة لأننا وضعنا يدًا بيد في الحافلة، وقد كان مرفقانا يُعيقان جلستنا تلك. كانت الحافلة فارغة تقريبًا، لكننا تحدّثنا هَمْسًا. في خاتمة المطاف، مُتخلّيةً تمامًا عن حذرها، أسندت رأسها على كتفي، ووضعتُ ذراعي حولها. وَصَلنا بسرعةٍ كبيرة. وبينما كنا نسلكُ الطريق نحو المنزل، مَشَت بعيدًا عني. لا بدّ أنها كانت الثامنة أو التاسعة مساء، كانَ الظلام دامسًا في كلّ مكان، باستثناء مساحات الأرض التي أضاءتها أنوارُ الشّبابيك. وقفتُ خلفها وهي تحاول جاهدةً مع القفل. انتُزِعَ الباب من بين يديها وأُشرِعَ، وكانَ أبوها واقفًا في المدخل قبالتنا، كتلة بدينة من الغضب المستعرّ.

صاحَ عبر أسنانهِ المكزوزة: أين كنتما؟ ادخلا إلى هنا!

---

(1) اعترافات ملتهم أفيون إنكليزي (1962): Confessions of an English Opium-Eater فيلم أمريكي مأخوذ عن كتاب يحمل نفس الاسم، وهو عبارة عن سيرة ذاتية للكاتب الإنكليزي توماس دي كوينسي (1785-1859).

أشارَ إلينا بِحدّة لكي ندخل. عندما مرّت سلمى من جانبه، ضربها بقوّة على مؤخرة رأسها. ترّنحت إلى الأمام ثمَّ استدارت لمواجهته، فاغرة الفم من الصدمة، مجروحة المشاعر. اغرورقت عيناها بالدموع. خطا إلى الأمام وصفعها. ترنّحت مرة أخرى، وصاحت عاليًا من الألم. صرخَ: كيفَ أمكنك فعل هذا؟ بعد كل شيء كيف استطعتِ؟

أمسكَ برأسهِ وأنشأ يتأوّه. هزّت رأسها، وكانت الدموع الآن تنهمر من مقلتيها. «دادي!» قالت، وهي تمشي نحوه. رفعَ بصره إلى الأعلى، ثمّ تقدم لمواجهتها ولكمها بكامل قبضته على فمها. انتفضَ وجهها كلّه دهشةً وخوفا. وكانت الدماء تنبجِسُ من فمها.

صاحَ بها: اذهبي إلى غرفتك. اذهبي!

استدارَ عن مرآها، وفركَ وجهه بيديه ليمسحَ عنه ما كانَ يراه. وقفت حيث كانت مُنتحِبة بينما كانَ الدم يسيل من فمها. التفتَ إليها مجدّدًا. أطبقت يدها على فمها كي تُسكِت البكاء. قالَ لها متوسّلًا: اذهبي!

شاهدها تهرع نحو باب غرفة المعيشة، ثمَّ استدار إليّ. كانَ وجهه نَضّاحًا بالشرّ والكراهية. رفعَ قبضته وهزّها في وجهي. استدار على عقبيه ومشى إلى غرفة الجلوس مناديًا عليَّ من فوقِ كتفيه: تعال.

قال: اجلس. وهو يذرعُ المكان جيئة وذهابًا بجانب النافذة لبضع دقائق. فليذهب إلى الجحيم، فكرتُ، ثم نهضتُ. وقفَ في منتصف الغرفة، ويداهُ مشبوكتين خلفَ ظهره.

قالَ لي وهو يكزُّ على أسنانه بينما يحاول السيطرة على نفسه: أنت حيوان.

كانت ساقاي ترتعدان. قلتُ لنفسي إني لستُ خائفًا حقًّا، مررتُ بهذا من قبل، وبأني كنتُ مُستعدًّا للدفاع عن نفسي. يا إلهي، فكرتُ، انتظر حتى

يعرفون بما يحصل.

صاحَ مرتجفًا من الغضب: أيّ حيوان مقزز أنت؟ واستأنفَ خَطوَهُ. وكانَ يحملقُ بي ما بين حينٍ وآخر وكأني بَزّاقة تزحفُ على أرضيّة بيته. توقفَ أخيرًا، وهزَّ رأسه ساخطًا متحيّرًا: لقد أخطأتُ، سأعترف بذلك. ما كانَ عليّ أن أدعوك للقدوم إلى هنا. كان ذلك خطأ مني. بذلتُ ما في وسعي. رحبّتُ بكَ.. مثلَ.. مثل واحدٍ منّا. كنتُ مخطئًا إذ طلبتُ منكَ المجيء، لكني حاولتُ أن... عرضتُ عليكَ عملًا. لا يمكنني مساعدتك. ما كانَ ينبغي عليّ أن أدعوك. أكانَ عليك أن تفعل ما فعلت؟ هل كانت هذه طريقتك لمكافأتنا على الطريقة التي عاملناكَ بها؟ فتحتُ بيتي لك.. استقبلتكَ.. وأنت انتهزت الفرصة. تلاعبتَ بابنتي. أسأتَ إلى دمي، إلى اسمي. لقد راقبتكَ، وكانَ عليّ إيقافك. لكن لم يخطر لي بأنك قادر على ذلك. أَلَمْ يُعلّموكَ شيئًا؟ ألم يعلّموك أية أخلاق أو تصرفات من حيثُ أتيت؟ تقيمُ في بيت المرء ومن ثمَّ تستغلّ ابنته. آه، يا رب، أنا ما تعلّمتُ الدرس قطّ.

أحسستُ أن لن تكون هناك محاولة للضرب. تعيّنَ عليَّ البقاء هادئًا، وامتصاص غضبه، ومن بعدها من المحتمل أن أحاول الشرح. حدّقَ في وجهي كما لو كانَ يتحدّاني أن أتكلّم. قال: أنت حيوان. ثمّ سحبَ نَفَسًا عميقًا ليهدئ نفسه: أنت حيوان، لماذا لم أتعظّ أبدًا؟ رجاء احزم أغراضك واخرج من هنا. الآن، من فضلك، الآن! يجب أن أذهب وأتفقد ابنتي. وفجأة بدأ بالصراخ مرة أخرى: ألا يمكنك التفكير في أي شيء آخر تودُّ القيام به؟ ألا تريدُ أن تجلبَ سكّينًا وتطعنني بها أيضًا؟ أوه، اخرج من بيتي. اخرج! كانت قبضتاه مشدودتين إلى جانبه، وكانت ذراعاه ترتجفان. وكانَ وجههُ ملتويًا من الألم. أردتُ أن أن أوقفه، أن أهزّهُ هزًّا قويًّا وأدفعهُ إلى الحائط. أردتُ أن أقول لهُ إن شعوره بالألم لا يعني أنهُ فَهِمَ ما فعله، أو أنه

يحقُّ له أن يضرب الناس. وبأنَّ تنمّرهُ التافه كانَ يتسبب بمزيدٍ من الإتلاف أكثر مما ينبغي أن يكون في مَقدِرة رجلٍ غبيّ.

شرعتُ في الكلام: لم أفعل شيئًا.

صاح قائلًا: لا أريد أن أسمع منكَ أية كلمة.

- وابنتكَ لم تفعل شيئًا.

- أغلق فمك. واحزم أغراضك فقط، وارحل من هنا. الآن! لا أريدُ سماع أيّ تفسيرات أو اعتذرات منك. سأتصلّ بوالدك. سوفَ يعرف كلّ شيء عن هذا. سيكونُ رجلًا فخورًا جدًّا عندما يسمع مني.

حدّقَ في وجهي واكتنفنا صمتٌ طويل. كلانا فهمَ ما الذي عَنَاهُ بخصوص أبي. ابن رجلٍ كهذا لا يُتوقّع منه التصرف على نحوٍ مختلفٍ كثيرًا.

قلتُ: إنك تؤذي الناس بلا سبب. لا داعي لأيّ من هذه التصرفات. لم يكن هناك داعٍ لضربِ سَلمى.

دَمدمَ وخطا إلى الأمام: لو لم تكن ابن أختي لكنتُ قتلتكَ وواجهتُ العواقب.

- اقتلني. لا تدع أختك تمنعكَ من فعل الصواب. ما من شيء واحد فيك يُخيفني. لم أهِنك أو أجلب لك العار. أنت من جلبَت العار والمهانة لنفسك.

قالَ وهو يدفعني جانبًا بضربة عنيفة من يده: آاه، اغرب عن وجهي.. ارجع إلى أبيك المجرم. سوف يتفهّم ما الذي فعلته، ذلك الرجل القَذِر السّفيه. ثمّ بصقَ على الأرض ودفعني صوب الباب.

توقفتُ والتفتُ لمواجهته: اسمعني، أنت رجلٌ غبي، وآمل من الله أن

يغفرَ لكَ ما تفعله. بمقدروكَ بناء سجنٍ لابنتك، لكني سأعود إليها.

لم يُجِب بِشيء، وقفَ ساكنًا، مُحدِّقًا في وجهي. كانت شفتي السُّفلى مرتعشة، ودعوتُ الله ألّا أنفجر بالبكاء. تَبِعني وأنا أمشي في الممر إلى غرفة النوم. كانَ باب سلمى مُغلقًا، وتجاوزتهُ دونَ توقف. جمعتُ أشيائي القليلة، وحشرتها في الحقيبة. كانت هناك ورقة على السّرير، التقطتها ووضعتها في جيبي. كانَ بوانا (السيد) أحمد بن خليفة واقفًا عند الباب يراقبني. أشارَ لي بِإصبعه كي أغادر. ظلّ معي طيلة الوقت ليمنعني من رؤيتها. مررتُ بجواره، شعرتُ بوخزٍ في رقبتي تَرقّبًا لصفعة مفاجئة. لَحِقَ بي إلى الباب الأمامي، وظلَّ واقفًا هناك إلى أن بلغتُ الطريق. لا أحد ركضَ في إثري، لكنَّ الورقة في جيبي مَنحتني الطمأنينة.

لم أشأ انتظار حافلة. أردتُ أن أمشي وأن أفكّرُ وأن أُهين نفسي. أردتُ أن أكافح وأواصل السعي في الظلام، جائعًا متعبًا، تطاردني الكلاب الهائجة. ربّما كنتُ سأضطّرُ إلى النوم في العراء، كي يهاجمني قُطّاع الطرق، ويَسلبونني ويضربونني. مرّت بي سيارتان، وفي كل مرة كانت السيارة تزيدُ من سرعتها وتجتازني. ارتفعَ عويل مخلوق ما من مكان بعيد، امتدَّ لثوانٍ طويلة في الظلام. وبدأت الأمطار تَسَّاقطُ وتنقرُ نقرًا خفيفا. وسرعان ما بدّلت طبيعتها، فصارت قطرات قاسية وسريعة الانهمار راحت تنفجرُ في وجهي. ماذا كانَ بيكاسو ليفعل؟ هل كانَ سيعود؟ فتّشتُ في جيبي عن الورقة. وقفتُ على قارعة الطريق وصِحتُ عاليًا من أجل مزيدٍ من المطر، شاعرًا بأني كيان مهجور وبائس في هذا المشهد الليلي غير المتناهي. كان المطر ينهمر بِشدّة وغزارة أكثر، مُصدّقًا على هذا العذاب، محرِّضًا إياي على التوغّل فيه. ربما يمكنني الحصول على وظيفة في نيروبي، لبيع الحُليّ الرخيصة على الرصيف. وقد يتّخذني موسى شريكًا صغيرًا له. أي شيء أفضل من العودة

هكذا. هتفتُ باسمِ سلمى عاليًا في الليل، مُتسائلًا عمّا إذا كانَ سيجعلني ذلك أسوأ حالًا. ففعل، لذا هتفتُ باسمها ثانية، بإحساسٍ أقوى.

لم يكن هناك من خيار سوى العودة إلى أهلي. وعندما أعودُ إليهم، سيخبرونني عن أسلافهم، عن عِرق الله المُختار، الذين انهمرت عليهم الأمطار بغزارة أثناء تجوالهم؛ عابرو سبيل قُساة يستنزفونَ الأرض. وكانوا ليُخبرونني عن أمجاد أجدادهم، عَن ممالكهم وفُتوحاتهم. عُدتُ خالي الوفاض، في حين كانَ بإمكاني العوده بأموال مكدّسة. عُدتُ بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ في حين عادوا بِالعَاج وبالقرونِ المثيرة للشّهوة الجِنّسية. أخفقتُ بِفعلِ القليل الذي كانَ بالإمكان القيام به.

لم يسأل أحدٌ عن النساء اللائي تركوهنَّ وراءهم في شبه الجزيرة الظمآنة، هؤلاء الأشخاص من العِرق المختار. لا شكّ في أنهن قاسينَ في يَقينهنّ الصّارم، مع العلم أن الله أعطاهن الوثني الأسود للاستعباد، وجعل أزواجهن ناجحين مُوسرين. أنجبنَ أبناء في أيام الرِّي عندما عاد أزواجهن بالحكايا والغنائم من الأراضي السّوداء. لسنواتٍ طويلة وهنّ يأكلنَ السَّلَطة بِرفقةِ الماعز، تُركنَ بمفردهن ليتَكَسّبنَ العَيش من الصخور الجرداء والرِّمال، مُتسربِلات بِملابس حِداد سودٍ رثّة، وينادينَ أطفالهن بِصرخات تحذيرية مُجلجِلة. خرجَ شعب الله من تلكَ الصخور الجرّاده والرِّمال، لينقذوا العالم من الهرطقة. أرسلوا إلينا أبناءهم البالغين لِسَبْينا وسَوْقِنا غارقينَ في دِمائنا. من سُلالتي الخاصة لا يوجد سوى بائعي الملح والبَحّارة والمُدلِّكين، بِحصّة مُعترف بها، على مضض، من الدّم الأسود في عروقهم. المجد، المجد، لم يكن هناك حتى رسّام يحملُ اسمنا.

توقفت سيارة تحت المطر، ارتَجَّ محرّكها بقربي. كانَ من خلف المقود رجلٌ أوروبي. أشارَ لي للقفز إلى السيارة إلا أني هززتُ رأسي بالرفض، ولوّحتُ

لهُ ليمضي في سبيله. كنتُ قد سمعتُ بما فيه الكفاية عن الانحرافات الجنسية التي تعرّض لها أشخاص من أوربيين لطفاء كانوا قد توقفوا بعرباتهم من أجل منحهم توصيلة. رفعَ كتفيه غير مكترثٍ، ورفعَ يدهُ مودّعًا وانطلق.

بحثتُ عن الورقة في جيبي. الأمطار آنئذٍ باتت مزعجة. والظلام حرمني كلام محبوبتي. محبوبتي! بعد كلّ هذا الحديث عن الموت والألم! كانَ عليّ أن أتعلم من لا شيء الكلمات التي لم أقلها من قبل. رأيتُ ضوءا بعيدًا، بعيدًا جدًّا. باتَ من المهم فجأة قراءة الرسالة. ركضتُ في المطر، وُصِحتُ على كلاب الحقول التي نَبَحت لدى مروري. عندما وصلتُ إلى الضوء، اقتربت مني سيارة شرطة. وقفتُ لأراقبها، وقد نهضت مخاوفي القديمة.

بادرتُ إلى القول: «أنا ذاهبٌ إلى محطة القطار»، ورفعتُ حقيبتي إثباتًا على كلامي. عندما رفعتها إلى النور، بَدَت حقيبتي أشبه ما تكون بحقيبة عدّة السارق. لم يَظهر على رجال الشرطة الاهتمام. قالَ أحدهم: «لن نسير بذلك الاتّجاه»، وتبادلوا بضع كلمات ثمّ انطلقوا، خائفينَ من أن أطلب منهم أن يقلّوني.

فتحتُ الرسالة بحرص، لئلّا أُتلِف طيّات الورقة المُندَّاة من فرطِ إثارتي. كانت قد كتبت: «لا تنسَ أن تكتب. س». وأسفل ذلك كتبت اسم مريم بالكامل، وعنوانها الجامعي. هل كانَ هذا كلّ شيء؟ لا توجد كلمات تحمل وعودا عاطفية؟ لا عهود ملطّخة بالدم؟ ومع ذلك، هذا كافٍ، أيا سَلمايَ المسكينة المجروحة. لم أخسرها. رميتُ الورقة في بركة تحت عمود الإنارة. وكان ذلك مناسبًا لدراما اللحظة. بحثتُ عن مَعْلَمٍ حتى أتذكر المكان. لقد جعلتهُ مزارًا، لأرجع إلى المكان في رحلة حجٍّ عندما أعود لطلبها. التقطتُ حقيبتي ومشيتُ نحوَ أضواء المدينة.

بلغتُ المحطّة في منتصف الليل. كانت البوابات مغلقة، ولكن المسافرين

في قطار الصباح الباكر إلى جينجا وكمبالا كانوا نائمينَ في السّاحة. قالوا لي إن قطار السّاحل غادرَ في وقتٍ مبكرٍ من المساء. تمددتُ للنوم على الأرضية غير المريحة، إلا أنّ الرجلينَ اللذين أخبراني عن القطار بدآ بمضايقتي. في البدء أرادا المال، لكنهما باتا مصدر تهديد بعد ذلك. تركتهما، واقتربت من البوابات حيث كان هناك مزيد من الناس. وجدتُ مكانًا بالقرب من عائلة وحاولتُ النوم.

حالما كانَ الضِّياء قد انتشرَ بما فيه الكفاية، غادرتُ للعثور على الجامعة. انتظرتُ عندَ بوابة الجامعة إلى أن رأيتُ أناسًا يتحركونَ في الجوار. كانت مريم ما تزال في السرير عندما طرقتُ الباب. وارَبَت الباب، واختلستْ النظر من الشّقِ الصّغير.

سألت وهي تعصرُ عينيها لتطرد منهما النوم: ماذا حدث؟ ذهبتُ إلى الفراش منذ ساعة فقط.

قلتُ: أعتذر، أردتُ فقط التحدّثَ إليكِ، سأعودُ لاحقًا.

سَألَت، مُتيقظَةً فجأة: هل من مشكلة؟

قلتُ لها، ضاحكًا من سخافتي: لقد طُرِدتُ!

تأوّهت ممتعضة: آه، يا إلهي. أعطني بضع دقائق.

ذهبنا إلى المقهى لتناول الفطور، وأخبرتها بما حصل. قالت: ذاك الرجل الغبي، أنت لا تعلم ماذا فعل ذلك الرجل. لم أجرؤ حتى على إخبار سلمى. أكتب لي، وأنا سأوصلُ الرسائل إلى سلمى. لا تدعهُ يخيفك.

- ماذا تقصدين؟ ما الذي فعله؟

حَكَت لي عن أمّ سلمى وما الذي حدث لها. في البداية، كانت متردّدة

بالكلام، ولكنها كلما حكت أكثر، ازدادت انخراطًا في قصتها وتورّطًا. «كان صديق لهم، لا أعرف اسمه يقيم معهما. كانَ قد أتى من أوغندا أيضًا. تعارفوا منذ الطفولة. حصلت مشكلة ما، أخفقَ في عمله أو شيء من هذا القبيل. أعتقدُ ربّما أنه تحتّمَ عليه الذهاب إلى السجن. على أية حال، استقبلاه في بيتهما وآوياه. عاشَ معهما لأشهر. ثمّ اكتشف العم أحمد بأنهما كانا يتضاجعان. حسنًا، هو من قال إنهما كانا يتضاجعان. هاجَ واشتعلَ غضبًا، وقاتلَ هذا الصديق. أظنُّ أنهُ تسبب لهُ بإصابات بالغة، بِمُدْية أو ما شابه. ثمّ حبسَ والدة سلمى في غرفة. علمَ الناس بالقصة لأنّ الصديق أخبر الجميع، وأصرَّ على براءته. لم يبرح عمي أحمد بيته. لم يذهب إلى العمل حتى. لَزِمَ البيت فقط، ووقفَ حارسًا على زوجته. أخبرتني أمي بأن بعض الأشخاص حاولوا الذهاب لمقابلتهِ، لكي يَعدِل عن جنونه ذاك، إلا أنه رفضَ مقابلة أي أحد. شخصٌ ما رأى أمّ سلمى في النافذة. بدت مثل امرأة مجنونة، شعرها قذر وملابسها مُمزقة بالية. في خاتمة المطاف جاءت الشرطة ونقلتها إلى المشفى. بحلول الوقت الذي أخرجوها فيه من المشفى، كان العمّ أحمد قد هدأ، لكنَّ الأوان فات بالنسبة لها. كانت فَزِعة من كل شيء. لم يكن يسمح لها بالذهاب إلى أي مكان بمفردها. في النهاية سَمّمت نفسها. أعتقدُ أنها كانت مجنونة بالفعل حينذاك. قالت أمي إنه كانَ يجب أن يرافقها حارس، مثلَ المختلّين عقليًّا. رأتها مرة، قُبيلَ موتها. كانَ العيد حينها، وقد ذهب أبي وأمي لتحيّة العائلة. كانت أمي قد ذهبت إلى دورة المياه، وبينما كانت هناك في الداخل، سمعت حركة شخص ما أمام الباب. عندما خرجت، رأت أنها كانت والدة سلمى. قالت إنها بدت مُهمَلةً بعض الشيء، لكنها لم تبدُ غير سعيدة. أنت تعلم كيف نحبسُ أقرباءنا المختلّين عقليًّا في بيوتنا، فافترضت حالَ رؤيتها بأن أمّ سلمى باتت واحدة منهم. بعدئذٍ سمّمت نفسها. لم أكن أعلم بأيّ من هذه التفاصيل قبل أن تخبرني أمي بها. لم أعرف كيف أخبر

سلمى بالأمر، لكنّ على أحدهم أن يخبرها. وهو لن يخبرها. أظنُّ أنه سيقتل نفسه في يومٍ من الأيام.

سألتها: لمَ تقولين ذلك؟

قالت: أنا فقط أقوله. لا أعرف أيّ شيء. لن يمكنه التعايش مع الأمر. في يوم من الأيام سوف تكتشف سلمى الحقيقة، وحينها لن يكون قادرًا على احتمال الطريقة التي تراهُ بها. إنهُ يعيش من أجلها الآن. كانَ يحاول التعويض من خلالها. وذات يوم ستعرف كل شيء. والآن هو يضربها. كم ينبغي على ذلك الغبي أن يتألّم.

قلتُ: أنا آسف. لم أكن أعرف... أعتقدُ أني جعلتُ الأمور أسوأ.

قالت مبتسمة: لا، لم تجعلها أسوأ. لكنك محظوظ للغاية بأن نجوتَ بحياتك. أنت رجل محظوظ يا بيكاسو. كنتَ شيئًا جيّدًا حصل لسلمى. لا أعلم بعد لماذا، ولكنك كنتَ لها حدثا جيدا بالفعل. يجب أن تعرف بالأمر. وسوف يتعين عليهم حينئذ تسوية الموضوع.

- هل ستخبرينها؟

هزّت رأسها، وقالت: لا أعرف، سأذهب لرؤيتها غدًا، وسأتحدث معها. سأخبرها بأني رأيتك.

قلتُ: قولي لها إني سأكتبُ إليها.

قالت: هل هذا أفضل ما لديك؟ أنا متأكدة من أن بيكاسو كان سيفكّر في رسالة أكثر إثارة للاهتمام من هذه. لا تهتم، سأتكفّل بالأمر.

اصطحبتني ثانية إلى غرفتها. حاولتُ النوم بينما ذهبت هي إلى المكتبة لتعمل. لاحقًا، في فترة ما بعد الظهيرة رافقتني إلى المحطّة لتودّعني. اقتَحَمَت

الحشود الغفيرة بِثقة، وذهبت معي إلى القطار. ساعدتني بالعثور على سرير مجاني في القطار، وجلست معي بينما انتظرنا موعد المغادرة.

سألتني: ماذا ستفعل الآن؟

قلتُ: لا أعلم. كل شيء يبدو في غاية الصعوبة. أوّلًا، عليّ أن أذهب إلى والديّ وأشرح لهما كل ما حصل. أعرفُ كيف سيتلقيان النبأ. ثمَّ ينبغي عليّ ترتيب أموري. من المحتمل أن أحصل على عملٍ في مكتب البريد، أو في الميناء....

صفقتني على فخذي. وقالت: توقف عن الشعور بالحزن على نفسك. عُد إلى هناك، أيها الشابّ بيكاسو، وقُل لهم ما ينبغي أن يُقال. ثم اذهب وَاغزُ العالم. فقط لا تنسَ أن تكتب.

طبعت قبلةً على وجنتي عندما حانَ وقت الرحيل. وقفت على الرصيف وهي تلوّحُ للقطار المُبتعِد مودّعةً، مكتنزة الجسم بسيطة وصريحة ومفعمة بالجرأة، ثغرها مفترّا عن ابتسامة لاكتشاف صديق جديد.

***

الفصل الخامس

ابتسمت ابتسامة واسعةً عندما رفعت بصرها إلى الأعلى ورأتني واقفًا قبالتها في الحوش. همّت بالقيام فانحنيتُ من فوقها وقبّلتُ رأسها. رَدَّدت اسمي كما لو أنها معترضة على قدومي، ولكن بِدهشة مسرورة. عندما أعادت النظر إلي اتّسعت عيناها بالتساؤل.

- لقد عُدتُ. وفتحتُ لها ذراعيّ على وسعهما.

قالت: أستطيعُ أن أرى ذلك. وانتظرتني بعض الوقت كي أكمل. لم توجّه إليّ أي سؤال. عَرَفت بأن أخباري لا يمكن أن تكون جيدة. وَخَفَّت إلى جلبِ بعض الطعام لي، وتسخين الماء لأغتسل. لم تبدُ متعبةً كعهدي بها، وابتسمتْ وهي توبّخني لعدمِ إخطارها بموعد إيابي.

أجبتها، غير قادرٍ على كبح الابتسامة: غادرتُ على عَجل.

- ماذا حدث؟ سألتني وهي تمسحُ يديها بثوبها بينما كانت تقتربُ. أَحدَّت بصرها إليّ عندما حاولتُ التظاهر بأني غير عابئ. عاودت السؤال: لماذا غادرت على عجل؟

قلتُ: سأخبرك. سأخبركِ بكلِّ شيء.

أجابت بسرعة، وقد لامَت نفسها على استعجالي: نعم، اغتسل أوّلًا وتناول شيئًا من الطعام. ثمَّ يمكننا الحديث، هل أنتَ بخير؟ هل تشعرُ بأنكَ على ما يُرام؟

قلتُ وأنا ألمس رأسي: صُداع. إنهُ القطار. وكل تلك الضجة.

ابتسمت، ومن ثمّ مدّت يديها لتلمس صدغيَّ لمسًا رفيقًا وكأنها تخشى إيلامي. ظهرت سعيدة من الباب الخلفي، وهي تفركُ النومَ عن عينيها.

قالت: أوه، هذا أنت. لقد رجعت!

قلتُ وأنا أندفعُ نحوها: ومن الجميل رؤيتكِ أيضًا. زَعَقت من الخوف، وقَفَزت إلى داخلِ البيت ثانية.

قالت والدتي وهي تخفضُ صوتها إلى الهمس: لا تُصدِر كثيرًا من الضوضاء. بي مكُوبوا مريضة. سقطت من على السرير وَآذت نفسها. لا تريد الذهاب إلى المستشفى. تقول إنها تريد أن يأتي ذلك الطبيب الهندي. هل تتذكره؟ الطبيب ميهتا. قلتُ له إنه توفيّ. لكنها ما تزال غير راغبة بالذهاب إلى المستشفى. تقول إنها بخير، ولكنها ليست بخير. إنها تئنُّ طوال الليل.

قلتُ: مؤسف. هل أبي في المنزل؟

قالت: لا.

- وزكيّة؟

أصدرت صوتًا ما بين التأوّه والنّخير: لا أدري ماذا سنصنعُ بشأنها. لم تعد تُصغِ إليّ أبدًا. لربما يمكنك التحدّث إليها. في بعض الليالي لا ترجع إلى البيت بتاتًا. لا أعلم ما الذي بوسعنا أن نفعله. قالت ما قالتهُ بِصوتٍ بدا على حافّة الانهيار عند كلّ كلمة. باتت أسوأ حالًا منذ رحيلك. تكلّم معها. قد تستطيع ردعها عن تصرّفاتها الطائشة.

قلتُ: سأفعل. سوفَ أتكلّم معها. لا تحزني. هي لم تعد طفلة.

صاحت بي: كيفَ يمكنكَ قول هذا؟ إنها مثل شخصٍ فقد عقله.

- أمّاه، لم أقصد أنّ حالَها لا يؤلم. فقط إن كانت مُصمِّمة على تدمير نفسها، عندئذ نحنُ لا نملكُ مِن أمرها شيئًا.

قالت: لن أُلقي بالًا لهذا الكلام. لقد استفزّها كلامي، وَرَمتني بنظرةٍ مُترعة بالمرارة والاستياء، تمنيتُ على إثرها لو كانَ بمستطاعي أن أسحب كلماتي. أَغمَضَت عينيها وَتنهدت. اعذرني، هذه ليست طريقة ملائمة لاستقبالك. ولكن يجب ألّا نتخلّى عنها بِتلكَ الصورة.

قلتُ: لن نتخلّى عنها. سوفَ أتحدّثُ إليها...

رَدَّت مِن فورها، حريصةً على طيّ الموضوع: نعم. اذهب واغتسل الآن، سوفَ أُجهِزُّ لكَ غرفتكَ، ونتكلّم بعد ذلك.

سألتها: أية غرفة؟ منذ متى وأنا لديّ غرفة؟

قالت بابتسامة عريضة: حسنًا، أنت رجلٌ كبيرٌ الآن. ثمّ أني سئمتُ الخروج في الصباح لرؤيتكَ مستلقيًا هناك، والكيكوي على بدنكَ مفتوحًا، وأشياؤك متدلّيةً في أنحاء المكان. لذلك يمكنكَ أخذ غرفة الضيوف الصغيرة.

- حسن، هذا تشريفٌ لي.

- لا تكن قليل الحياء. وَصَفَقتني على ذراعي. اذهب واغتسل. هيّا اذهب، يا أبي[1]، وسأحضرّ لك طعامك.

استدعى الحمام بقوّة موجعة جدًّا وسائل الراحة والرفاهية التي تركتها من خلفي. لم يستلزم الأمر كثيرًا من الجهد لِأُغلقَ أنفي وأغمض عينيّ عن

(1) يا أبي: على الأرجح قيلت للتحبب.

القذارة، والتفكير بحرارة الترحيب بي. عندما خرجتُ، رأيتُ بأنّ أمي قد بَسَطت حصيرة جديدة في الحوش، بُوساتي[1]. وكانت سعيدة مستلقية عليها، وغافية. تحرّكتْ عندما قعدتُ بجانبها.

قالت أمي: قالت إنها تريدُ أن تنتظر، وأن ترحب بكَ ترحيبًا لائقًا. يجب أن تكون في سريرها. وها هيَ بي مكُوبوا تَئنُّ من جديد. تجدُ المسكينة الصغيرة صعوبة بالنوم في الداخل عندما يكون الوضع على هذا النحو، لكنّ جدّتكَ تصرُّ على مكوثها هناك. تقول إنها تخافُ البقاء بمفردها.

استيقظت سعيدة وما تزال مغمضة العينين. أمسكتها أمي من يديها وأنهضتها بِسرعة على قدميها. نَشَجَت سعيدة محتجّةً. ثمّ سألتني: هل جلبتَ لي معكَ هدية؟

قلتُ: لِشيء بشع مثلكِ، بالطبع لا.

فاضَ وجهها غيظًا وانزعاجًا فظيعين عندما كانت أمي تجرّها بعيدًا. ثمّ رجعت أمي وقد بانَ عليها الضيق والكَدَر. همست قائلة: إنها تئنُّ مجدّدًا. لا يصحُّ أن تنام الطفلة معها.

- إذن لا تدعيها تنام عندها، إن كانت مريضة كما تقولين، افترضي أن وقع أمر ما. افترضي أنها....

قاطعتني: لا تقلها.. سأذهب وأنامُ عندها. وبإمكان سعيدة النوم في غرفتنا.

أخفضت بصرها لمّا نظرتُ إليها. كنتُ أفكر في الوقت الذي مُنحتُ فيه هذا التشريف. قلتُ: دعيها تأتي وتنام عندي. يمكننا يوم غد نقلَ مرتبة إلى

---

(1) بوساتي: busati بالسواحيلية. بساط أو حصيرة مصنوعة من عيدان أو قشّ سنابل القمح.

الغرفة أو شرشف.

قالت بصوتٍ واطئ: حسنًا. مُفترضةً أنني ألومها على الأخطاء السالفة. لم تحظَ بعودة مبهجةٍ جدا إلى البيت.

- بل حظيتُ بعودة رائعة إلى البيت. أنا في مُنتهى السرور لأني عدتُ.

قالت: أكانَ الأمرُ شاقًّا للغاية في نيروبي؟ ألم تتعرّض لأية مصاعب؟ كلا انتظر، دعني أوّلًا أجلب لك الطعام. أعدّت لي عجّة البصل، وأحضرت لي ثلاث شرائح من خبز البوفلو. ثمّ سألتني: ليس لدينا حليب. هل ترغب بشرب الشّاي المجفف، أم أصنع لكَ بعض القهوة؟

قلتُ: الشاي المجفف سيكون ظريفًا. هل يمكنك وضع بعض الزنجبيل فيه؟ هل عندنا زنجبيل؟

سألت: شاي مجفف وزنجبيل! أهذا ما يشربه الأوربيون في نيروبي؟

قلتُ: لا، إنهم يشربون القهوة مع الحليب والسُّكّر. يجب أن تجربيه. هذا ما يشربه الناس المتحضّرون.

أحسّت بأن الأمور سرت على نحو خاطئ. وأوضحتَ لي هي في صفٍّ مَن، مُحاوِلةً طمأنتني كيما أتحدّث بارتياح.

عندما جاءت لتقعد بجانبي سألتها: كيف حال أبي؟

قالت: إنهُ على حاله. ولَوَت فمها للأسفل بتلك الإيماءة المألوفة الدّالة على الخضوع والاستسلام اللذين طالت معاناتها منهما. ما زال يظنُّ نفسه شابًّا. أنتَ تعلم طبيعته. ربما هو أسوأ حالًا، لا أدري.

سألتها: ماذا تقصدين؟ كيفَ أسوأ؟

قالت وهي تفركُ صدغيها بأطراف أناملها: أنتَ تعرف كيفَ هو.

إنهُ يُسرفُ في الشرب، ثمّ يُقسِمُ بأنهُ سيحسّن سلوكه، وسوفَ يقلع عن الخمور... وهو يعني ما يقول، وينتحبُ ويُقسِم... ثمّ كفّت عن الكلام، وحدّقت بي، متفاجئة بِالكَمّ الذي أخبرتني به. أومَأت واستطردت: إنهُ يمرُّ الآن في وقتٍ من أوقاته المعهودة. لم يرجع إلى المنزل الليلة الفائتة. وعندما يعود يكونُ مخمورًا للغاية... سوفَ يطردونه من وظيفته، وحينئذٍ الله وحده يعلم ماذا سنفعل. يخرجُ هكذا ويقترف كل أفعاله القذرة، ويظنّني لا أعلم شيئًا.

نظرت إليّ صامتة لوقتٍ طويل، وملء عينيها أسىً قديم. ثمّ بدأت تلوحُ على وجهها ابتسامة طفيفة. قالت وابتسامتها تكبر: هذا هو موطِنُ قوّتك. اصمد وابق ثابتًا بفضلِ صمتك. لا تدعهُ يضعف. وما وراءَ صمتكَ يمكنني سماع صوت دقات قلبكَ الخافتة. فقط عندما لم تكن هنا أدركتُ بأنني أسمعها طوال الوقت. هل تفهم ما أقصد؟ ابق أنت ثابتًا بينما نحنُ نضعفُ ونتمزّق، وليبق قلبكَ كلّ الوقت صادقًا. أية عودة إلى البيت حظيتَ بها! أردتُ قولَ ذلك، وأن أشكر الله لأنهُ ردّكَ إلينا سالمًا.

تناولتُ طعامي بصمت، وأنا أكافحُ لكي أكبت دموعي التي هدَّدَت بتدمير صورتي الجديدة، بِصفتي رجلًا قويًّا وصامتًا.

كانت قد أوصدت نافذة غرفة الضيوف ورشّتها بمبيد الحشرات. وقد اختلطت رائحة مادة «الدي دي تي» مع رائحة التراب والطلاء الكلسي الأبيض الحديث لينجم عن تلك الروائح مجتمعة هواء خشنا كادَ أن يمزّقَ البطانة خلف حنجرتي. ذهبتْ إلى تفقّد حال جدتي، وقالت إنها لن تتأخر طويلًا. عندما دخلت، قعدتْ على الكرسي بجانبي. كانت الغرفة بالغة الصغر لدرجة أننا كنا جالسين، وبالكاد يفصل بيننا بضع إنشات. تنهدت، ولملمت غطاءها «الكانغا» بإحكامٍ حولَ منكبيها، متوقعة ألّا تجدَ ما يَسرّ فيما

كانت على وشكِ سماعه.

قالت: أنا مستعدّة.

قلتُ: لم يكن ينوي مساعدتي. كانَ قد قرّرَ ذلك حتى من قبل ذهابي إليه. هو بذاته أخبرني بهذا لاحقًا، لكني أدركتُ ذلك بمجرد وصولي إلى هناك. ظنوا أني سوفَ أكونُ مهرّجًا، وسيضحكون على حسابي. لا تنظري إلي هكذا يا أمي. إنها الحقيقة. حتى الخادم عاملني مثلَ... المتسوّل في بداية الأمر عندما ذهبتُ إلى هناك. لذا قررت قضاء العطلة على الأقل.

سألتني: قالَ لكَ بنفسه بأنه لم يَنوِ مساعدتكَ إطلاقا؟ «علمتُ بأنها صدّقتني، ولا أعتقد أنها تفاجئت حقًّا». هل ذكّرتهُ بالميراث؟

قلتُ: كانَ سيسعدهُ ذلك. ثمّ إنهُ بالفعل كانَ لديه ما يضحكَ عليّ بشأنه. أنت لا تعرفين كيف يعيشون. لقد أقنعَ نفسهُ بأنهُ مُحقّ في كل شيء. يعتقدُ بأن الجميع يُريدونَ خداعه. عرضَ عليّ وظيفة. طلبَ مني البقاء، والعمل معه، لكني لم أرغب في ذاكَ النمط من الحياة... الغدوّ والرَّواح والانهماك في فعل لا شيء، والشكُّ يلازم جميع الأوقات.

أصرّت بالقول: ولكن كان عليك، كانَ عليكَ أن تذكر الميراث.

- لم أستطع. كانَ يعاملني مثلَ قريبٍ فقير جاء من الريف ليلتمسَ إحسانه. لو أنني بدأتُ حال وصولي بمطالبته بميراثك لافترضَ بأني صَلِفٌ وقح، ولطردني من منزله بأسرع مما فعل.

سألتني، والغضب تَبدّى عليها فجأة: هل طردك؟ هذا هو أحمد المتبجّح! لطالما كانَ كذلك، مغرور متغطرس متعجرف، حتى عندما كنا طفلين. كيف يجرؤ؟

- لم تقولي لي إنّ لديه ابنة. قلتُ وأنا أحاول مُدَاراة ابتسامتي، لكني أخفقتُ.

رأيتُ غضبها ينكمشُ. تراخى فكّها، وفَغَرت فَمَها بِتَباهٍ، وَسألتني: ماذا فعلتَ؟

- أنا أحبّها. وسوف أتزوجها يوما ما.

- «آه، يا إلهي، أما كانَ بوسعكَ القيام بما ذهبتَ من أجله وَحسب؟ ألم يكن بمقدورك النّأي عن موضوع كهذا؟ ماذا هَبَّبتَ؟ ماذا فعلتَ لها؟» وَألحَّت بالأسئلة إلحاحًا، وَتميَّزَتْ غضبًا منّي.

- لم أفعل شيئا. هو ظنَّ أني فعلتُ شيئا، لهذا طردني.

قالت لي وقد أخذت حينها تلهثُ من الانفعال: عائلتكَ ملعونة. أما كانَ بإمكانكَ إرجاء مثلَ هذه الأمور بضعة أيام؟ هل كانَ عليك أن تذهب إلى هناك وتتصرّف كما الكبش، في حين أنت تعرف كيف يفكرُ بنا. كنتُ لأطردكَ أنا أيضا لو أتيت إلي وفعلتَ ذلك. ألا يوجد لديكم ذرّة احترام لأنفسكم؟ ولا لأحدٍ منكم؟ جميعكم متشابهون، تمامًا مثل أبيكم. ثمّ تزعمُ بأنه أزمعَ مُسبقًا على عدم مساعدتك!

قلتُ: أنا لا أزعم. إنها الحقيقة. إنه بالفعل لم يكن ينوي مساعدتنا. وهي جميلة. اسمها سلمى، وهي تحبّني أيضًا. عيناها رماديتان، ووجهها... مستدير بعض الشيء، وَبَشوش. وهي تتكلّم بهدوء، ولطيفة دومًا. إنها رصينة ومراعية لمشاعر الآخرين وذكيّة. ويوما ما سوف أتزوجها.

- لقد ذهبتَ إلى هناك لطلب المساعدة لكي تتمكن من القيام بشيء مفيد في حياتك. ولم تذهب إلى هناك لتلعب دور الأمير قَمَر الزّمان[1]، وتلوِّث

(1) الأمير قمر الزمان: ابن الملك شهرمان شخصية خيالية من شخصيات كتاب «ألف ليلة وليلة»، لم يكن لهُ مثيل في الحسن والجمال، يتزوج من الأميرة الحسناء «بدر البدور» ابنة ملك الصين، بعد رهانٍ بين ابنة ملك الجّان وجنّي آخر.

سمعة ابنة خالك.

- لم ألوّث سمعة أحد. قلتُ لها، وأنا أتحدّث بهدوء وأبتسمُ في وجهها. أردتُ أن أقنعها بِسلمى، وأن أوضح لها بأن الأمور ليست كما تبدو. - لم يحدث شيء. ذهبنا فقط إلى المدينة عدة مرات، وتحدّثنا. لولاها، لعُومِلتُ مثل الكلب في ذلك المنزل. تجادلت مع أبيها، وأقنعتهُ بأنّ ما فعلاه كانَ خطأ. انتظري حتى تقابليها. سوفَ تعجبكِ يا أمي.

قالت وهي ترفع يدها لإسكاتي: لا بأس، إنها مُبهرة ومذهلة. ولكن ما فعلتهُ لم يكن صائبًا. أن تدخل إلى بيت شخص ضيفًا، وتفعل شيئًا من هذا القبيل. كنتَ مخطئًا في تصرفك هذا.

قلتُ: أعلم. كنتُ أقول لنفسي ذلك كل يوم. قَلَّبتُ الموضوع مِن جميعِ أوجُهه... لكني خشيتُ إن غادرتُ ألا أراها مرة أخرى أبدًا.

- ولم يحدث أيّ شيء؟

- لم يحدث شيء، سوى أنني أخبرتها بأني... وأعلمُ بأنها تحبني هي أيضًا.

- كيف علمتَ بذلك؟ سألتني، كما لو كانت متشككة بأني أبالغُ بما عرفتهُ عنها:

- لقد عانقتني. وطلبت مني أن أُكاتبها.

قالت: تُكاتبها! لا تكتب. قد تقع الرسائل في يد خالِك.

قلتُ: لا يهم، قلتُ له إني سأعود من أجلها ذات يوم.

ضحكت ضحكة خافتة، ثّم قهقهت. وقالت: عليك أن تكون جادًّا، ماذا قال؟

أملتُ أنها لن تعارض فكرة الفتاة التي عثرتُ عليها وأحببتها. أخبرتها

بما حدث عندما عدتُ من نيروبي تلك الليلة. لم أخبرها بما قال بوانا أحمد عن أبي.

سألتها: هل عندك علم بما جرى لوالدتها؟

قالت بعد تروٍّ: نعم، عرفتُ بأنها ماتت ميتة مريعة.

قلتُ: لقد سَمّمت نفسها.

قالت: نعم.

- سلمى لا تعرف لماذا سمّمت نفسها، لكن الآخرين يعرفون.

سألَت: بسبب الرجل؟

- بسبب ما فعلهُ بها لاحقًا. وربما لم تكن قصة الرجل صحيحة على أية حال.

صاحت قائلة: لا بد أن القصة صحيحة.

- مثلما القصة المُثارَة حول أبي صحيحة؟ لقد كان الناس يحكون عنهُ أيضًا.

انقبضت قليلا، ثمّ أومأت برأسها لتُظهِرَ بأنها فهمت ما قصدتهُ.

قالت: من المحتمل أن قصة الرجل غير صحيحة. عرفتها منذُ كانت طفلة. إنها من عائلة ثرية للغاية من مدينة جينجا.

- من أجل ذلك كان غاضبًا بشدة. لأنهُ حَسِبَ أني فعلتُ مثلما فعلَ هذا الرجل، وبأني دخلتُ منزله وأَخزيتهُ. سلمى لا علم لها بالأمر. لم يخبرها به. إنهُ حتى لا يتحدث عن والدتها. لقد أحسّت بِعلّة ما، ولكنه لم يَبُح بشيء. لقد عَرَفت بالقليل الذي تعرفه من شخصٍ آخر. لماذا الآباء هكذا؟ حتى أنتِ ترفضين الكلام عن أبي. كنتُ أعتقدُ أن الأمر له علاقة بي، شيء فعلتهُ بكِ، جعلك تتصرفين معي بتلك الطريقة. بينما كنتما طوال الوقت تقاسيان

مرارة وبؤس ما حدث معه فيما مضى.

قالت مُستجدية وعيناها مغمضتين: لا تبدأ بهذا الحديث من جديد.

- أنا لا أبدأ به من جديد. كل ما في الأمر هو أنني آسف على كل البؤس الذي أضفته إلى حياتكما. لأنني لم أعرف، ولم أفكر.

وطَفِقت تبكي، ثم قالت: دعكَ من هذا الموضوع الآن، دعكَ منه. حدّثني عن محبوبتك. ماذا تصنع؟ هل تعمل؟ هل تتحدث لغتنا أم أنها تتحدث الإنكليزية فقط؟

قلتُ: بالطبع تتحدث بلغتنا، وهي تُحبّ المثلجات.

قالت: نستطيع الحصول على المثلجات هنا.

تحدّثنا حتى وقتٍ متأخر من الليل. بين حينٍ وآخر كانت تذهب للاطمئنان على بي مكُوبوا، وعندها أجدُ نفسي غافيًا من شدة التعب. في كل مرة كنتُ أتنبّهُ من نومي في الوقت المناسب، لئلا ترى كم كنتُ متعبًا. عرفتُ بأنها كانت تنتظرُ عودة زكية وأبي، ولم أشأ أن أتركها وحدها مع تلك الهموم والأحزان، إضافة إلى تلك التي زدتها على همومها. أخذت تتشجع أكثر مع تصاعد غضبها من بوانا أحمد. سُرَّت كثيرًا لأنني رفضتُ عرض العمل الذي قدّمهُ لي.

- إنه عقابٌ له من الله. حرمكَ المال القليل الذي هو حقّكَ على أية حال، فأبعد الله ابنتهُ عنه.

قلتُ: لا تبالغي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- إنه مُستحقّ لهذا العقاب.

- لم آخذ منه ابنتهُ بعد. علي أوّلا إيجاد طريقة لكسبِ ثروة. بحلول ذلك

الوقت قد أكونُ رجلًا مُسنًّا، وقد تكون زوجة رجلٍ آخر.

قالت: لا تكن سخيفًا. جعبة الغد ملأى بالمفاجآت.

- خاصة إن كان الله إلى جانبنا في هذا الأمر.

- لا تجدّف! قالت لي وهي ترمقني بنظرة تتوهجُ غضبًا.

في خاتمة المطاف نالَ التعبُ من كلينا، ورحنا نغالبُ النعاس في مَقعدينا. قلتُ: لقد تأخر الوقتُ كثيرًا، تجاوزَ منتصف الليل. لن يرجعا إلى البيت الليلة. سأذهب وأقفل الباب.

ردّت من فورها: لا، نَم أنت... وأنا... وأنا سأقفل الباب.

عرفتُ بأنها كانت تكذب، بأنّها ستذهب وتنام في الحوش كَدأبِها منذُ سِنين، وستنتظرُ إلى حين رجوعها حتى توصدُ الباب.

قلتُ: يجبُ أن أتحدث مع أبي غدًا... عن كل ما جرى. سوفَ تصلهُ رسالة من خالي أحمد.

قالت: أنا سأخبره.

اعترضتُ قائلًا: لستُ خائفًا.

قالت: لم أكن أفكر بك، لقد فكرتُ به. دع الأمر لي وأنا سأتصرّف.

لم يعد أيٌّ منهما إلى المنزل تلك الليلة. كلٌّ منهما رجع أوانَ الضُّحى من اليوم التالي. سَمِعا من الناس أني عدتُ. بدا والدي مُنهكًا، ولاحظتُ أن عينيه مُجهَدتان من قلة النوم. رحبَّ بي بحرارة، وكأنَّ شيئًا لم يحدث، وقد وصلتُ لتوّي. سألتهُ عن صحّته، وأجابَ بعد إبطاء، مُستغرقًا بالكامل في تبديد الخجل الذي أحسّ به، والذي منعه من الاستفسار عن مغامراتي. أخذته والدتي بعيدًا قبل أن تُتاح لهُ الفرصة لاستعادة تركيزه. سمعتُ

شتائمه وسَوْرَة غضبه، ثمّ سمعتهُ يضحك. اعتقدتُ بأن والدي سوف يُثمّنُ عاليًا هذا القنص غير المشروع المتمثّل في ابنة الثري البخيل. عندما خرج من غرفته حاولَ أن يخفي ابتسامته العريضة. تظاهر بأنه يمرُّ من جواري، ثمَّ استدار بغتةً وصفقني على كتفيّ.

قال ضاحكًا: فإذن ذلك ما دفعنا من أجله أجرة السّفر! كيما يتسنى لك الذهاب ومن ثم إغواء بنات الناس المحترمين. ما فعلتهُ كانَ خطأ. واسترسل بصوتٍ أخفض: ولكن هذا ما يستحقه ذلك الشحيح اللعين. يحسبُ أنهُ أفضل منا، لكنكَ أريتهُ قيمته الحقيقية.

- أبي. قلتُ، محاولًا مُقاطعته.

- لقد خسر امرأتين الآن، ذلك الأير المأفون. قد تستطيع تقبّل خسارة امرأة واحدة، إنه حظ عاثر، مأساة... ولكن أن تخسر اثنتين! أيّ معتوهٍ لعين هو! دعاكَ إلى بيته، لتقطع كل تلك المسافة، فقط ليمزح!

قلتُ له وأنا أضعُ يدي على ذراعه: أبي، إنَّ بي مكُوبوا مريضة للغاية، كانت حالتها سيئة جدًّا الليلة الماضية. يجب أن نأخذها إلى المستشفى.

قال بهدوء، وهو يضغطُ على عينيه لتخفيف الألم: لن تذهب. حاولتُ أن آخذها، لكنها لا تريد الذهاب.

قلتُ بصوتٍ خفيض: يجب أن نحاول مرة أخرى. لربّما كانت تحتضر.

نظرَ إليّ كما لو أنه سيوقفني عن الكلام، ثمَّ أومأ. بدا متقدّمًا في العمر ومتعبًا للغاية. أومأ ثانية، ثمَّ حوّلَ بصرهُ عني. قلتُ: يجب أن نأخذها اليوم. قل لها ما شئت، ولكن يجب أن نقنعها بالذهاب إلى المستشفى.

ردّ على نحوٍ خاطف: لا بأس. سأذهب إليها الآن.

جاءت زكية عندما كانَ أبي مع جدتي. أتت لتبحث عني في غرفتي، متأنقة بثياب جذّابة. وقفت عند الباب واستندت عليه، وبدت محنّكة وغير مبالية.

قالت، تقصدُ السُّخرية من براءتي: سمعتُ بأنك ستَتزوّج.

نهضتُ ومشيتُ إليها. رفعت نفسها عن الباب واعتدلت في وقفتها، وبدت خائفة. وضعتُ كفّي على كتفيها وعصرتهما. سألتها: ما الذي تفعلينه؟ ماذا دهاكِ؟

تكرمَشت عضلات وجهها مثل طفل وشرعت تبكي. سحبتها إلى الغرفة وأمسكتها وهي تنتحب. تشبّثت بي، وضغطت وجهها على كتفي. وشعرتُ بنداوة دموعها ولعابها على قميصي. عندما هدأت قليلًا، ابتعدت عني وغادرت الغرفة دونما كلمة واحدة. ناديتُها لكنها لم ترجع. ركضتُ في أثرها، ولكن والدي ناداني ليقول إن بي مكُوبوا ستذهب إلى المستشفى. قلتُ إني سأخرج وأستدعي سيارة أجرة. بحثتُ عن زكية لكني كنتُ قد ضيّعتها.

حملتُ أنا وأبي بي مكُوبوا إلى السيّارة. لم أكن قد رأيتها لدى عودتي. بَدَت عليلة خائرة القوى وهرِمة للغاية. كانت عيناها مُغمَضتين، وكانت تلهثُ لالتقاط أنفاسها. حاولت والدتي تنظيفها قبلَ أن نُخرِجها، ولكن كانت لديها رائحة الموت التي لا لبس فيها، ورائحة البول والغائط المعتَّقين. جلسنا على جانبيها، محاولين سندها كلما انقلبت. تمتمت وبكت، ولم يُفلِح أي منّا بِتعزيتها.

في البداية منعونا من الدخول، وأصرّوا على أن ننضمّ إلى طوابير المرضى المنتظرين الطويلة. انفجر أبي غضبًا في وجه الممرض، بينما كان الناس المحتشدين يراقبوننا. حذّرت امرأة الممرض بأنه إذا ماتت المرأة العجوز فسوف تقع المسؤولية على عاتقه. حملقَ الممرّض بفزعٍ للحظات، ثمّ التهبَ غضبًا. أهانَ المرأة وهاجمها بِضرواة، لدرجة أن الحشد بأسرهِ ثارَ عليه. وإذ

هُوجِمَ من كل الجهات، ذهبَ لاستدعاء الممرضة المسؤولة، التي قبلت بي مكُوبوا في الحال.

بقيتُ في المستشفى بينما عادَ أبي إلى العمل. تَبِعتُ العربة النقّالة إلى الجناح، وانتظرتُ إلى أن أُعِيدَ تنظيم المرضى لإفساح المجال لاستقبال جدّتي. كانَ الجناحُ أشبه بمشهدٍ من جهنّم. الجدران مَكسوّة بالأوساخ. النوافذ قبالة باب الجناح، وجميع مصاريعها قد سقطت. وكانت الأسرّة مكتظّة، ويفصل ما بينها ممرّات ضيّقة مُزدحمة بالأكياس والأواني. وامتدّت في الغرفة سلاسل من الخيوط المتقاطعة، والتي كانَ بعضها متدلّيًا من الناموسيات. وقد فاحت من الجناح رائحة القيح والجثث المتعفنة، والقيء القديم والغسيل المتّسخ، وكلّ خليط من الروائح النتِنة الأشدّ كراهة. وكانت الأجساد السقيمة ممددة على الأَسرّة المعدنية. بعضها كانَ مسنودًا للمُراقبة، وتُرِك بعضها الآخر مطروحًا بلا اهتمام.

أجبرَ الممرضون إحدى النساء على مغادرة سريرها. كانت امرأة مسنّة نحيلة وذاوية، امتثلت للأمر دونَ اعتراض. لملمت أجزاء ملاءتها المقطّعة، وجرجرت نفسها بِضجر نحو الباب. كانَ في قدميها ويديها التواءات وعُقَد من أثر الروماتيزم. وكانت رقبتها مَحنيّة كأنها تحملُ عِبئًا، وكانَ رأسها المُنكَمِش مُوجّهًا إلى الأرض مثل منقار الطائر القَمّام (آكل الجيَف). بدت على وجوه الممرّضين علامات التقزّز والامتعاض من السّرير الذي أخلته. كانت الحَشيّة العارية مُتّسخة بلطخات وخيوط من المخاط. قلبوا الحشيّة ووضعوا جدتي عليها.

سألتهم متى سيأتي الطبيب، ولكنهم قالوا إنهم لا يعرفون. قالوا لي يمكنني البقاء والانتظار إن شئتُ. سألتهم ماذا سيحصل للمرأة العجوز التي رحّلوها من سريرها. تبادلت ممرضتان نظرة فيما بينهما، وسألتني

إحداهن: هل نعيدها إذن؟

انتظرتُ على الشرفة. كانت المرأة المسنّة المصابة بالروماتيزم قد انضمَّت إلى مرضى آخرين هناك. أتى الطبيب في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم. فحصَ جدّتي وقال إنه سوف يُنسّق لها إجراء فحص تصوير بالأشعة السينية عند عودته. وأوضحَ أنه مسافرٌ إلى الدنمارك بضعة أيام بصفتهِ الطبيب الشخصي لوزير الثقافة، الذي كانَ ذاهبًا إلى هناك لِطلَب صُنع تمثالٍ للزّعيم. سألتهُ عمّا إذا كانَ بوسع مُساعده التكفّل بأمر إجراء الأشعة السينية. فأخبرني بأنه ليس لديه مُساعِد.

تناوبنا على مراقبتها والمكوث بجانبها. حلَّ أبي محلّي في وقتٍ مُتأخرٍ من الأصيل، وَقضَت أمي الليلة في المستشفى. ماتت في اليوم التالي، عندما كنتُ نائمًا على الشرفة. الممرضون أتوا وأخبروني بالأمر. طلبوا مني رفع الجثمان لأنهم بحاجة إلى السرير. طلبتُ منهم نقّالة، ولكنهم قالوا إنهم ليس عندهم نقّالة. قلتُ إنهُ ينبغي عليّ الذهاب لجلب مساعَدة وتابوت. وضعوا جثمان بي مكُوبوا في حجرة الأحواض وتصريف المخلّفات في آخر الجناح. لم يكن هناك طبيب ليوقع على شهادة الوفاة. وما كان بالإمكان دفنها دون الحصول على الشهادة. ذهبتُ إلى أبي، فدفعَ إلى أحد الممرضين لتوقيع الشهادة. أخذنا الجثمان إلى البيت، وكان مُسجًّى بالملاءات القديمة.

ذهبتُ لتوثيق وفاتها في المحكمة، وحصلتُ على ورقة لأخذها إلى المقبرة. تذمّر حفار القبور واضطررتُ إلى رشوته. وضعنا سَاترًا في الحوش، وغَسّلنا جسمها في العراء، واستخرجنا كل ما قد يخرج منها قبل تَطييبها بالخُزامى. أتت زكية لمساعدة أمي في تحضير المنزل من أجل استقبال المُعزّين.

دفناها في اليوم التالي. كان موكب الجنازة الذي حملها إلى الجبانة باعثًا على الأسى؛ لم نتجاوز الستة أشخاص وتناوبنا على حملِ جثمانها إلى مرقدهِ

الأخير. وحدها أمي مَن بَكَت. بَكت بؤس تلك السنوات الأخيرة.

قالَ والدي إن الحياة يجب أن تستمرّ، وسرعان ما استأنفَ حياته القديمة. فعلَ ذلك بِتكتّمٍ وحذر أكثر من ذي قبل، وبِاستمتاع أقلّ بكثير. كانت النار تنطفئُ داخله، وأمسى يتسلّل إلى المنزل وَينسلُّ منه، كئيبًا ونادمًا. ولم يعد يتحدّث مع زكية مطلقًا.

رفضت زكية الإصغاء إلى توسلاتي. أخبرتني عن الغرفة التي استأجرتها. كانت عازمة على الانتقال إليها في نهاية الشهر. لم تكن بحاجة إلى التوضيح لأي غرضٍ سوف تُستخدم الغرفة. حكت لي عن صديقها الذي سوف يدعمها.

توسلتُ إليها: لديه عائلته. سوف يستغلّكِ إلى أن يسأم منكِ، ومن ثمّ سيمرّركِ إلى شخص آخر. كوني عاقلة.

أجابت: يمكنني الاعتناء بنفسي.

قلتُ، مُتعمّدًا جَرحها: سينتهي الحال بتلك الغرفة إلى بيت دعارة.

قالت بابتسامة مريرة: شكرا لك. بإمكانك القدوم إلى هناك ورؤيتي إن أحببت. إلا إذا كان ذلك سيجلب لكَ العار أنت أيضًا.

- بالطبع سآتي. ولكن لماذا عليكِ التصرف هكذا؟ لم عليك أن تعيشي على هذه الشاكلة؟

صرخت: لا أعلم! لا أعلم! لا أعلم!

عندما عرفت أمي بأمر انتقالها تَرجّتها ألا تذهب. جَثَت على رُكبتيها أمام زكيّة، وراحت تتوسلُ إليها بينما انهمرت الدموع على وجهها. في النهاية أبعدتُ أمي عنها بالإكراه، وسحبتها إلى ذراعيّ، بينما كانت تنشجُ وتنوح. لم تغادر زكية حينذاك، لكني عرفتُ بأنها مسألة وقت ليس إلّا. كانت ترى

نفسها بطريقة لم أستطع استيعابها تمامًا. أدَّت دورها على أكمل وجه، ارتدت ملابس فاضحة وأرجحت ردفيها، مع كل الاستهتار والتهتّك اللذين لَدى عاهرة شابة مُتمرّسة. ومع ذلك كانت خَجلى ممّا آلَت إليه. لقد تمزّقَ قلبي إربًا لمجرّد مُشاهدتها وهي تتمايلُ وتتخلّعُ في مِشيتِها في الشّوارع.

قلتُ لأمي إنني لن أرحل. كانَ ذلك في اليوم الذي أعلنت فيه الحكومة أخيرًا نتائج امتحاناتنا. ولقد كانت نتائجي أفضل مما توقعت حتى، جيدة بما يكفي للالتحاق المباشر بالجامعة. لم نكن نملك الأجور، وكانت المنحة الحكومية بعيدة الاحتمال أكثر من أي وقتٍ مضى.

قلتُ: ثمّة ما يكفي للقيام به هنا. كانت تأتي كل ليلة إلى غرفتي وتجلس معي. لم تقل شيئًا في البداية لكنها نظرت إليّ بالتشكّك القديم. لم أستطع منع نفسي من الضحك.

أجابت محتدّة: ما مِن شيء لتفعلهُ هنا. ماذا ستفعل في هذا المكان؟ تُصبح مثلنا؟

قلتُ: أنا مثلكم. سأذهب إلى كلّية المعلمين. سأصيرُ مُعلّمًا. سوفَ يقبلونني هناك، ولن يتعين عليك دفع رسوم. ما زال بإمكاني العيش هنا في المنزل، مالم يعترض أبي.

فقالت بنظرةٍ مترعة بالألم: لا، لا. اذهب وافعل الأشياء التي تريدها. اذهب بعيدا وافعل الأشياء وعش حياتك. لا تبق هنا. يمكننا الاعتناء بأنفسنا. ولا تنسَ ما قلتهُ بشأنِ سلمى، وكيف قلتَ بأنك ستفعل كل هذه الأشياء وترجعُ إليها. لا تبق من أجلنا فقط. هذا المكان سيقتلك.

تقدّمتُ بطلب انتساب إلى الكلّية وقبلوني على الفور تقريبًا. وكان من المقرر أن أبدأ في بداية العام الدراسي المقبل، في يناير. قالت لي زكية إنني

أحمق، وهزت أمي رأسها معترضة، وسألتني: مَن يحتاجكَ هنا؟

قلتُ، وعلى وجهي ابتسامة واسعة، ردًّا على السُّخرية والازدراء اللذين سألتني بهما: أنتِ بحاجة إليّ. تحتاجين قوّتي الهادئة.

- لقد نجونا مِن دونها حتى الآن. أنت فقط اتركنا نتابع كفاحنا هنا. لا نريد تضحيتك!

ضربتني على ذراعي حتى أكفّ عن الابتسام واستأنفت القول: هل تسمعني؟ أنا لا أمزح معك. اذهب إلى العالم واكتشف ماذا يوجد هناك. لا أحد يحتاجك هنا. من يحتاج إلى معلّم عندما لا يكون لدينا حتى مدارس كافية لأطفالنا؟

- ما العيب في أن يكون الواحد معلّمًا؟ سوف يُشيدون المدارس، وستكون الحاجة إلى المعلمين قائمة على الدوام.

قالت وقد اشتدت غضبًا: أنت لا تصغي إلى الكلام. ماذا سيعلمونك في هذه الكلية؟ كيف تتنمّر على الأطفال؟ هل هذا ما تُريده؟

- ليسَ عليّ ان أتنمّر على الأطفال. ليس كلّ المعلمين يفعلونَ ذلك. بمقدوري أن أكون نافعًا، وسأكون هنا.. بين أهلي وناسي...

عادت إلى الموضوع مرّة بعد مرّة، وكانت زكية حليفها المتأهب دومًا. لم تتحدثا عن الأمر في حضور أبي أبدًا. بدا سعيدًا لأنني سأبقى، وراح يلقي النُّكات عن استخدامي العصا مع طالباتي المستقبليات.

سألتني أمي: ماذا عن سلمى؟

سألت زكية: نعم، ماذا عن خطيبتك؟.

أية خطيبة؟ كيف سأقنع أباها بأنني لا شيء سوى شخص جدير

بالازدراء؟ ربما كان السفر إلى نيروبي لا يعدو عن كونه مجرد حماس وإثارة. ربما كانت عطلة رومانسية فقط.

قالت زكية: أنت جدير بالازدراء.

حذرتها أمي قائلة: انتبهي إلى طريقة كلامك مع أخيك الأكبر. يمكنه ضربك بالعصا.

لم أتوقع منهما ذلك الإصرار. لقد أطربني اهتمامهما بما سأفعله، ولكن ذلك الاهتمام صعّبَ عليّ تفادي الحقيقة.

قالت زكية: أنتَ خائفٌ فقط. كانت قد انتقلت لتوّها إلى غرفتها المُستَأجَرة، وكانت المرة الأولى التي أزورها فيها.

- طوال هذه السنين وأنت تتحدث عن الرحيل، والآن أنت لا تملك الجرأة للقيام بذلك.

- لا أملك المال.

هزّت رأسها بالرفض، وقالت: أنت خائفٌ فقط.

اعترفتُ: حسنًا، أنا خائف. ولطالما كنتُ خائفًا. أرى أنّ السّفر إلى مكانٍ آخر لا أعرفُ عنه شيئًا، وحيثُ لا أعرفُ أحدًا، فكرة مُرعبة. رأيتها مرعبة على الدوام. ولكن بكل الأحوال، أنا لا أملك أجرة السفر. ما الجدوى من إشغال الفكر بشأنِ الرحيل في حين أني لا أملك المال حتى من أجل أجرة السفر؟ أيُّ شيء هناك في الخارج يستحقُّ مثل هذه المخاطرة؟

- ما كانَ دائمًا هناك، ما يزال هناك، ولكنك لن تكتشف ما خفي عنك وأنت جالس على مؤخرتك في هذا المكان الأخرق.

رحتُ أتجوّلُ في أماكني القديمة المعهودة، وبدأ ينتابني شعور بعودة

يأسي القديم. وأخذت رحلتي إلى نيروبي تبدو مثل ذاكرةٍ بعيدة. الرسالة إلى سلمى هَزَمتني باستمرار. كنتُ أنامُ حتى وقتٍ متأخر من الصباح، وأهيمُ على وجهي في الشوارع في حرِّ النهار. كانَ الانزعاج من الشمس بمثابة كفّارة عن الساعات غير المجدية التي هُدِرَت في السرير. أمضيتُ ساعات وأنا أراقبُ الذباب يزحف على جسدي، وأشاهده يمتصّ العرق من ذراعيّ وساقيّ.

قصدتُ الميناء في كلّ يومٍ تقريبًا. وما عدتُ الآن طفلًا يستوقفهُ حرّاس الجمارك عند البوابة كَسابقِ دَأبهم. وكانَ دومًا هنالك آخرون يتجوّلونَ على أرصفة الميناء، ويُنعِمونَ النّظر في البحر. كان ثمّة كشك مقابل مبنى إنزال البضائع من السفن، حيثُ يتوقفُ المتنزّهون للحصول على مشروب بارد، أو كوبٍ من الشاي. كانَ الرجل الذي يُديرُ الكشك يعرفُ أبي، تعرف إليه منذ الأيام التي عَمِلَ بها في الميناء، حيثُ كان يملأ الاستمارات للأشخاص الذين لا يستطيعون الكتابة. كان الرجلُ ودودًا للغاية، وكانَ يحبُّ الحديث عن أيّامهِ في البحر. حكى لي عن ابنهِ الذي سافرَ مُختَبِئًا على ظهرِ سفينة من مومباسا إلى غلاسكو حيثُ يعيش الآن. كنتُ أعرفُ القصّة، وقصص الأشخاص الذينَ عُثِرَ عليهم، وأُلقِيَ بهم في عرض البحر. ضحكَ عندما قلتُ لهُ هذا الكلام. قال: «وجدنا مسافرًا خلسة في سفينةٍ كنتُ على متنها، وأَجبَرَنا القبطان على رميهِ على مراوح السفينة. كانَ قبطانًا إيطاليًّا، من مواليد برَاوَة[1]. وعندما التقينا بهذا الأفريكاندر[2] مرة أخرى طاردناه في جميع أنحاء السفينة، وفي

---

(1) برَاوَة: Barawa مدينة ساحلية صومالية عريقة مطلّة على المحيط الهندي، تقع في إقليم شبيلي السفلي في جنوب الصومال. من أبرز معالمها برج شيلاني، وقصر سيد برغش.

(2) أفريكاندر: Afrikander أحد مواليد/ مواطني جنوب إفريقيا من أصل أوروبي أو هولندي.

النهاية قفزَ في البحر. ورأينا بأُمِّ أعيننا كيفَ تَلَقّفتهُ أسماك القرش».

في بعض الليالي حلمتُ بغرابٍ رأيتهُ عندما كنتُ طفلًا. كانت مخالبهُ مقطوعة، وكلّما حاولَ أن يحطّ، حَطَّ على ساقيه المبتورتين. تخبّطَ من شجرةٍ إلى شجرة حول تُخومِ ملعب مدرستنا، وزمرةٌ من الأطفالِ يَتعقّبونهُ وَيرشقونهُ بالحِجارة. وَحانت نهايتهُ عندما حلّقَ عبر الحقول باتّجاه مباني المدرسة. خرَّ على الأرض، وعنقهُ مَلويّة حتى الموت. حلمتُ بأنّ شخصًا ما أخفى الغُراب تحتَ وسادتي.

في الليلة الأولى التي حاولتُ النوم فيها والنور مُضاء، أتت أمّي إلى الغرفة. قعدت على حافة السرير، وانتظرت أن أتوقف عن التّظاهر بأنّي نائم.

- هل أُطفئ الضوء؟ أم أنك تخافُ من الظلام أيضًا؟

سألتها: هل أبي في المنزل؟

قالت: نعم. إنه مخمور. أحدهم ضربهُ الليلة. إنهُ ساكنٌ للغاية. لا أعرف كيف ستكون نهاية هذا الرجل.

قلتُ: أريدُ أن أغادر. لا أعرف كيف...

انتظرتني حتى أكمل.

- أمي، ألا يمكنك أن تقولي شيئًا؟

- ماذا تريدني أن أقول؟ قل لي، كيف يمكنني مساعدتك، وسأساعدك. إن كنتَ تريد الكلام فقط، فأنا متعبة. يكفيني رجلٌ واحد مهزوم في هذا المنزل.

قلتُ: أريدُ أن أحاول الحصول على عملٍ على متنِ سفينة. أبي يعرف بعض الناس المعنيين بهذا الموضوع... قد يكون بمقدوره التحدث إلى شخصٍ ما.

قد يعرفُ أحدًا من الميناء، منذُ أيام عمله هناك. ربما بإمكانه أن يسأل أحدًا ما من أجلي.

قالت وعلى مُحيّاها ابتسامة حزينة: نعم. سوفَ أخبرهُ بالأمر.

***

الفصل السادس

سفينة «إس. إس. آليس»[1]

29 أكتوبر 1968

عزيزتي سلمى،

تَطلّب الأمر مني وقتًا طويلًا إلى أن وصلتُ إلى لحظةِ الكتابة هذه، والآن كوني هنا، فأنا لم أعد مُتيقنا فيما إذا كانت هذه هي البداية الصحيحة. هذه هي البداية السابعة التي أقوم بها الآن، وكل واحدة أسوأ من سابقتها. الرقم سبعة هو رقمٌ مُبَشِّرٌ بالخير، لذا أعلمُ أنّ هذا الجهد سوفَ يؤتي ثماره على الرغم من بدايته الرديئة.

مرت ثلاثة أشهر منذ آخر مرة رأيتكِ فيها، منذُ أن غادرتُ نيروبي في أوج المجد! أتوقع أنّكِ الآن طالبة، وبالكاد لديكِ الوقت لتذكّر زيارتي الخاطفة إلى محطة السكة الحديدية في مدينتك.

التقيتُ بمريم في اليوم الموالي لليوم الذي غادرتكِ به، وتحدثتُ مطوّلًا معها. شعرتُ بأنها صديقة وفيّة. لقد أخبرتني الكثير عنك. وعدتني بأنها ستذهب لرؤيتك في اليوم التالي، وآمل أن تكون قد أوفت بوعدها وحَمَلت إليكِ حبّي. أفكّرُ فيكِ كل يوم. وعدتكِ بأن أكتب لكِ، واعتزمتُ فعل ذلك

---

(1) S.S. Alice.

فورَ وصولي إلى منزلي. ولكن تغلّبت عليّ الظروف نوعًا ما في بداية عودتي. بعدئذٍ فقدتُ الشجاعة للكتابة ببساطة، على الرغم من أنني قد أجد طريقة أقل إيلامًا لأصف ذلك إذا حاولتُ حقًّا. كنتِ جزءًا من رؤية لمستقبلٍ زاهرٍ مُشتهى، ولكني ألفيتُ كثيرًا من البؤس هنا إلى حدٍّ شعرتُ بالراحة كلما تفكرتُ بالآتي. ولكن أنّى لي مجرد التفكير في الرحيل في مثلِ هذه الأوقات. فكرتُ في الكتابة إليكِ لأرسل لكِ سلامي، فقط لأتأكد بأنك لم تنسِني، ولكن حتى ذلك بدا لي خيانة، نوع من أنواع الأنانية. كيف أمكنني التفكير بتلك الطريقة؟ لا أدري، لا أعرف. من المحتمل لأنني لم أرَ سوى بؤس قومي وهزيمتهم. لم أرَ سوى التمسّك غير المجدي بالعادات القديمة. قَضَت جدتي نحبها وبالكاد حَزِنّا عليها. كانَ الأمر كما لو أنها لم تَعِش معنا، لكنها جاءت زائرة، وواصلت رحلتها الآن. أحسستُ باستسلامنا وتقبّلنا للأمر الواقع، وبدأ يتسلّل إليّ شعور اليأس القديم ويهيمن عليّ. أحسستُ بأنّ عليّ البقاء، وأن أكون مُفيدًا. لم أستطع الكتابة لك ومثل هذا الشعور يسيطر عليّ.

ربّما كان من الواجب عليّ البقاء. نويتُ ذلك، لكني الآن بعيدٌ عن المنزل منذ ثلاثة أسابيع، ما بين مومباي ومادراس. أعملُ مساعدًا طِبيًّا على متن سفينة «إس. إس. آليس». لم أستطع مقاومة الفرصة، وغالبًا ما أشعرُ بأنّي لذتُ بالفرار.

غادرنا بومباي هذا الصباح ولله الحمد. إنها مدينةٌ كابوسيّة، مزدحمة وصاخبة، وطافحة بقذارة لا تُصدّق. تشعرُ أن الجميع هناك يصرخون أو يتدافعون أو يتسوّلون. يجب أن أعترف أني غادرتُ الميناء بشق الأنفس. أفزعني المكان. الوقتُ متأخرٌ الآن، وأنا أكتبُ هذا من سطح السفينة، تحت أضواء قارب النجاة. استقلَّ سفيتنا العديد من الركاب من بومباي، معظمهم مُتجهون إلى سينغافورة. عنابر الشحن لدينا مُمتلئة، ولن يتوفر فيها

مزيد من السعة بوصولنا إلى سنغافورة. محطتنا في مادراس هي من أجل عدد قليل من الركاب الذين صعدوا قاصدينَ مومباسا.

هذه سفينة قذرة للغاية، مُكيَّفة لنقل ركّابٍ متّسخين من سودٍ وآسيوين وسواهم. أحد طوابقها حُوِّلَ إلى حظيرة هائلة مظلمة، مع صفوفٍ متصلّة من الأسرة المعدنية لا تفصل بينها ياردة واحدة. ولا يوجد فرشٌ على الأَسِرّة، وبعض الركاب يرقدونَ على النّوابض العارية. إنهم يعيشونَ ويطهونَ طعامهم في الأسفل، يفردونَ صررهم في الممرات ويُشعلونَ مواقد البريموس (بوابير الكاز) الصغيرة، لطبخِ الأرز والفاصولياء. إنهُ مكانٌ مقيت، مظلم دومًا، حتى عندما تكون بضعة مصابيح صغيرة مُنارة. تفوحُ منهُ رائحة لبّ جوز الهند والخيش الرطب، كما لو أنهُ استُخدِمَ ذات مرة سجنًا. ومن دُونِ ذلك يمكنكِ شمّ واختبار الحضيض والبؤس البشري، وسماع أصداء أنين مرتادي رحلة الرقيق القسرية «الممر الأوسط[1]»، هناكَ

---

(1) الممر الأوسط: Middle Passage أو الرحلة عبر الأطلسي، أو تجارة الرقيق عبر الأطلسي. وهي تسميات للرحلات القسرية للأفارقة المُستعبَدين عبر المحيط الأطلسي إلى العالم الجديد. ابتداء من 1518 وإلى منتصف القرن التاسع عشر، الملايين من الرجال والنساء والأطفال الأفارقة نُقِلوا ضمن ظروف عسيرة وغير صحية (كثير منهم قضى نحبه أثناء تلك الرحلات) عبر المحيط الأطلسي على متن سفنٍ مكتظّة، برتغالية وبريطانية وفرنسية وإسبانية وهولندية وأميركية، وذلك لبيعهم في المستعمرات في أمريكا الشمالية والجنوبية. استُخدِم هؤلاء العبيد للعمل في مزراع البن والقطن والكاكاو وقصب السكر والأرز، ومناجم الذهب والفضة، وصناعات التشييد والبناء ونقل الأخشاب، والخدمة في المنازل. شكلت تجارة الرقيق عبر الأطلسي أكبر عملية ترحيل في التاريخ وغالبا ما يشار إليها على أنها النموذج الأول للعولمة. وقد شملت مناطق وقارات متعددة: أفريقيا وأمريكا الشمالية والجنوبية، وأوروبا والكاريبي وتسببت في بيع ملايين الأفارقة واستغلالهم من قبل الأوروبيين. وكانت السفن المحملة بالبضائع التجارية كالبنادق والمشروبات الكحولية والخيول الموانئ الأوروبية تغادر متجهة إلى غرب أفريقيا، حيث يقومون هناك بتبادل هذه البضائع مقابل أفارقة مُستعبَدين.

دومًا أشخاص مستلقون على الأَسِرّة. سيّدات رزينات ممتلئات الجسم التففن بثوب سَاري هنديّ عتيق، وبدونَ منتفخات مُبتلّات مثل مخلوقات خارج بيئتها. رجال نحيلون صغار القدّ تحدّقُ أعينهم في الضوء الخافت، حالمين بمفارقةِ يأسهم وقنوطهم. وأطفالٌ يَلتزّونَ مُتّخذين شكل أجنّةٍ صغيرة، ويستلقونَ مثل حِملان مريضة تنتظرُ الموت. نخوضُ بينهم حاملين معنا الدلاء والإسفنج ونحدّثهم عن الصحة والنظّافة الشخصية.

رئيسي في العمل يُدعى الطبيب مارتن. إنه استرالي وهو جامحٌ وعنيف للغاية. لا يَحفَل بأحد ولكن يعجبهُ أن يعتبر نفسه طيّبًا. كما أنه يُسرفُ في الشُّرب، ويتحدث عن الركاب وكأنهم متصوّفون. ويُعامِل الطاقم وكأنهم خنازير. يحاول إقناعي بأني أكثرُ ذكاءً من أن أكون واحدًا منهم. في البدء كنتُ مرتابًا منه. لم أكن واثقًا من نواياه. الآن، أعتقدُ أنهُ قصد أن يكون دمثًا. أراني صورة حبيبته التي تنتظرهُ في سيدني. وهي مليحة بهيّة الطلعة.

أتمنى لو كانت الظروف مختلفة، ولو أنني لم أكن بعيدًا. إنهُ محقٌّ في مُعاملةِ الطاقم مُعاملةَ الخنازير. إنهم ينادوني جيرك[1]، يقصدونَ ما أفعلهُ مع نفسي. وفي أحيانٍ أخرى ينعتونني بالعَبد أو الزنجيّ. إنهم جميعهم واعونَ بكونهم رجالًا، ويريدونَ أن يُنظرَ إليهم على أنهم أشدّاء. اليونانيون هم الأسوأ على الإطلاق. ينادون مستهزئين: شيبوك، شيبوك[2]، كما لو كان هذا كلّ ما يفعلونه عندما لا يمضغون أوراق العنب، ويغتصبونَ أنصاف الآلهة النساء.

---

(1) جيرك: Jerk من أحد معانيها المستمني.

(2) شيبوك: Chibuk أو Cibak لغة آفرو آسيوية يتحدث بها حوالي 20000 نسمة في جنوب ولاية برنو نيجيريا.

لن أعود قبل حلول العام الجديد، لذا سوفَ أواصل الكتابة إليكِ رغم عدم قدرتكِ على الردّ. من المحتمل عندما أعود إلى الموطن أن آتي لرؤيتك، وقد تكوني مهتمّة برحلة إلى السّاحل. يجب أن أستمر في هذه السفينة حتى ذلك الحين. أنا آسفٌ من أجل والدك، وآمل أن يكون على ما يُرام. كانَ من دواعي الارتياح أن أحصل على فرصة العمل. لم أكن سأضطّرُ حينها إلى أن أشقّ طريقي عبر النيل بعد كل ذلك. ربما عندما نصير أغنياء ومشاهير يمكننا الإبحار حول العالم، وسأعرفُ الناس في الموانئ التي قد نتوقف فيها. وقد أتمكن من تعريفك على إمبراطور سمين سابقٍ في مكان ما والذي كانَ يُديرُ وكرًا للأفيون في ماكاو[1]، أو ربما سوف يتسنّى لنا الالتقاء باللورد جيم[2] الذي تقطعت به السُّبُل على جزيرة نائية. هذا هو الشرق، ومثل هذه الأمور تقعُ فيه.

أفكّرُ كثيرًا بموطني وأهلي، وكيفَ تسير الحياة معهم. إنني أتألّم أشدّ الألم لمغادرتي ذلك المكان. من كانَ سيظنّ ذلك؟ لم يخطر بِبالي قط أني سأفتقدُ تلك البلاد. والآن أخشى أنني سأرمي كل شيء وراء ظهري. دراما! مزيدًا من الدراما! أنا مشتاقٌ لموطني. حتى إنني أشتاقُ إلى رؤية الرجل العجوز صاحب المبغى الذي يقطنُ في البيت المجاور لبيتنا. أحيانًا تغيبُ عن ذاكرتي بعض الأسماء، حتى بعد هذا الوقت القصير. أحاولُ تَذَكُّرَ الشوارع وألوان

---

(1) ماكاو: Macao مقاطعة صينية تقع في الساحل الجنوبي الشرقي للصين. كانت ماكاو مقاطعة برتغالية حتى نهاية القرن العشرين. وفي عرين الأفيون إشارة إلى حروب الأفيون على الصين (بين الصينين والبريطانيين) التي اندلعت عام 1839.

(2) لورد جيم: رواية من تأليف الأديب الإنكليزي البولندي الأصل جوزيف كونراد (1857-1924). تروي الرواية قصة بحار بريطاني شاب يدعى جيم يتخلى مع طاقمه عن سفينة تنقل حُجّاجًا مسلمين. فيتعرض للإدانة ويُحاكَم ويُجرَّد من شهادته. يلجأ البحار الشاب هاربًا من ماضيه المخزي إلى جزيرة نائية بهدف بدء حياة جديدة.

المنازل. أنا في المنفى، أقولُ لنفسي، مما يُسهّلُ عليّ احتمال هذا الشعور لأنني أستطيعُ بذلك منحهُ اسمًا لا يُخجِلني.

أتبدو هذه الرسالة طويلة جدًّا؟ آمل ألّا تكون مُملّة للغاية. ربّما عليّ أن أتناول الشِّعر. إن كانَ لهُ أية فائدة تُرتجى - أقصد الشِّعر - فهو يمكنه فقط أن يجعلنا نشعر بأن مخاوفنا وتصوّراتنا التافهة والمزرية ما هي إلا جزءٌ من منظومة أوسعُ معنى وشمولًا. أخفقتُ في هذه أيضًا، وأحسبهُ إخفاقًا في السّماحة وسَعَةِ النّفس؛ حاجة مُلِحّة على الدوام لِتصيّد الخطأ، والبحث عن الفشل وتعقّبِهِ بنوعٍ من القسوة العنيدة التي تتنكرُ في صورة شيء نبيل. أُمضي وقتي في حالة من الذهول والصدمة حيال الكيفيّة التي قضيتُ بها حياتي القصيرة، كلُّ ذلك الحقد والضغينة التي لا نهاية له ولا حدّ، ذلك العَجزُ عن الإحساس بالدفء. بَدّدتُ سنوات عديدة في جمع الاستياء والتضجُّر لنفسي، ورحتُ أُغذّي تلك المشاعر من مزيجٍ صَنَّعتُهُ مِن الأخطاء التي اقتُرِفَت بِحقّي. مجرد العيش في ذلك المكان جعلني أشعر بالذنب، وغير مرغوب بي، وكأنّ الذنب يقع على عاتقي. الإحساسُ بأني كنتُ موضعَ اللوم والانتقاد جعلني أنكفئُ على نفسي وألوذُ بالصمت.

لا أعرفُ إلى أيّ مدى قد يبدو ما أقولهُ منطقيًّا بالنسبةِ لكِ. حتى إني لستُ متأكدًا بعد من أنني أودُّ إخبارك بكلّ هذا الكلام. باتَ على الورق الآن، ولن أُغيّره. لربّما الأمرُ لهُ علاقة بالبحر. إنّهُ موحشٌ وعدوانيٌّ على نحو لا يُوصَف. عندما يكون البحر هائجًا تتمايل مركبتنا الضئيلة فوق مليارات من الأميال المكعّبة من التكوين، وكأن هذه الأميال لم تكن قطعة من الوجود. وفي أوقات أخرى يكون البحرُ هادئًا مُطمئنًّا، وساطعًا لامِعًا كأجملِ ما يكون، ويبدو في غاية الثبات والاتّزان، وَغدّارًا. أتوقُ إلى الإحساس بأرضٍ ثابتة صلبة وطيّبة تحت قدميّ.

أحلمُ بكِ. أفكرُ فيكِ بلا انقطاع. لم أعرف أبدًا أن التفكير بكِ سيكون على هذا النحو، بمنتهى الجمال وبمنتهى الألم أيضًا. قولي لي كيفَ أني لم أبرح أفكاركِ زمنا طويلا. لا أطيقُ صبرًا حتى الرجوع إليك.

كثيرٌ من الحبّ

حسّان

مكتبة
t.me/soramnqraa

telegram @soramnqraa

ذاكرة الرحيل

ضمن نثر مُقتَصد ولكنه حيٌّ وزاخرٌ بالتفاصيل، تُصورُ هذه الرواية المؤثرة، المشاهدَ والأصوات والمناظرَ الطبيعية الغريبة والمميّزة لمدينةٍ ساحليّة في شَرق إفريقيا، والولادة الرّوحيّة لصبيّ حَسّاس في سِنّ الخامسة عشر ينتمي إلى عائلة يَنخرها الفقر وتَعيث الرّذيلة فيها والفساد، كما تُحيطُ به حلقة مُفرغة مستديمة من العنف واليأس. في غمار هذه المشقّة يزمعُ الشاب اليافع حسّان عمر أمرهُ على الهروب.

اصطدام أسرار الماضي مع آمال المستقبل، ومزيجُ الخوف والإحباط، والجمال والوحشيّة، تَخلُقُ كلها مجتمعة حكايةً عنيفةً ومريرة ترتكزُ على قُدراتٍ إبداعيّة لا سبيلَ إلى إنكارها. إنّ نقطة التحوّل في حياة حَسّان عُمر، ترمزُ إلى قضيّة أكبر في النهاية؛ ذلك أن مَطامِح البطل ومعضلاته تعكسُ كفاحَ العالم الثالث في إفريقيا للتخلّص مِن جِلده الاستعماريّ، وما لحِقَ بهِ طويلًا من فَقرٍ وحِرمان وقَمع، والسّعي إلى تأسيسِ هويّته الجديدة.

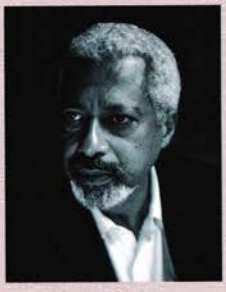

credit Mark Pringle

عبد الرزاق قرنح، من مواليد زنجبار (1948). روائي وأكاديميّ تَنزانيّ من أصول يمنيّة، يُقيم في المملكة المتحدة ويحمل الجنسية البريطانية. يعملُ قرنح أستاذًا ومديرًا للدراسات العليا في جامعة كِنت في قسم اللغة الإنكليزية. في رصيده عشر روايات والعديد من القصص القصيرة والمقالات. ترشحت أعماله لعدة جوائز مثل، البوكر، الكومنولث للكتّاب. وفي أكتوبر 2021 حازَ قرنح على جائزة نوبل في الأدب.

ISBN 978-603-91836-1-7

تصميم الغلاف:
أحمد الصباغ

لوحة الغلاف للفنان:
رائد فوزان

أثر